كتاب على التوراة

أو

الرد على اليهود

تأليف

الإمام علاء الدين علي بن محمد الباجي

المتوفى سنة ٧١٤ هـ

تحقيق

السيد يوسف أحمد

Title: Kitâb ʿalâ al-Tawrât
aw: Al-radd ʿalâ al-Yahûd
(A book about The Torah)

Author: ʿAlaʾuddīn al-Bāji

Editor: Al-Sayyid Yūsuf Aḥmad

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 200

Year: 2007

Printed In: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: كتاب على التوراة
أو: الردّ على اليهود

المؤلف: علاء الدين علي بن محمد الباجي

المحقق: السيّد يوسف أحمد

الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت

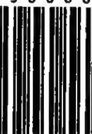
عدد الصفحات: 200

سنة الطباعة: 2007 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-4953-9

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م ـ ١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، حمدًا طيبا طاهرًا مباركًا فيه، حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده. لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وقد أنزل الله تعالى على نبينا ﷺ القرآن فيه هدى للناس كافة وجعله النبي الخاتم، والقرآن الكتاب الجامع لما سبق فقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد تكفل الله بحفظ كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وذلك بعد ما كان من أصحاب الكتب السابقة، حيث امتدت أيديهم الأثيمة إلى الكتب المنزلة عليهم بالتحريف والتبديل.

القرآن وكيف وصل إلينا:

يعتبر القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد من الكتب السماوية على ظهر الأرض المعروف والمنقول عن النبي ﷺ، فقد كان حوله الصحابة يكتبون ويحفظون كل ما نزل عليه ﷺ بل تخصص بعضهم في الكتابة خاصة وكانوا يسمون كتّاب الوحي ولم ينتقل الرسول الكريم إلى جوار ربه حتى كان مكتوبًا كاملا بل وقد راجعه جبريل عليه السلام مرتين وحفظ وكتب الصحابة رضوان الله عليهم ذلك.

الصديق وجمع القرآن:

جمع القرآن في عهد الصديق بمشورة من أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب، وقد كلف بذلك كبار الصحابة وكتّاب الوحي ولم يكونوا في حاجة إلى نسخه عدة نسخ لأنهم كانوا يحفظونه عن ظهر قلب ولكن لما انتشر الإسلام في زمن عمر ومن بعده عثمان رضي الله عنهما وكثرت الفتوحات دعت الحاجة إلى كتاب جامع بعدما كتب كثير من الصحابة مصاحفَ في البلاد التي نزلوا فيها .

عثمان والقرآن:

لما كثرت الفتوحات ودخل الناس في دين الله أفواجًا وخاف اختلاف الناس، طلب من الصحابة كتابة القرآن من نسخة الصديق ثم أرسل بها إلى البلاد وحرقوا غيرها من النسخ وأصبحت هذه النسخة هي الأساس في كل البلاد ومنها يكتبون جميع نسخهم .

وهذا معروف بسنده المتصل من النبي ﷺ إلى أن نسخ عثمان مصحفه من أصل ما كتبه الصحابة نقلاً عن النبي ﷺ .

التوراة وسندها:

لو نظرنا إلى التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب الآن لا نجد لها سندًا متصلاً إلى نبي الله موسى عليه السلام، وسنبين ذلك قريبًا.

معنى التوراة:

التوراة كلمة عبرية معناها الشريعة أو التعاليم الدينية.

وقد اعتمد اليهود تسعة وثلاثين سفرًا أطلق عليها اسم «العهد القديم»، وذلك للتفرقة بينها وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التي أطلقوا عليها «العهد الجديد»، وجرت العادة أن يطلق على أسفار العهد القديم وأسفار العهد الجديد اسم «الكتاب المقدس».

واليهود يعتبرون التسعة والثلاثين سفرًا هذه: أسفارًا مقدسة أي موحى بها، ويطلقون على خمسة منها إطلاقًا حقيقيا اسم التوراة، أو كتب موسى لأنها في زعمهم أنزلها الله على موسى عليه السلام وكتبها موسى بنفسه وهذه الأسفار الخمسة هي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين، وسفر العدد.

أما الأربعة والثلاثون سفرًا الباقية فمنسوبة إلى أشخاص كتبوها بعد موسى عليه السلام بأزمان متفاوتة في الطول والقصر وهي: يشوح والقضاة، وراعوث، وصموائيل الأول، وصموائيل الثاني، والملوك الأول، والملوك الثاني، وأخبار الأيام الأول، وأخبار الأيام الثاني، وعزرا، ونحيما، واستير، وأيوب، والمزامير، والأمثال والجامعة، ونشيد الأنشاد، وأشعياء، وأرمياء، ومراثي أرمياء، وحزقيال، ودانيال، وهوشع، ويوئيل، وعلموس، وعويديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفتيا، وحجى، وزكريا وملاحى».

وهذا الأسفار التسعة والثلاثون التي تعتمدها الكنيسة البروتستانتينية، أما الكنيسة الكاثوليكية فتضيف سبعة أسفار أخرى هي «طوبيا، ويهوديت، والحكمة، ويسوع بن سيراخ، وباروخ، والمكابيين الأول، والمكابيين الثاني» وبذلك تكون الأسفار المقدسة عندهم ستة وأربعين.

والأسفار في جملتها صبغتها دينية إلا أن منها ما يغلب عليه الطابع التاريخي كأسفار التكوين والخروج ويشوع والقضاة وأخبار الأيام وعذر ونحميا، ومنها ما يغلب عليها الطابع التشريعي والأخلاقي والتوجيهي كأسفار اللاويين والمزامير والجامعة وأشيعا ومراثي أرمياء.

القرآن والتوراة: اعترف القرآن بالتوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى ومدحها فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٢، ٣].

وقد امتدت أيديهم إلى التوراة فحرفوها وبدلوها وأخفوا منها ما لا يتفق مع أهوائهم وشهواتهم فقال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ ﴾ [المائدة: ١٣].

سند التوراة:

التوراة الموجودة حاليا ليس لها سند متصل إلى موسى عليه السلام، بل هي على النقيض من ذلك إذ يوجد فيها ما يدل على أنها كتبت بعده بزمن طويل فمثلا جاء في سفر التثنية بخصوص وفاة موسى نص يقول: «فمات موسى عبد الرب في أرض مؤاب ولا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا». فهذا نص يدل على أنه كتب بعد موسى وأيضا «ولم يقم بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى».

ومن الواضح أن مثل هذا الكلام مكتوب بعد وفاة موسى عليه السلام وقال الهندي في كتابه إظهار الحق: اعلم أرشدك الله تعالى أنه لا بد لكون الكتاب سماويًّا واجب التسليم أن يثبت أولا بدليل تام أن هذا الكتاب كتب بواسطة النبي الفلاني، ووصل إلينا بعد ذلك بالسند المتصل بلا تغيير ولا تبديل، وأنه لا سند لكون هذه

التوراة المنسوبة إلى موسى عليه السلام من تصنيفاته ويدل عليه أمور منها: أن تواتر هذه التوراة منقطع قبل زمان يوشيا بن آمون (أحد ملوك اليهود حكمهم من سنة ٦٤٠: ٦٠٩ ق.م) أي بعد موسى بستة قرون، والنسخة التي وجدت بعد ثماني عشرة سنة من جلوسه على سرير السلطنة لا اعتماد عليها يقينًا، ومع كونها غير معتمدة ضاعت هذه النسخة أيضًا غالبًا قبل حادثة بختنصر، وفي حادثته انعدمت التوراة وسائر كتب العهد القديم عن صفحة العالم رأسًا، ولما كتب عزرا هذه الكتب -على زعمهم- ضاعت نسخها وأكثر نقولها في حادثة انتيوكس».

(انتيوكس حكم سوريا من سنة ١٧٤: ١٦٤ ق. م)[1]

التوراة وعبارات التناقض:

يقرر سفر التكوين أن الله تعالى بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع، وكان يوم سبت وأن الله قد بارك هذا اليوم ومن أجل ذلك حرم فيه العمل».

وهذا الوصف تنزه عنه الخالق قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

وكذلك تنسب التوراة الحالية لبعض الأنبياء عليهم السلام أعمالاً قبيحة تتنافى مع العصمة التي منحها الله تعالى لهم ففي سفر التكوين عن لوط عليه السلام يذكر أنهم عقب هلاك قومه أقام مع ابنتيه في غار فقالت كبراهما لصغراهما إن أبانا قد أصبح شيخًا كبيرًا وليس في هذا المكان القفر رجال يتصلون بنا على النحو الذي يفعله ذكور الناس مع إناثهم وإذا بقي الأمر هذا على تلك الحالة فسينقرض نسل أبينا بعد وفاته ووفاتنا، وخير وسيلة لاتقاء هذه العاقبة أن نسقي أبانا خمرًا حتى يفقد وعيه ويتصل بنا فنأتي منه بذريته، ثم أنفذتا ما اتفقتا عليه وجاءت الكبرى بغلام أسمته مؤاب، وجاءت الصغرى بغلام أسمته عمون وغيرها من المتناقضات الكثيرة (انظر بنو اسرائيل في القرآن والسنة).

اليهود والتوراة:

التوراة الحالية في مجموعها قد كتبت بعد موسى عليه السلام بأزمان متفاوتة

(١) انظر إظهار الحق للهندي رحمه الله (١/٥٦-٥٨).

وبأفكار مختلفة، وإن اليهود كتبوها انعكاسًا لأخلاقهم وتاريخهم وآمالهم وآلامهم، وكان مقصدهم الأول من وراء ذلك إظهارهم الشعب الإسرائيلي بمظهر الشعب المقرب إلى الله تعالى والمفضل على غيره من الشعوب ولكثرة الأشخاص الذين اشتركوا في كتابتها امتلأت بالأخطاء والمفتريات والمتناقضات.

المصنف والتوراة:

وقد دفع كثرة الأخطاء والمفتريات المصنف إلى تأليف كتابه هذا وسماه:

«كتاب على التوراة» أو «الرد على اليهود»

وقد قام بأخذ أسفار التوراة الخمسة وهي: سفر التكوين - وسفر الخروج - وسفر التثنية - وسفر اللاويين - وسفر العدد . سفرًا سفرًا ذاكرًا وموضحًا التناقض فيها في بيان وتوضيح كل هذه المفتريات مما يوضح ما قلناه من اختلاف النصوص مما يدل على أنها من تأليف أشخاص لهم أهواء وأغراض وليست من نبي الله موسى عليه السلام، وقد كان المصنف بارعًا في ذلك وهذا من خلال إظهاره هذا التناقض وعدم انضباط النصوص وعدم حقيقتها.

ترجمة المصنف

هو الإمام علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب علاء الدين الباجي (٦٣١-٧١٤ هـ).

قال في الأعلام (٤/٣٣٤): علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب علاء الدين الباجي[1]: عالم بالأصول والمنطق والحساب، من أهل مصر، مغربي الأصل.

كان أقوى أهل زمانه مناظرة لا يكاد ينقطع في بحث. ولِّي وكالة بيت المال بالكرك، وناب في الحكم بالقاهرة.

ونسبت إليه مقالة فاختفى مدة وتقشف في أواخر أيامه، وله كتب في الفرائض والحساب والرد على اليهود، وأشهر كتبه «كشف الحقائق في المنطق»، و«غاية السؤل في علم الأصول».

وقيل: ما من علم إلا وله فيه مختصر.

---

(١) ترجمته:- مفتاح السعادة (٢/٢٢٤)، وفيات الأعيان (٢/٧٥)، والإعلام للزركلي (٤/٣٣٤)، الدرر الكامنة (٣/١٠١)، طبقات الشافعية (٦/٢٢٧).

وصف المخطوط

المخطوط بدار الكتب المصرية تحت رمز علم الكلام رقم (١٩٢٣) بخط سنة تسع وسبعين وثمانمائة، ومصورة تحت رقم ميكروفيلم (٣٩٣٧١).

خطة العمل بالكتاب

اعتمدنا في عملنا بالكتاب في بيان وشرح بعض النصوص والأحداث وتفسير آيات القرآن الموضحة في الرد على اليهود واستعنا في ذلك بعدة كتب منها:

١- تفسير ابن كثير.

٢- البداية والنهاية لابن كثير.

٣- شرح مسلم للإمام النووي.

٤- بنو إسرائيل في القرآن والسنة لفضيلة شيخ الأزهر وغيرها من الكتب بجوار كتب الصحاح الستة وغيرها.

٢١٦

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن يا الله

قال شيخنا الإمام العلامة الحبر البحر فريد الدهر وحيد العصر [illegible] سلطان العلماء والفاضل [illegible] الكامل حجة [illegible] الدين [illegible] الشافعي

أما بعد فإني نظرت في توراة موسى عليه السلام [illegible] النصارى الملكية [illegible] وهي خمسة أسفار [illegible] أسولة على [illegible]

السؤال على القراءة الأولى من السفر الأول من التوراة

وهو سفر كون الدنيا أنه قال في الأول خلق الله السماء والأرض وكانت الأرض [illegible] والظلمة فوق اللجة وروح الله ترف فوق الماء وقال الله ليكن النور فكان النور ونظر الله أن النور حسن وافصل الله بين النور ومن الظلمة ودعا الله النور نهارا والظلمة دعا ليلا وكان مسا وكان صباح يوم واحد والكلام على هذه القراءة من وجوه ثلاثة أحدها

أنه كيف يحسن أن يقال في الأول خلق الله السماء والأرض أي في اليوم الأول [illegible] فيها مخلوقتان في اليوم الثاني [illegible] في اليوم الثاني وقال الله يكن جلد وسط الماء [illegible] ودعا الله [illegible] وقال [illegible] في اليوم الثالث وليظهر اليبس وكان كذلك ثم قال فظهر اليبس ثم قال [illegible]

[illegible]

صورة من المخطوط

صورة من المخطوط

وأخيرا

فهذا ما تم بحمد الله وتوفيقه وأرجو أن أكون قد قدمت للقارئ هذا العمل المتواضع راجيًا من كل قارئ وصل إليه هذا الكتاب إن وجد نقصًا أو تقصيرًا أن يوجهنا إلى ما هو صواب فنحن ما نزال طلاب للعلم والكمال لله سبحانه وتعالى وكل ما نقوم به لا نبتغي إلا وجه الله تعالى ونسأل الله أن يجعله في ميزان حسناتنا.

كما أشكر كل من ساعدنا في إنجاز هذا العمل داعيًا المولى لهم أن يجعلهم دائما وأبدًا أهل خير وأن يتقبل الله منهم صالح أعمالهم.

ولا يفوتني أن أترحم على أبي وأمي فعليهم رحمة الله، ونسأل الله لهم الرحمة والمغفرة وأن يتجاوز عن سيئاتهم ويزيد في حسناتهم وأن يلحقنا بهم على الإيمان والإسلام غير مقصرين ولا مضيعين إنه خير مأمول ونعم المولى ونعم النصير.

كما أتوجه بالدعاء إلى الله أن ينصر الإسلام ويعز أهله وأن يعينهم على طاعته والسير على هديه كي يعودوا إلى عهدهم القديم سادة الدنيا وذلك بالتمسك بدينه والزود عنه ضد أعداء الإسلام ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وأقدم شكري لرفيقة الحياة الزوجة الصالحة لما قدمته لي من العون في هذا العمل، وأهدي لها هذا العمل ولفلذة أكبادنا أولادنا الأعزاء ابنتنا الكبرى رنا وأخويها أحمد ومحمد داعيًا المولى أن يرزقهم الهداية لطريقه المستقيم والسير على هدي رسوله الكريم ﷺ ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

المحقق

السيد يوسف أحمد

في الجمعة ٨ من صفر سنة ١٤٢٦ هـ

١٨ من مارس سنة ٢٠٠٥ م

بعزبة النخل الغربية – المطرية– القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن يا الله

قال شيخنا الإمام العلامة الحبر البحر فريد الدهر وحيد العصر منقح أذهان الحفاظ سلطان المعاني والألفاظ لسان المتكلمين حجة المناظرين مفتي المسلمين علاء الدين علي بن محمد بن خطاب الباجي الشافعي.

أما بعد:

فإني نظرت في توراة موسى عليه السلام[١] المعربة التي بيد النصارى الملكية[٢] على ما زعموا وهي خمسة أسفار .

فسنح بخاطري أسئلة على ألفاظها فذكرتها على ترتيبها.

---

(١) هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

قال السهيلي: واسم أم موسى أيارخا، وقيل: أياذخت.

اختاره الله تعالى وأيده بالمعجزات وأرسله إلى فرعون قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤].

ثم كان ما كان من أمر السحرة ومن هلاك فرعون وجنوده وله فضائل كثيرة متعددة، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم:٥١-٥٢]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٤].

(٢) هي إحدى طوائف النصارى ومنهم: الملكية، واليعقوبية، والنسطورية وسيأتي توضيح التسمية بالملكية في ذكره صورة عيسى.

السؤال على القراءة الأولى
من السفر الأول من التوراة

وهو سفر كون الدنيا أنه قال في الأول[1]:-

خلق الله السماء والأرض فكانت الأرض غير منظورة وغير مستعدة.

والظلمة فوق اللجة، وروح الله ترف فوق الماء

وقال الله: ليكن النور فكان النور. ونظر الله أن النور حسن .

وفصل الله بين النور وبين الظلمة، ودعا الله النور نهارًا، والظلمة دعاها ليلاً[2].

وكان مساء وكان صباح يوم واحد.

والكلام على هذه القراءة من وجوه ثلاثة:-

أحدهما: أنه كيف يحسن أن يقال في الأول خلق الله السماء والأرض[3] أي في

---

(١) روى الترمذي في سننه (٢١٥٥) كتاب القدر، باب منه-ما جاء في الرضا بالقضاء، وأحمد في مسنده (٢٢٧٦٨)، وأبو داود (٤٧٠٠) عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » واللفظ لأحمد.

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٢) قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس:٣٧-٤٠].

قال ابن كثير في تفسيره (٣/٥٨٩):- يقول الله تعالى: ومن الدلالة على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضيائه وجعلهما يتعاقبان يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا كما قال تعالى: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤]ولهذا قال عز وجل ههنا: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ [يس: ٣٧]. أي نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾.

(٣) قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

اليوم الأول – وقد ذكر بعده ما يعني أنهما مخلوقتان في اليوم الثاني والثالث؛ لأنه قال بعده في اليوم الثاني: وقال الله ليكن جلد وسط الماء، ثم قال بعده: وصنع الله الجلد، ثم قال بعده: ودعا الله الجلد سماء.

وقال بعده أيضًا في اليوم الثالث: وليظهر اليبس وكان كذلك، ثم قال: فظهر اليبس[1]، ثم قال: وسمى الله اليبس أيضًا.

وإذا خلقتا في اليوم الثاني والثالث لم يكونا مخلوقين في الأول، بل ظاهر اللفظ أن المخلوق في اليوم الأول اللجة والظلمة، ثم النور، ثم الليل والنهار، ثم في اليوم الثاني السماء، ثم في اليوم الثالث الأرض[2]، فليس خلق السماء والأرض في اليوم الأول لا باعتبار الأيام؛ لأن خلق السماء في اليوم الثاني[3].

والأرض في اليوم الثالث، ولا باعتبار المخلوقات لأن قبلها خلق الظلمة واللجة

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/٩٣):- أما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله تعالى عنه فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية في صحيحه وساق ابن كثير حديث البخاري بطوله وفيه «وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحى الأرض ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى: ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾».

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٤/٩٣): قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس وقدر فيها أقواتها وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال: ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي: من أراد السؤال عن ذلك ليعلمه قال ابن عباس وقتادة والسدي، وقال ابن زيد معناه: أي وفق مراده من له حاجة إلى رزق.

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٤/٩٣):-

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ وهي بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أي استجيبا لأمري، قالتا: ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعًا مطيعين لك.

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أي ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين أي آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي ورتب مقررًا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو.

والنور والليل والنهار على ظاهر هذا اللفظ، وفي نسخة: في البدء عرض الأول، وهما متقاربان في المعنى.

فكانت الأرض خربة خاوية، والظلمة كانت على الغمر.

وثانيها: كيف يحسن أن يقال: وفصل الله بين النور وبين الظلمة(١).

فإن ظاهره أنهما عند خلق النور اختلطا، فاحتاجا إلى فصل بينهما ليتميزا كاختلاط الحنطة والشعير وليس كذلك، فإن النور لا يمكن أن يوجد معه الظلمة أصلاً فضلاً عن أنهما مختلطان حتى يحتاجا إلى فصل بينهما(٢).

فإن من أوقد في بيت مظلم سراجًا مثلاً لا يمكنه أن يقول: قد اجتمع في البيت ظلمة ونور فيحتاجان إلى فصل بينهما بل انعدمت ظلمة البيت بمجرد إيقاد السراج فيه، وتحقيقه أن الظلمة عدم النور(٣)، فالنور لا يجتمع معه عدمه حتى يحتاج إلى

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ يقول: لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل وقال الضحاك: لا يذهب الليل من ههنا حتى يجيء النهار من ههنا وأومأ بيده إلى الشرق.

وقال مجاهد: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ يطلبان حثيثين يسلخ أحدهما من الآخر، والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلبا حثيثًا.

(٢) قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلاً مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلاً ﴾ [الإسراء:١٢].

وقال تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ [الحج: ٦١].

قال ابن كثير: ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا ومن هذا في هذا.

فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف . تفسير ابن كثير (٣/٢٣٩-٢٤٠).

(٣) في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً ﴾ [الفرقان:٦٢] قال ابن كثير: أي يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران إذا ذهب هذا جاء هذا وإذا جاء هذا ذهب ذاك كما قال تعالى: ﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ الآية وقال: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ ﴾ الآية تفسير ابن كثير (٣/٣٣٤).

الفصل بينهما.

وثالثها: أنه كيف يحسن أن يقال: دعا الله النور نهارًا، والظلمة دعاها ليلاً، فإن ظاهره أن الليل والنهار مخلوقان في اليوم الأول وأنهما مجرد الظلمة والنور من غير شمس(١)، فإن الشمس ما توجد إلا في اليوم الرابع كما ذكر بعد ذلك في القراءة الثالثة مع أنا نجد بضرورة عقولنا أن النهار إنما هو بنور الشمس كما ذكره الحكماء، النور المقابل للظلمة في الدنيا ليس إلا نور الشمس وهذا أمر لا يمكن لأحد أن يكابر فيه نفسه قبل وجود الشمس لا يمكن أن يوجد النهار.

هذا السؤال بالحقيقة هو سؤالان:

أحدهما: أن ظاهر اللفظ أن الليل والنهار مخلوقان في اليوم الأول(٢)، مع أن الشمس المتوقف عليها وجود النهار إنما خلقت في اليوم الرابع.

ثانيهما: أن النهار بنور غير نور الشمس مع أنا نجد الواقع بخلافه.

---

(١) قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١]. والسراج هي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ: ١٣]. وقال تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾.

روى مسلم في صحيحه [٢٧-(٢٧٨٩)] كتاب صفة المنافقين وأحكامهم، ١- باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل».

(٢) قال في البداية والنهاية (١/٢٠): وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشك في ذلك مسلم أن الله خلق السموات والأرض، وما بينهما في ستة أيام كما دل عليه القرآن الكريم، فاختلفوا في هذه الأيام أهي كأيامنا هذه أو كل يوم كألف سنة مما تعدون، على قولين كما بينا ذلك في التفسير، واختلفوا هل كان قبل خلق السموات والأرض شيء مخلوق قبلهما، فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء وأنهما خلقتا من العدم المحض، وقال آخرون: بل كان قبل السموات والأرض مخلوقات أخر لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾.

السؤال على القراءة الثانية من السفر الأول من وجوه سبعة

أحدها: أنه كيف يحسن أن يقال: وقال الله: ليكن جلد وسط الماء، ثم قال بعده: وصنع الله الجلد، ثم قال بعده: ودعا الله الجلد سماء[١]، فإن ظاهره أن السماء مخلوقة في اليوم الثاني، مع أنه قد ذكر أولا: أنها مخلوقة في الأول، فقد تناقض الخبران، وفي نسخة أخرى: ليكن رقع بدل جلد، وفرق بدل فصل[٢].

وثالثها[٣]: أنه كيف يحسن أن يقال في اليوم الثالث وليظهر اليبس، ثم قال بعده: وظهر اليبس، ثم قال بعده: وسمى الله تعالى اليبس أرضًا؛ فإن ظاهره أن الأرض مخلوقة في اليوم الثالث وقد ذكر أولا في اليوم الأول أنها في الأول خلقت[٤]، فقد تناقض الخبران.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات ٢٧- ٣٣].

فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض، فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين – أي في "سورة فصلت" المتقدمة في التخريجات السابقة- ولم يفهموا هذه الآية الكريمة فإن مقتضى هذه الآية أن دحا الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء، وقد كان مقدرًا فيها بالقوة كما قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت١٠] أي هيأ أماكن الزرع ومواضع العيون و الأنهار ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحا الأرض فأخرج منها ما كان مودعًا فيها. البداية والنهاية (١/٢٩).

(٢) قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠].

أي فصلنا ما بين السماء والأرض، حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار وجرت العيون والأنهار وانتعش الحيوان، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢].

أي عما خلق فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والنجوم الزاهرات والأجرام النيرات وما في ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسموات. البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٢٨ ، ٢٩).

(٣) لا يوجد بالأصل ثانيها.

(٤) حكى ابن جرير عن محمد بن إسحاق أنه قال أول ما خلق الله عز وجل النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلا أسود مظلمًا، وجعل النور نهارًا مضيئًا مبصرًا . قال ابن جرير: «وقد =

ورابعها: كيف يحسن أن يقال:واجتمعت المياه التي تحت السماء إلى مجامعها، بعد قوله: لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى مجمع واحد، وليظهر اليبس، وكان كذلك[1]، فإن المجامع جمع، والمجمع الواحد مفرد، وهما متناقضان، فيمتنع أن تجتمع المياه في مجامع مع كونها مجتمعة في مجمع واحد.

وخامسها: كيف يحسن أن يقال: واجتمعت المياه إلى مجامعها بعد أمره لها باجتماعها في مجمع واحد، كأن وقوع المأمور على خلاف الأمر الإلهي التكويني ممتنع باتفاق العقلاء، ولا تقع المخالفة في الأمر التكليفي، فإنه إذا كلف الله تعالى شخصا بشيء أمكن أن يعصي ويخالف الأمر، ولا يأتي بالمأمورية[2].

وسادسها: أنه كيف يحسن أن يقال: وقال الله لتخرج الأرض نبات حشيش بذرًا يبذره كنحو جنسه وشبهه، مع أن الذي تخرجه الأرض يومئذ لم يوجد قبله شيء من جنسه يشبهه حتى يشبه به[3]، بل هو أول نبات مبتدع من غير تقدم جنس له فإن

قيل: إن الذي خلق ربنا بعد القلم الكرسي، ثم خلق بعد الكرسي العرش، ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء » البداية والنهاية (١/٢٢).

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/٣٠): روى السدي الكبير بسنده عن ابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٩]. قال: إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئًا مما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانًا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضًا واحدة، ثم فتقها فجعل سبع أرضين في يومي الأحد والاثنين .... وذكره بطوله.

(٢) قال تعالى في أمر السماء والأرض: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ أي: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعًا مطيعين لك.

قال الثوري بسنده عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ قال:قال الله تبارك وتعالى للسموات اطلعي شمسي وقمري ونجومي وقال للأرض شققي أنهارك وأخرجي ثمارك. تفسير ابن كثير(٤/٩٣).

(٣) روى البخاري في صحيحه في تفسير القرآن من حديث ابن عباس عندما قال له رجل إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي، ثم ذكر فيه قال: ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ الى قوله: ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ =

قيل هذا إخبار لموسى عليه السلام بعد وجوده عن وقت خلق الأرض ونباتها. وبعد وجود موسى كان قد وجد النبات جنس وشبه تشبه به حينئذ.

قلت: لا يصح هذا لأن هذا إخبار لموسى عن القول الذي صدر في ذلك الزمان، ولا يحسن صدور هذا القول في ذلك الزمان لعدم الجنس في ذلك الزمان، وإنه جنس في هذا الزمان بعد وجود الجنس، وإنما يصح هذا الجواب في قوله في اليوم الخامس:-

وأبدع الله حيتانًا عظيمة(١)، وكل نفس الدبابيب الحية التي أخرجتها المياه كأجناسها فإنه إخبار لموسى يؤمئذ عن فعل سابق لا عن قول سابق.

وسابعها: أنه كيف يحسن أن يقال في الثمر: وعودًا مثمرًا صانع ثمرة يبذره منه، وفيه كالجنس وأشبه .

مع أنه ليس هناك جنس حينئذ ولا شبه كما تقدم، بل هو أول عود مثمر.

السؤال على القراءة الثالثة

من وجوه ستة:

أحدها: أنه كيف يحسن أن يقال: وقال الله ليكن نيران في جلد السماء ليضاء على الأرض، ثم قال بعده أيضًا: فليضاء في جلد السماء(٢)، فإن ظاهره أن الإضاءة

=

فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء .... إلى آخر كلامه.

فقال ابن عباس: خلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله ﴿ دَحَاهَا ﴾.

(١) روى مسلم في صحيحه [٢٧-(٢٧٨٩)] كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، ١- باب ابتداء الخلق وقد تقدم ذكر الحديث وفيه «وخلق النور يوم الأربعاء »، قال النووي: كذا هو في صحيح مسلم النور بالراء وروايات ثابت بن قاسم النون بالنون في آخره، قال القاضي: وكذا رواه بعض رواة صحيح مسلم وهو الحوت ولا منافاة أيضًا فكلاهما خلق يوم الأربعاء.

(٢) قال تعالى:﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت:

=

والإنارة حصلت في اليوم الرابع، مع أنه قد تقدم أن النور خلق في اليوم الأول وفصل النهار عن الليل فيه(١)، فقد تناقض الخبران.

ثانيها: أن ظاهره أن النور بهما وقد تقدم في اليوم الأول أن النور حاصل بدونهما فقد تناقض الخبران، ولاسيما في نسخة هنا: وفرق الله الضوء من الظلمة، فهذا تصريح بالسؤال فقد تناقض الخبران..

وثالثها: أنه كيف يحسن أن يقال: وليفصلا بين النهار وبين الليل في اليوم الرابع، وقد تقدم في اليوم الأول أنه قد فصل الله بين النور والظلمة وسماهما ليلاً ونهارًا، فتميز الليل والنهار فيه(٢)، فقد تناقض الخبران.

ورابعها: أن ظاهره أنهما هما الفاصلان بين الليل والنهار.

وقد تقدم في القراءة الأولى أن الله في اليوم الأول(٣)، فصل بين النور والظلمة

= ١٢]، فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب، فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك، وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون والله أعلم. البداية والنهاية لابن كثير(٤٧/١)

وقال في تفسيره (٩٣/٤): في قوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض.

(١) في قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

قال في البداية والنهاية (٤٥/١): أي لا تدرك الشمس القمر فتطلع في سلطانه ودولته ولا هو أيضا،ولا الليل سابق النهار: أي ليس سابقه بمسافة يتأخر ذاك عنه فيها، بل إذا ذهب النهار جاء الليل في أثره متعقبًا له كما قال في الآية الأخرى ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤].

(٢) قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان: ٢٩].

قال في البداية والنهاية: فيولج من هذا في هذا أي يأخذ.

(٣) حكى ابن جرير في أول الأيام ثلاثة أقوال فروى عن محمد بن إسحاق أنه قال: يقول أهل التوراة ابتدأ الله الخلق يوم الأحد، ويقول أهل الإنجيل: ابتداء الله الخلق يوم الاثنين.

ونقول: نحن المسلمون فيما انتهى إلينا عن رسول الله ﷺ: ابتدأ الله الخلق يوم السبت وهذا القول الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين. مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية، =

اللذين سماهما ليلاً ونهارًا فلم يحتج فصلهما بعد ذلك على فاصل آخر، ولا لزم منه تحصيل الحاصل. ولزم منه اجتماع المحصلين الثابتين على المحصل الواحد وهما محالان.

وخامسها: أنه كيف يحسن أن يقال: والنجوم وضعها الله في جلد السماء لتنير على الأرض (وترأس)[1] على النهار وعلى الليل، مع أن النجوم لا رياسة لها على النهار ولا أثر ولا ظهور أصلاً بل رياستها على الليل خاصة كالنور الأصغر وأما رياسة النهار فللشمس خاصة.

وسادسها: أنه كيف يحسن أن يقال أيضًا أنها تميز ما بين النور والظلمة مع أن الذي يميز بين النور والظلمة والليل والنهار، إنما هما النيران كما ذكره في أول هذه القراءة، بل في الحقيقة ظلمة الليل هي التي تميز النجوم وتبينها[2]، ونور النهار يخفيها لا أنها هي تميز ما بين النور والظلمة، فالأمر بالعكس.

السؤال على القراءة الرابعة

من وجوه ثمانية:

أحدها: أنه كيف يحسن أن يقال: قال الله فلتخرج الأرض نفسها حية كجنسها ذوات أربع، دبابات ووحوش الأرض وبهائمها وكل دواب الأرض كجنسها وكان كذلك[3]، مع أنه لم يوجد يومئذ شيء من جنسها يشبه به، وقد تقدم شرحه.

=

وغيرهم.

والقول بأنه الأحد: رواه ابن جرير بسنده عن ابن مسعود وعن جماعة من الصحابة،ورواه أيضًا عن عبد الله بن سلام واختاره ابن جرير وهو نص التوراة ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء، وهو أشبه بلفظ الأحد، ولهذا كمل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة، فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع وهو اليوم الذي أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا. البداية والنهاية لابن كثير(١/٢٨)

(١) بالأصل (ويروس).

(٢) قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

قال ابن كثير في تفسيره (٤/٩٣):- المصابيح هي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض وفي (٤/٣٩٦): وقال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجومًا للشياطين وعلامات يهتدى بها: فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]. أي أصل كل الأحياء، وروى

=

وليس هذا مثل قوله في القراءة الثالثة في اليوم الخامس وأبدع الله حيتانًا عظيمة، وكل نفس الدبابيب الحية التي أخرجتها المياه كأجناسها[(١)].

لأن ذلك إخبار عن فعل سابق، وفي وقت الإخبار لها جنس، وهذا هنا إخبار عن قول سابق، وهذا القول السابق لا يحسن في الوقت السابق لعدم الجنس فيه[(٢)].

وثانيها: كيف يحسن بعد ذلك أن يقال:- وأبدع الله وحوش الأرض كجنسها، وهو تكرار له بعينه من غير زيادة فائدة، بل الأول أبسط و أكثر فائدة.

وثالثها: كيف يحسن أن يجمع في هذا الكلام الثاني مع قلته بين لفظتين متنافيتين؛ فإن قوله: أبدع يقتضي الخلق من غير تقدم جنس وشبه[(٣)]، إذ هذا حقيقة

=

ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة قال: يا نبي الله إذا رأيتك قرت عيني وطابت نفسي، فأخبرنا عن كل شيء ؟ . قال: «كل شيء خلق من ماء». تفسير ابن كثير (٣/١٨٢).

(١) في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣] أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق هذه من هذه فجعل السموات سبعًا والأرض سبعًا وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض، ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٠]. أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئًا فشيئًا عيانا، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء . تفسير ابن كثير (٣/١٨١)

(٢) قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣].

قال في البداية والنهاية (١/٤١): ذكر تعالى ما خلق في الأرض من الجبال والأشجار والثمار والسهول والأوعار وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات في البداري والقفار والبر والبحار ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه، وما سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه في ليلها ونهارها وصيفها وشتائها وصباحها ومسائها كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

(٣) قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان: ١٠].

=

الإبداع.

وقوله عقيبه: كجنسها، يقتضي تقدم جنس لشبه به، وذلك متناقض.

والسؤال الثاني والثالث ورادان لعينهما على قوله: وكل دبابات الأرض كجنسها لأنه معطوف على القول الأول.

ورابعها: كيف يحسن أن يقال: وقال الله ليصنع إنسانًا كصورتنا وشبهنا(١)، فإن قوله: ليصنع، صيغة أمر متوجهة نحو الآمر المتكلم، لأن النون في الفعل المضارع في مثل هذا الموضع للمتكلم العظيم، وصيغة الأمر إنما توجه نحو المأمور المخاطب أو الغائب لأن أمر الآمر لنفسه ممتنع سواء كان أمر تكوين كهذا، أو أمر تكليف.

وفي نسخة: لتخلق بشرًا بصورتنا على تماثلنا وأسلطهم على سمك البحار، وطائر السماء، وكل الأنعام وما شبه الأرض.

=

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى:٢٩].

قال ابن كثير في تفسير سورة لقمان (٤٥٨/٣):- أي وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢]

(١) روى أحمد في مسنده (٤٠٠/٤) بسنده عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك».

ورواه الترمذي (٢٩٥٥)، وأبو داود (٤٦٩٣) عن أبي موسى، وقال الترمذي: حسن صحيح. وذكر ابن كثير في البداية والنهاية (١٠٥/١)، وذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: فبعث الله عز وجل جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع، ولم يأخذ، وقال رب إنها عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل، فعاذت منه، فأعاذها، فرجع،فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع، ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلطه، ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به قبل التراب حتى عاد طينًا لازبًا واللازب هو الذي يلزق بعضه ببعض. البداية والنهاية لابن كثير (١٠٥/١).

وخامسها: كيف يحسن أن يقال: كصورتنا وشبهنا مع أن الله سبحانه منزه عن الصورة[١]، بل هو خالق الصور كلها، والخالق مغاير للمخلوق ومستغن عنه.

فإن قيل: المراد خلق إنسان له قدرة على الخير والشر وإرادة لهما يفعل بقدرته ما يريده كما لله قدرة وإرادة.

قلت: هذا إن سلم، فلفظ الصورة لا يدل عليه، لأن لفظ الصورة مدلولة الهيئة والشكل كما يقال: فلان صورة حسنة، والصورة في الحائط مليحة، واللفظ الدال على هذا أن يقال صفاته كصفاتنا[٢].

فلم عدل عن اللفظ الحسن الدال على المعنى المراد من غير إيهام للباطل إلى ما

---

(١) روى مسلم في صحيحه [٢٨-٢٨٤١)] كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ١١-باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:« خلق الله عز وجل آدم على صورته .... الحديث ». قال النووي: هذه الرواية ظاهرة في أن الضمير في صورته عائد إلى آدم وأن المراد أنه خلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض. وتوفي عليها وهو طوله ستون ذراعًا، ولم ينتقل أطوارًا كذريته وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير النووي في شرح مسلم (١٤٧/١٤).

(٢) قال في البداية والنهاية (١٠٥/١):- استكمالاً لما سبق فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه،وكان أشدهم منه فزعًا إبليس، فكان يمر به، فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول:﴿ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ ويقول: لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره، وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس، فقال الملائكة قل الحمد لله، فقال: الحمد لله، فقال له الله: رحمك ربك، فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة. وذلك حين يقول الله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء:٣٧].

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١].

ولهذا السياق شاهد من الأحاديث وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات فقال الإمام أحمد بسنده عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه فجعل إبليس يطوف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك» [انظر أحمد (١٥٢/٣)، ومسلم (٢٦١١)].

(يدهمه)[١].

ولئن قيل: المراد صورته سبحانه التي يظهر فيها عندما يحل في بدن عيسى – عليه السلام– كما يزعمونه، أي كصورة عيسى.

قلت: هذا ممنوع وإن سلم على معتقدهم لكن حاصله قدرته سبحانه على حلوله في زمن مستقبل في صورة من الصور، وقدرته سبحانه على هذا التقدير ليست مخصوصة بحلوله في بدن عيسى عليه السلام وحده[٢]، بل هو سبحانه قادر على حلوله في كل صورة وظهوره في كل مظهر وإن كنا ننزهه عن ذلك، فإن كانت قدرته على حلوله في صورة عيسى عليه السلام[٣] موجبة لجعل صورة عيسى صورة له سبحانه لزم

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١٧].
يقول تعالى حاكمًا بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية من قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوًا كبيرًا، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال إني عبد الله ولم يقل إني أنا الله ولا ابن الله، بل قال:﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٣٠]، إلى أن قال ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم:٣٦]. تفسير ابن كثير (٢/٨٢).

(٣) اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف، قال ابن عباس، وغيره: قال قائلون منهم: كان فينا عبد الله ورسوله فرفع على السماء، وقال آخرون: هو الله، وقال آخرون: هو ابن الله، فالأول هو الحق، والقولان الآخران: كفر عظيم كما قال: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم:٣٧]. وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى، اختلف البطاركة الأربعة وجميع الأساقفة، والقساوسة، والشمامسة والرهابين في المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم: المجمع الأول فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات، فسموا الملكية ودحض من علاهم وأبعدهم، وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أديوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله فسكنوا البداري والبوادي وبنوا الصوامع والديارات والقلايات وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل وبنت الملكية الكنائس الهائلة عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان، فحولوا محاريبها إلى =

جعل جميع الصور صورة له سبحانه لعموم القدرة كما بينا فيفوتهم المعنى الذي قصدوه.

وأيضًا: فإن على معنى مقتضى معتقدهم لا يمكن أن يقال: إن صورة عيسى صورة متأصلة لله سبحانه حتى يتفرع على ذلك أن يخلق آدم على صورتها بل الأمر بالعكس؛ فإنهم يمكنهم أن يقولوا ظهر الله سبحانه على صورة آدم في بدن عيسى ليكون أقرب إلى هداية عباده الذين هم أولاد آدم ليمكنهم بمشابهة صورته لصورهم من مخاطبته وفهم مقاصده واتباعه وامتثال أمره ونهيه والسؤال بعينه وارد على قوله: وأبدع الله الإنسان على صورة الله، صنفه ذكرًا وأنثى صنعهما وباركهما الله.

وفي نسخة: فخلق الله آدم بصورته بصورة الله خلقه ذكرًا وأنثى.

وسادسها: كيف يحسن أن يقال: واملآ الأرض واستوليا عليها مع أنهما لم يخلقا إلا للجنة؛ ولهذا قال: وباركها أي حال الرضا، ولم يخرجا إلى الأرض إلا بعد ذلك على خلاف الأصل لما عرض لهما إن عصيا فاستحقا العقوبة(١).

وأيضا فإنه لا يحسن أن يقال: باركهما بل يقال بارك فيهما لأنه فعل لازم لأنه لا يتعدى إلا بحرف الجر.

=

الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدي، وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح، وبنت أمه هيلانة القيامة يعني على قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح، وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء وضعوا القوانين والأحكام ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة ومن ذلك الخنزير، وصلوا إلى الشرق، ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا ثم حول إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل .

البداية والنهاية لابن كثير(١/٤٨٠، ٤٨١).

(١) قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٨].

وسابعها: كيف يحسن أن يقال: وقال الله ها أنا ذا قد أعطيتكما كل عشب مزروع، ثم قال بعده: وكان كذلك فإن قولك: وكان كذلك، إنما يحسن عقيب الأمر ليتبين به ظهور الامتثال أو عقيب الخبر الذي يمكن صدقه وكذبه ليبين به صدقه، وهذا ليس أمرًا ولا خبرًا يمكن كذبه .

وثامنها: كيف يحسن أن يقال: وكمل الله في اليوم السادس جميع أعماله واستراح(١) في اليوم السابع.

فإن الاستراحة إنما تطلق على من يناله التعب فأما من أفعاله بالأمر التكويني يقول للشيء كن فيكون، فذلك في حقه ممتنع.

والسؤال بعينه وارد على قوله بعده: وقدسه من أجل أنه فيه استراح.

السؤال على القراءة الخامسة من السفر الأول

من ثمانية عشر وجهًا:

أحدها: كيف يحسن أن يقال: هذا كتاب خلقه السموات والأرض إذا خلقتا يوم خلق الله السماء والأرض(٢)؟

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨]. فيه تقرير للمعاد لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى و الأحرى، وقال قتادة قالت اليهود – عليهم لعائن الله – خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب. تفسير ابن كثير (٤/٢٢٩)

(٢) في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ٩-١١]. فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء.

وتمسك بعض الناس بقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا =

فإن معنى قوله: يوم خلق الله السموات والأرض هو معنى قوله: إذا خلقتا بعينه. كيف كرره من غير فائدة زائدة، وكيف جعل أحد الظرفين ظرفا للآخر؟

وفي نسخة: هذا شأن السماء والأرض إذا خلقتا يوم خلق الله السماء والأرض.

وفي نسخة: وكل عشب الحرث لم يكن على وجه الأرض، ولم يكن يومئذ (أربع)(١).

وثانيها: كيف يحسن أن يقال: يوم خلق الله السماء والأرض؟

فإن ظاهره أنهما خلقتا في يوم واحد، وهو خلاف ما تقدم من التصريح بأن السماء خلقت في اليوم الثاني، والأرض في اليوم الثالث.

وثالثها: كيف يحسن أن يقال: وكل خضر الحقل لم يكن أولاً على وجه الأرض(٢)؟ ثم يعلل ذلك بقوله بعده: لأن الله لم يكن أنزل مطرًا على وجه الأرض، مع أنه قد صرح بعد ذلك بقوله: وكانت عين تصعد من الأرض وتسقي كل وجه الأرض، فإنه متى سقت العين، لم يحتج في إنبات الخضر والعشب إلى ماء المطر، فلم يحسن أن يعلل عدم الإنبات بعدم المطر للاستغناء عنه بماء العين .

ورابعها: كيف يحسن أن يقال: ويسقي كل وجه الأرض؟

فإنه يمتنع في العادة أن يسقي الأرض كلها بماء عين واحدة، لإخلاف وجه

= وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات:٢٧-٣٣]. بأن خلق السماء تقدم على خلق الأرض ولم يفهموا هذه الآية الكريمة فإن مقتضى هذه الآية أن دحا الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء، وقد كان ذلك مقدرًا فيها بالقوة كما قال تعالى: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] أي هيأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار، ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحا الأرض فأخرج منها ما كان مودعًا فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار ونبت الزرع والثمار، ولهذا فسر الدحا بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠-٣٢]. مختصرًا من البداية والنهاية (١/٢٨، ٢٩)

(١) كذا بالأصل.

(٢) قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

الأرض بالجبال والأودية المختلفة، وجزائر البحار، وتباعد أراضي بعض الأقاليم من بعض، ولو تصور الإنسان في نفسه سقي الأرض كلها بأكبر نهر في الأرض كالنيل[١] مثلا لوجده متعددًا في العادة، مع أن هذا الكلام سبق لبيان كيفية الخلق الأول على سنة الله في خلقه.

ولم يسق لبيان خلق السوائد بإظهار القدرة الإلهية الخارجة عن العادة كما يفعل في معجزات الأنبياء لغرض تصديقهم في دعوى الرسالة إلى البشر.

وفي نسخة: وكانت المياه تصعد من الأرض بدل عين[٢].

وخامسها: كيف يحسن أن يقال: ونصب الله الفردوس في عدن مقابل الشرق مع أن الفردوس جنة أيضًا فيها أرض وأشجار مثل عدن؟

كما صرح عقيبه بأن شجرة الحياة في وسطها، وأن نهرًا يخرج من عدن ليسقيها.

وظاهر قوله: نصب يفهم منه أنه شيء كالخيمة التي تنصب أو الميزان الذي ينصب أو العمود الذي ينصب أو نحوها، فكان اللفظ الدال عليها.

وخلق الله تعالى الفردوس، فلم عدل عن اللفظ الصريح على الموهم.

وسادسها: كيف يحسن أن يقال مقابل الشرق وكل شيء في الجنة أو في الأرض فهو مقابل الشرق والغرب، والجهات كلها وليس للشرق مزية في المقابلة على الغرب ونحوه.

وسابعها: كيف يحسن أن يقال بأن النهر الخارج[٣] من عدن ينقسم أربعة أنهار:

---

(١) قال في البداية والنهاية (١/٣٩، ٤٠): أما النيل وهو النهر الذي ليس في أنهار الدنيا له نظير في خفته ولطافته وبعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه . وقال ابن سينا: له خصوصيات دون مياه سائر الأرض فمنها أنه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه ومنها أنه يجري على صخور ورمال ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال، ومنها: أن زيادته في أيام نقصان سائر الأنهار ونقصانه في أيام زيادتها وكثرتها.

(٢) امتن الله تعالى على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبت منه في جوانبها الجميع مالح الطعم مر. وأما الأنهار فماؤها حلو عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد ذلك، وجعلها جارية سارحة ينبعها الله تعالى في أرض ويسوقها إلى أخرى رزقا للعباد ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة المرجع السابق (١/٣٥).

(٣) روى مسلم في صحيحه [٢٦/(٢٨٣٩)]كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ١٠-باب ما في =

أحدها: قيسون يحيط بأرض الهند، وثانيها: جيحان يحيط بأرض الحبشة – وفي نسخة: بأرض كوش–، وثالثها: الدجلة الذاهبة نحو الموصل، ورابعها: الفرات[(١)]؟

فإن ظاهره أن الأرض التي نحن عليها متصلة بأرض الحبشة ليمكن أن تجري الأنهار من الجنة إلى أرضنا، ولو كان كذلك لاتصل بالجنة بعض الناس السالكين في الأرض مع تطاول السنين وأيضًا: فإن ظاهر حال جريان هذه الأنهار وهيئتها أن الجنة محيطة بالأرض، فتكون أرضنا التي نحن فيها في وسط الجنة .

فنكون نحن في وسط الجنة، وهو ظاهر الفساد.

وثامنها: كيف يحسن أن يقال: ومن شجرة[(٢)]علم الخير والشر لا تأكل إنك يوم تأكل منها مرة تموت مع أنه أكل منها هو وحواء كما يأتي، ولم يموتا[(٣)].

=

الدنيا من أنهار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «سيحان وجيحان، والفرات والنيل، كل من أنهار الجنة». قال النووي: أما كون هذه الأنهار من ماء الجنة ففيه تأويلان ذكرهما القاضي عياض:– أحدهما: أن الإيمان عم بلادها أو الأجسام المتغذية بمائها صائرة إلى الجنة. والثاني: وهو الأصح أنها على ظاهرها وأن لها مادة من الجنة والجنة مخلوقة موجودة اليوم عند أهل السنة شرح مسلم للنووي (١٧/١٤٦) طبعة دار الكتب العلمية.

(١) قال في البداية والنهاية (١/٤٠): أما الفرات فأصلها من شمالي الروم فتمر إلى قرب ملطية ثم تمر على شيشاط على البيرة قبليها، ثم تشرق على بالس وقلعة بعبر ثم الرقة ثم إلى الرحبة شماليها، ثم إلى عانة ثم إلى هيت، ثم إلى الكوفة ثم تخرج إلى فضاء العراق ويصب في بطائح كبار أي بحيرات وترد إليها ويخرج منها أنهار كبار معروفة.

(٢) قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة:٣٥].

قال ابن كثير الصواب أن يقال إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعبادة دليلاً على ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل كانت شجرة العنب، وقيل كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها،وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم. تفسير ابن كثير (١/٧٩)

(٣) قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]. يعني: التي من أكل منها خلد ودام مكثه. كذا في تفسير ابن كثير (٣/١٧٢).

وقال في البداية والنهاية (١/٩٥، ٩٦) أي هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل

=

وتاسعها: كيف يحسن أن يقال في القراءة الخامسة، فقال الرب الإله: لا يحسن الإنسان أن يكون وحده نصنع له معينًا مثله بعد قوله قبل ذلك في القراءة الرابعة صنعه ذكرًا وأنثى صنعهما وباركهما؟ والسؤال بعينه وارد على قوله بعد ذلك، ولم يجد آدم معينا له، فإنه قد صنع له معينًا[١] .

قال: قيل إن هذين الكلامين إخبارًا عن حال آدم قبل خلق حواء.

وذلك الكلام الأول الذي في القراءة الرابعة إخبارًا عن حال آدم بعد خلق حواء، ولا يمتنع أن يخبر الله عن الحالة الأولى بعد الإخبار عن الحالة الثانية.

قلت: هب أنه لا يمتنع، ولكن الترتيب الطبيعي والجريان على مقتضى الوجود الخارجي يقتضيان أن يخبر عن الحالة الأولى قبل الإخبار عن الثانية فما الحكمة في عكسهما وسلوك الترتيب الموهم[٢]؟

وعاشرها: كيف يحسن أن يقال: وقال آدم الآن، فهذه عظم من عظامي فقط، ولحم من لحمي، عقيب قوله: فأنشأ الرب الإله الضلع الذي أخذه من آدم امرأة[٣].

=

لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع.

(١) حكى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وحشي ليس له فيها زوج يسكن إليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها من أنت ؟ قالت: امرأة، قال: ولما خلقت ؟ قالت: لتسكن إليَّ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم كانت حواء ؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي. البداية والنهاية لابن كثير(٩٢/١).

(٢) قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

يقول تعالى آمرًا خلقه بتقواه وهي عبادته وحده لا شريك له ومنبها لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة وهي آدم عليه السلام، ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه . تفسير ابن كثير (٤٤٨/١).

(٣) قال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال:خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل

=

فإن مقتضى هذا أن يقول آدم: هذه عظم من عظامي فقط، أما اللحم من لحمي فلا، لأنها إنما خلقت من الضلع على ما ذكره على أن آدم لما خلقت حواء من ضلعه، كان الله قد ألقى عليه السبات، فكيف يحسن منه أن يخبر بما لا يتحققه(١).

فإن قيل: لعله أعلمه الله بذلك. قلت: لو أعلم به لأخبر عنه إخبارًا مطابقًا لخبر الله عنه، ولم يزد فيه الزيادة المذكورة .

وحادي عشرها: كيف يحسن أن يقال: من أجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلصق بامرأته، ويكون كلاهما جسدًا واحدًا(٢).

فإن التصاقه بهما لو كان كذلك لالتصق بكل امرأة من زوجة أو غيرها، وإنما

وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض فاحبسوا نساءكم، وروى البخاري في صحيحه (٣٣٣١) . ورواه مسلم في صحيحه [٥٩-(١٤٦٨)]. كتاب الرضاع، ١٨-باب الوصية بالنساء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها». قال النووي: وفيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلغ آدم، قال الله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء:١]. وبين النبي ﷺ أنها خلقت من ضلع انظر شرح مسلم للنووي (٤٩/١٠) طبعة دار الكتب العلمية.

(١) قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّنهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ [الأعراف:١٨٩]. وقال ابن كثير ذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحمًا. وفي قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]. أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة البداية والنهاية لابن كثير(٩٢/١).

(٢) قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١].

أي: خلق لكم من جنسكم إناثًا تكون لكم أزواجًا ﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩]. يعني بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورًا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. تفسير ابن كثير (٤٤٤/٣).

التصق بها؛ لأنها محل شهوته فقط، ولم يلتصق بغيرها؛ لأنها ليست محل شهوته[١].

وثاني عشرها: كيف يحسن أن يقال: فقالت الحية للمرأة ليس موتا تموتان، لكن الله يعلم أنكما يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما، وتكونان كالآلهة تعلمان الخير والشر؟

أفكانت الحية[٢] التي هي من وحوش الأرض أعقل من آدم وحواء، وأفهم منهما، وأعلم بحقائق الأمور وبمراد الله تعالى منهما مع تمام علم آدم كما تقدم قبل هذا في قوله: وخلق الله كل وحش الحقل، وكل طير السماء، وأتى بهم على آدم لينظر ما يسميهم، وكل اسم أسماهم به آدم، ولقب به نفسًا حية[٣]، فهو اسمها، فأين هذا من ذلك؟

فإن قيل: لعل الحية تكلمت بهذا عن جهل وادعاء للمعرفة .

قلنا: تمام الكلام يؤكد أن هذا عن علم منها وجهل من آدم وحواء، وهو قوله: وأعطت لبعلها أيضًا معها فأكل[٤]، فانفتحت أعينهما الاثنان، وعلما بأنهما عريانان.

---

(١) من تمام رحمة الله ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم وجعل بينهم وبينهن مودة وهي المحبة ورحمة وهي الرأفة فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولدًا ومحتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك. المرجع السابق (٤٤٤/٣).

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٩٦/١):- وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب: أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام وليس فيها ذكر لإبليس فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فوصلا من ورق التين وعملا مآزر وفيها أنهما كانا عريانين، وكذا قال وهب بن منبه كان لباسهما نورًا على فرجه وفرجها. هذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم وتحريف وخطأ في التعريب، فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيدًا، ولا يحيط بفهم كتابه أيضًا، فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظًا ومعنى .

(٣) في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٨]. قال ابن كثير: (وهذا خطاب لآدم وحواء ،وإبليس قيل: والحية معهم، أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين. وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات وقال: «ما سالمناهن منذ حاربناهن».

(٤) اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: ٣٥] فقيل: هي الكرم. وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبي وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس والسدي في رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال: وتزعم يهود أنها الحنطة، وهذا =

وأيضًا فكيف يحسن أن يقال: كالآلهة، ولم يعرف يومئذ إلا إله واحد، ولم يوجد إلى الآن كفر ولا شرك، ولا تكثر في المعبود؟

وأيضا فكيف يحسن أن يقال: ويكونان كالآلهة يعلمان الخير والشر؟

أفكان آدم وحواء[1] جاهلين لا يعلمان الخير والشر مع تمام علم آدم كما تقدم، كأن قيل لعلها تكلمت بهذا لتعليم إبليس إياها، أو لأن إبليس من بين أنيابها تكلم به؟

قلنا: هذان كلاهما خلاف ظاهر لفظ التوراة على أنا نقول كيف يصح تكلم الحية، وليست ناطقة؟

وثالث عشرها: كيف يحسن أن يقال: ورأت المرأة أن الشجرة طيبة المأكل، مع أنها لم تأكل منها إلى الآن، ولم نعرف طعمها ولا أنها طيبة أم لا؟

ورابع عشرها: كيف يحسن أن يقال:فأكلا فانفتحت أعينهما وعلما بأنهما عريانان؟ أفكانا أعميين قبل الأكل، أو منطبقي الأعين مع قوله: قبل هذا ورأت المرأة

=

مروي عن ابن عباس والحسن البصري ووهب بن منبه وعطية العوفي وأبي مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبي ليلى وقال وهب: والحية منه ألين من الزبد وأحلى من العسل، وعن أبي مالك: هي النخلة، وعن مجاهد هي التينة. قصص الأنبياء لابن كثير ص٢١.

(١) في الجنة التي أسكنها الله آدم قال ابن كثير: الخلاف في أن هذه الجنة التي دخلها آدم هل هي في السماء أو في الأرض؟ هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه، والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي وإنما تعود على معهود ذهني وهو المستقر شرعًا من جنة المأوى . وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة؟» وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد؛ لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ولأنه نام فيها، وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى وقال القاضي الماوردي في تفسيره: اختلف في الجنة التي أسكناها يعني آدم وحواء على قولين أحدهما: أنها جنة الخلد، والثاني: جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء، ومن قال بهذا اختلفوا على قولين:- أحدهما: أنها في السماء لأنه أهبطهما منها. وهذا قول الحسن، والثاني أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار وهكذا قول ابن يحيى، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم والله أعلم بالصواب. البداية والنهاية لابن كثير (١/٩٣).

أن الشجرة طيّبة المأكل شهية لنظر العين وحسنة المنظر، فأين هذا من ذاك أم كانا جاهلين بأنهما عريانان مع تمام علم آدم كما تقدم، فأين هذا الجهل التام من ذلك العلم التام؟

فإن قيل: لعل المراد انفتاح أعين البصيرة، لا عين البصر.

قلت: هذا تأويل مخالف للظاهر، مع أنه لا يصح، لأن العاصي لا يناسبه أن يترتب على معصيته انفتاح بصيرته، بل المناسب أن تعمى بصيرته.

وخامس عشرها:كيف يحسن أن يقال: وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الفردوس عند المساء، فاختفى آدم وزوجته[١] من وجه الرب الإله في وسط شجر الفردوس مع أن الرب سبحانه وتعالى منزه عن الصوت ماشيًا؟

وهم وإن جوزوا تجسده في عيسى عليه السلام[٢]، عند ظهوره على معتقدهم، إلا أنهم ليسلمون أنه في الجنة، لم يتجسد. وأيضا فإن آدم أتم علمًا من أن يتوهم أنه يمكنه أن يختفي من الرب سبحانه في شجر الفردوس وهذان السؤالان واردان بعينهما على قوله بعد هذا: فقال: سمعت صوتك ماشيًا في الفردوس؟ فخفت لأني عريان، فاختفيت[٣].

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/٢١٠). قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب ﷺ قال: كان آدم رجلا طويلا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس، فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته عن ذلك وكان لا يراها فانطلق هاربًا في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة فقال لها: أرسليني، فقالت إني غير مرسلتك، فناداه ربه عز وجل يا آدم أمني تفر؟ قال: يا رب إني استحيتك.

(٢) قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٣٠].. الآيات. قال في البداية والنهاية «هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم فكان أول ما تكلم به أن قال إني عبد الله» اعترف لربه تعالى بالعبودية، وأن الله ربه فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم. البداية والنهاية (١/٤٤٤).

(٣) قال عبد الرزاق بسنده عن ابن عباس قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما، وكان الذي وارى عنهما من سوآتها أظفارهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة –ورق التين- يلزقان بعضه إلى بعض فانطلق آدم عليه السلام موليا في الجنة فعلقت برأسه شجرة من الجنة فناداه الله يا آدم أمني تفر ؟ قال: لا =

وسادس عشرها: كيف يحسن أن يقال ودعا الرب الإله آدم، وقال له: آدم أين أنت ؟.

مع أن الله تعالى لا يخفى عليه آدم ولا مكانه بل ولا يخطر بسر آدم؟

وسابع عشرها: كيف يحسن أن يقال: فقال له: من عرفك أني عريان؟ أكان آدم يحتاج في معرفة نفسه أنه عريان إلى من يعرفه بذلك؟ ما على هذا في الجهالة مزيد، ولا يتوهم في حق آدم مثل هذا، بل ولا في حق أجهل أحدنا نحن.

وثامن عشرها: كيف يحسن أن يقال: إن آدم اعتذر عن معاتبة الله إياه في أكل الشجرة المنهي عن أكلها في قوله: لولا أنك أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها بقوله: إن المرأة التي جعلت معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت؟[1]. وكيف يليق بآدم أن يعتذر عن معصية الله بأن المرأة أعطته فأكل؟[2].

=

ولكني استحيتك يا رب. قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك؟ قال: بلى يارب ولكن وعزتك ما حسبت أن احدًا يحلف بك كاذبًا قال: وهو قول الله عز وجل ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١] تفسير ابن كثير (٢/٢١١).

(١) أباح الله لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن «وقال» كذبًا وافتراءً ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ [الأعراف: ٢٠]. أي لئلا تكونا ملكين أو خالدين ههنا ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما لقوله ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]. ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، وقال قتادة في الآية حلف بالله إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعان أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول من خدعنا بالله انخدعنا له. تفسير ابن كثير (٢/٢١٠)

(٢) روى البخاري في صحيحه (٣٣٣٠) كتاب أحاديث الأنبياء، ١-باب خلق آدم وذريته. ومسلم في صحيحه (٦٣-(١٤٧٠)] كتاب الرضاع ١٩- باب لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر.

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ عليه وسلم قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يختز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر». قال النووي: وحواء بالمد روينا عن ابن عباس قال: سميت حواء لأنها أم كل حي، قيل: إنها ولدت لآدم أربعين ولدًا في عشرين بطنا

=

السؤال على القراءة السابعة

من ثلاثة أوجه– ولم أجد القراءة السادسة في التوراة –:

أحدها:كيف يحسن أن يقال: وقال الرب الإله: إن آدم قد صار كواحد منا يعلم الخير والشر[١]. أيتوهم عاقل أن الأُلهية تكتسب فضلا عن أنها تكتسب بالأكل أيضًا.

فإن قوله: كواحد منا، يدل على تكثر الرب سبحانه، واليهود لا تقول به بل يعتقدون التوحيد .

وثانيها:كيف يحسن أن يقال عقيب هذا عساه الآن يقدم يده، فيأخذ من شجرة الحياة فيأكل[٢]. منها فيحيا إلى الدهر، فإن ظاهره أن الحياة والموت ليس بيد الله وقدرته، بل بسبب بعض المأكولات وأن الله خشي من حياته الأبدية بسبب أكل الشجرة، فأخرجه[٣] من الفردوس، ولو كان أكل الشجرة الأولى موجبًا لعلم الخير

=

في كل بطن ذكر وأنثى، واختلفوا متى خلقت من ضلع آدم، فقيل قبل دخوله الجنة فدخلاها، وقيل: في الجنة، قال القاضي: ومعنى هذا الحديث أنها أم بنات آدم فأشبهنها، ونزع العرق لما جرى لها في قصة الشجرة مع إبليس فزين لها أكل الشجرة فأغواها فأخبرت آدم بالشجرة فأكلا منها النووي في شرح مسلم (١٠/٥٠) طبعة دار الكتب العلمية.

(١) قال تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

يدل هذا على أن السبب في إخراج آدم من الجنة إنما هو إبليس لعنه الله بإغوائه له.

(٢) قال في البداية والنهاية (١/٩٨): روى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال: أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره فنزع جبريل التاج عن رأسه وحلَّ ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول: العفو العفو .

فقال الله: فرارًا مني؟ قال: بل حياء منك يا سيدي .

قال الأوزاعي، عن حسان هو ابن عطية:مكث آدم في الجنة مائة عام، وفي رواية ستين عامًا، وبكى على الجنة سبعين عامًا، وعلى خطيئته سبعين عامًا، وعلى ولده حين قتل أربعين عامًا.

(٣) عن الحسن قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة وإبليس بدستمتسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان، رواه ابن أبي حاتم .

وقال السدي: نزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وبقبضة من ورق الجنة، فبثه في الهند وعن ابن عمر قال: أهبط آدم بالصفا، وحواء بالمروة رواه ابن أبي حاتم أيضًا.

وقال عبد الرزاق بسنده عن أبي موسى الأشعري قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه

=

والشر. وأكل الثانية موجبًا للحياة الأبدية كما هو ظاهر اللفظ لكان آدم عقيب أكل الشجرة الأولى أكل من الثانية ضرورة من غير تأخير إذ قد علم الخير والشر فيعلم أن هذا خير فلا يمكنه الصبر عنه أصلاً.

وأيضا فإن لفظ عسى لتوقع ما يشتهيه المتكلم فلا يناسب هذا المحل بل المناسب لفظ: أخشى. وفي نسخة: لعل الأب يقدم يده.

وثالثها: كيف يحسن أن يقال: وأمر الكروبيم وخزنة طيب النار (المتعلية)[١]، ليحفظ طريق شجرة الحياة عقيب قوله: فأخرجه الرب الإله من فردوس النعيم ليعمل في الأرض، فإن آدم في الأرض خارج الفردوس .

فكيف يمكنه الدخول إلى الفردوس بغير إذن الله حتى يحتاج إلى حفظ طريق الشجرة وهي داخل الفردوس.

وأيضا فلو كان دخول الفردوس[٢] بغير إذن الله ممكنا لدخلها الآن كل أحد منا أو بعضنا ولكان المناسب له أن يقال: ليحفظ دار الفردوس التي هي دار النعيم، لئلا يدخلها آدم العاصي بعد إخراجه منها، سواء أكل من الشجرة أم لا[٣].

=

تتغير وتلك لا تتغير. البداية والنهاية (١/٩٨)

(١) كذا بالأصل.

(٢) في الجنة التي سكنها آدم اختلف فيها كما تقدم في التخريجات السابقة.
قال في البداية والنهاية (١/٩٣، ٩٤): ولقد حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال: هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي (وقد تقدمت) ورابعها الوقف، وحكى القول بأنها في السماء وليست جنة المأوى عن أبي علي الجبائي.

(٣) أورد أصحاب القول بأن الجنة التي أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء فقالوا: إن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية وأمره بالخروج عنها والهبوط منها وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع ولهذا قال: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف:١٨]. والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة وأياما كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدرًا في المكان الذي طرد منه وأبعد عنه لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز، قالوا: ومعلوم من سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما بقوله: ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

=

(في فرجة بخط المصنف: وأخرجه الله ربنا وأحاط من شرق جنة عدن (لا حالتين)[١] الكروبيم بيده حربة يطوف بها ليحرس طريق شجر الحياة فجامع آدم امرأته فولدت له قايين[٢] وأيضًا فتخصيص لفظ الإخراج بإخراجه من الفردوس التي هي في وسط عدن كما تقدم. ما وجهه مع أنه أخرج من الجنة مطلقاً إلى الأرض ولم لم يقل فأخرجه من الجنة؟.

وفي نسخة: فأخرجه الله الرب من جنة عدن ليحرث في الأرض[٣]، وهو أجود.

السؤال على القراءة الثامنة

من أربعة وجوه:

أحدها: كيف يحسن أن يقال فقال الله لقايين: أين هابيل أخوك ؟ .

فقال: لا أدري، أرقيب أنا على أخي؟.

فإن من يعرف الله مثل هذه المعرفة، وله رتبة. مخاطبة الله لا يمكنه أن يشافهه بإنكار ما فعله، لا سيما وقد أردفه زيادة في المواقحة بقوله: أرقيب أنا على أخي.

وأيضًا فمن تصدر منه هذه المعصية وهي قتل النفس[٤]، بغير حقٍّ، لا سيما

=

وبقوله: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وقد أجيبوا عن هذا: بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها، أو أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء. البداية والنهاية (١/٩٤).

(١) كذا بالأصل

(٢) هذا الكلام وجدناه بالهامش.

(٣) في هبوط آدم عليه السلام وحواء إلى الأرض، أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ [طه: ١١٨]. أي لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعري ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٩]. أي لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس .

فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهي عنها أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعي والنكد والابتلاء والاختبار والامتحان واختلاف السكان دينًا وأخلاقًا . البداية والنهاية (١/٩٥).

(٤) قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ

=

وهو أخ صالح متقبل العمل. كيف يحصل له بعدها رتبة مخاطبة الله تعالى.

وأيضًا فمن يكون له رتبة مخاطبة الله تعالى. كيف تأتى أن يصدر منه هذه المعصية.

وثانيها: كيف يحسن أن يقال: ومن الآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها وقبلت دم أخيك من يدك[1]، مع أن اللعنة هي البعد من الله لا من الأرض.

وثالثها: كيف يحسن أن يقال: إن قايين قال: ويكون كل من وجدني يقتلني مع أن القتل لا يتكرر كتكرر الضرب أو الشتم ونحوه[2]. بل أو شخص يجده إذا قتله لم

=

ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

(١) ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل، وأخت قابيل أحسن فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى فأمرهما أن يقربا قربانًا، وذهب آدم ليحج إلى مكة.

فلما ذهب قربا قربانهما فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع رديء زرعه فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧]. البداية والنهاية (١/ ١١٣).

(٢) قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١].

ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة وقال آخرون: حمله مائة سنة، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين، قال السدي بإسناده عن الصحابة: أخوين فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه ورواه فلما رآه يصنع ذلك ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ [المائدة:٣١]. ففعل مثل ما

=

يمكن أحد آخر بعده أن يقتله.

ورابعها: كيف يحسن أن يقال: وجعل الرب الإله آية في قايين ألا يقتله كل من يجده مع أن هذا الأمر ليس آية، ولا علامة فيه بل غيره كذلك لا يقتله كل من يجده، فاستوى هو وغيره[(١)]. وفي نسخة: علامة بدل آية.

ثم السؤال على القراءة التاسعة

من ستة أوجه:

أحدها: كيف يحسن أن يقال وخرج قايين[(٢)] من وجه الرب وسكن في أرض نود من شرقي عدن.

فإن هذا لما تقدر أن يراد به أنه خرج من حقيقة الوجه تبين أن يفهم منه أنه

=

فعل الغراب فواراه ودفنه.

(١) روى البخاري في صحيحه (٣٣٣٥)، كتاب أحاديث الأنبياء، ١- باب خلق آدم وذريته ومسلم في صحيحه [٢٧-(١٦٧٧)] كتاب القسامة والمحاربين والقصاص الديات، ٧- باب بيان إثم من سن القتل، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل».

(٢) قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١].

قال السدي بإسناده إلى الصحابة رضي الله عنهم: لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثى عليه، فلما رآه قال: ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١] وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء غراب إلى غراب ميت فبحث عليه من التراب حتى واراه فقال الذي قتل أخاه: ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ وقال الضحاك عن ابن عباس مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين فرآهما يبحثان فقال: ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ فدفن أخاه، وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد كان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتًا لا يدري ما يصنع به يحمله ويصنعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب فقال: ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١]. البداية والنهاية (٢/٤٧).

خرج من المكان الذي من يكون فيه يكون في وجه الرب لقربه من وجهه، وسكن في أرض نود البعيدة عن وجهه. والرب سبحانه متنزه عن المكان والحيز. وفي نسخة: فخرج قايين من قدامه.

والسؤال عليها أن الأماكن كلها قدامه سبحانه لا يمكن الخروج عنها إلى ما ليس هو قدامه.

وثانيها:كيف يحسن أن يقال هنا: أن أخنوخ بن قايين،ولدته امرأته الذي هو ابن آدم مع أنه ذكر في القراءة العاشرة التي هي سفر كينونة البشر أن أخنوخ بن يرد بن مهلالايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم.

فإن هذا تناقض في الأنساب ظاهر جدًّا.

(وفي فرجة بخط المصنف: وفي نسخة: لامك بن متوشيل بن محوايل بن عيراد بن أخنوخ بن قايين بن آدم)[1].

وثالثها: كيف يحسن أن يقال هنا أن مهلالايل بن عيراد بن أخنوخ بن قايين، الذي هو ابن آدم مع أنه ذكر في القراءة العاشرة أن مهلالايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، فقد تناقض النسبان أيضًا[2].

---

(١) وجدناه بالهامش.

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/١١٥):-

والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذي يزعمون أنه التوراة: أن الله عز وجل أجله وأنظره وأنه سكن في أرض نود في شرقي عدن، وهم يسمونه قنين، وأنه ولد له خنوخ، ولخنوخ عندر، ولعندر محوايل، ولمحوايل متوشيل ولمتوشيل لامك وتزوج هذا امرأتين عدا وصلا، فولدت عدا ولدًا اسمه إبل، وهو أول من سكن القباب، واقتنى المال وولدت أيضا نوبل... إلى آخر كلامهم» .

ثم قال ابن كثير: هذا مضمون ما في كتابهم صريحًا وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم في ذلك والظاهر أنها مقحمة فيها، ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير، وفيها غلط كثير،وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه عن بعضهم أن حواء ولدت لآدم أربعون ولدًا في عشرين بطنا قاله ابن إسحاق وساهم والله تعالى أعلم، وقيل:مائة وعشرون بطنا في كل واحد ذكر وأنثى أولهم قابيل وأخته قليما وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث.

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وامتدوا في الأرض ونموا كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ

=

ورابعها: كيف يحسن أن يقال هنا أن متوشلح بن مهلالايل مع أنه ذكر في العاشرة أن متوشلح بن أخنوخ بن يرد بن مهلالايل، فهذا أيضًا من تناقض الأنساب.

ولا يمكن أن يقال لعلَّ هذا من باب اختلاف اسمي الشخص الواحد، لأن اختلاف عدد الآباء إلى آدم يبطله.

وخامسها:كيف يحسن أن يقال: فإن يكن سبعة أضعاف ينتقم من قايين، فإنه من لامك سبعين مرة وسبعة. فإنه إذا ضعف، بقتل جدِّه قايين لأخيه الصالح المتقبل[1] العمل سبعة.

فما وجه التضعيف بقتل غيره إلى سبعين مرة وسبعة وأيضا في (للمعصية)[2]، في نفسه مثل هذه الحرمة من التضعيف، لا يليق بحاله أن يفعلها، فإنه لا يكاد يوضع الإنسان في معصية الله إلا تساهله فيها.واستهتاره بها واستضعافها في جنب عفو الله سبحانه. وفي نسخة: كذلك قايين[3] بجزاء واحد سبعة، ولامك إلى سبعة وسبعين.

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١]. البداية والنهاية (١/١١٥، ١١٦).

(١) قال عبد الله بن عمرو: وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده. وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشرًا لتقربهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي وتوعد أخاه فيما بينه وبينه فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به فقال له تقبل منك ولم يتقبل مني، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين، فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله، وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخه، وقيل:بل خنقه خنقًا شديدًا وعضه كما تفعل السباع فمات والله أعلم المرجع السابق (١/١١٣).

(٢) كذا بالأصل.

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٦): قال عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال أخذه برأسه ليقتله فاضطجع له وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله ؟ قال:نعم، قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه، قال: فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه، ثم جاء إبليس على حواء مسرعًا فقال: يا حواء إن قابيل قتل هابيل فقالت له: ويحك وأي شيء يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك، قالت: ذلك الموت، قال: فهو الموت، فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهي تصيح فقال: ما لك فلم تكلمه، فرجع إليها مرتين فلم تكلمه فقال عليك الصيحة وعلى

وسادسها: كيف يحسن أن يقال وذلك كان يرجو أن يدعو باسم الرب الإله. فإن ظاهره أنه كان كافرًا حينئذ يرجو إيمانه مع أنه لم يكن اختلفت الأديان يومئذ، وكان يرجو أن يدعوه باسم الرب، فيكون هذا أيضًا كفرًا.

وفي نسخة: هنالك بلي وأن يدعو باسم الله ربنا يا ولد آدم مع أنهم لم (...)[1].

السؤال على القراءة العاشرة

من خمسة أوجه:

أحدها: كيف يحسن أن يقال هذا سفر كينونة البشر في يوم خلق الله آدم بصورة الله، وليس لله سبحانه وتعالى صورة[2] كما تقدم شرحه. لا سيما وقد ذكر هنا عقيبه قوله: خلقه ذكرًا وأنثى فإن ظاهره في مفهوم التخاطب العربي أنه مفسر بصورة الله تعالى التي خلق آدم عليها[3]، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وأيضًا فإنه لا يحسن أن يقال: باركهما، بل يقال: بارك فيهما، لأن بارك فعل لازم لا يتعدى إلى معموله بنفسه، وإنما يتعدى بحرف الجر وقد تقدم مثله في القراءة الرابعة.

وثانيها: كيف يحسن أن يقال هذا سفر كينونة البشر في يوم خلق الله آدم مع أن كينونة البشر المذكورين إنما في مائتين من السنين على ما ذكره .

=

بناتك وأنا وبني منها برآء. رواه ابن أبي حاتم.

(١) بياض بالأصل.

(٢) روى مسلم في صحيحه [٢٨-(٢٨٤١)] كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ١١-باب يدخل الجنة أقوام، أفئدتهم مثل أفئدة الطير، عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعًا ..» الحديث بطوله .

قال النووي: الضمير في صورته عائد إلى آدم ،أن المراد أنه خلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض وتوفي عليها وهو طوله ستون ذراعًا ولم ينتقل أطوارًا كذريته، وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير . شرح مسلم للنووي (١٤٧/١٧) طبعة دار الكتب العلمية.

(٣) روى أحمد في مسنده (٤٠٠/٤) عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك».

وكذلك رواه أبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥).

وثالثها: كيف يحسن أن يقال: ولد له ولد يشبهه على صورته[١]، فليس في هذا الكلام مزية لآدم. ولا فائدة للمستمع. لاسيما شيث[٢]، ليس أول أولاده، بل ولد بعد قايين وهابيل.

ورابعها: كيف يحسن أن يقال: فكان جميع ما عاش شيث تسعمائة واثنى عشرة سنة.

بعد قوله: وعاش شيث مائتين وخمس سنين وولد له أنوش، وعاش شيث بعدما ولد له أنوش تسعمائة وسبع سنين. بل يكون جميع ما عاش شيث على هذا الحساب ألف ومائة واثني عشرة سنة.

والنسخة مقابلة مصححة.

وفي نسخة: عاش شيث قبل أنوش مائة وخمس سنين، وبعدها ثمانمائة وسبع سنين. وأيضًا فقد ذكر في هذه القراءة تسعة نفر من نوح[٣] إلى لامك إلى آدم كل

---

(١) لما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام وكان نبيًّا بنصِّ الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعًا «أنه أنزل عليه خمسون صحيفة».
فلما حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده، ثم بعده ولده قينان، ثم من بعده ابنه مهلاييل وهو الذي يزعم الأعاجم من الفرس أنه مالك الأقاليم السبعة، وأنه أول من قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون الكبار وأنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى البداية والنهاية (١/١٢٠).

(٢) معنى شيث: هبة الله، وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك، قال: ويقال: إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا والله أعلم البداية والنهاية (١/١١٩).

(٣) هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ — وهو إدريس — بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام.
وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة، وكان بينهما عشرة قرون، كما روى ابن حبان في صحيحه بسنده إلى أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: «نعم مكلم» قال: فكم كان بينه وبين نوح؟
قال: «عشرة قرون». انظر ابن حبان (٦١٩٠– الإحسان).

منهم ابن الذي قبله وهم آدم وبنوه، وذكر جميع ما عاش كل منهم. فلم يكن فيهم من عاش مع السنين التي ذكرها لا شهورًا، ولا أيامًا.

بل عاش آدم مثلاً تسعمائة وثلاثين سنة(١) ولم يكن فيها شهر ولا يوم زائد ولا ناقص وكذلك بنوه.

وهذا في غاية (البذور)(٢)، في العادة من أعمار الناس بل لا يكاد يوجد لغير هذه التسعة. لاسيما في زماننا الذي نشاهد أعمار أهله ولا يمكن أن يقال لعله ذكر السنين وترك ذكر الشهور والأيام.

فإن لفظه يأبي ذلك لاسيما قوله: وكانت جميع أيام أخنوخ(٣) ثلاثمائة وخمس سنين بلفظ أيام.

وخامسها: كيف يحسن أن يقال هنا إن أخنوخ(٤)، ابن يرد، مع أنه ذكر في

---

(١) اختلف في مقدار عمره عليه السلام فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعًا: أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة وهذا لا يعارضه ما في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود إذا خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم.

وأيضًا فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث فإن ما في التوراة إن كان محفوظًا محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط وذلك.

تسعمائة وثلاثون شمسية وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة ويضاف على ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره فيكون الجميع ألف سنة البداية والنهاية (١/١٢٠).

(٢) كذا بالأصل.

(٣) هو إدريس عليه السلام على المشهور وقد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٦، ٥٧].

وهو في عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب، وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام .

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خطَّ بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين البداية والنهاية (١/١٢٠).

(٤) روى البخاري في صحيحه (٣٣٤٢)كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام، عن أبي ذر ﷺ من حديث الإسراء بطوله وفيه «لما مر به عليه السلام قال له: « مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح».

القراءة التاسعة أنه ابن قايين.

وكيف ذكر هنا أن مهلالائيل بن قينان مع أنه ذكر في القراءة التاسعة أنه ابن عيراد. وكيف ذكر ههنا أن متوشلخ بن أخنوخ[١]، مع أنه ذكر في القراءة التاسعة أنه ابن مهلالايل وهذا متناقض. وقد تقدمت هذه الأسئلة الثلاثة في القراءة التاسعة، مبسوطة العبارة.

وأما لامك فقد توافقت القراءتان على أنه ابن متوشلخ. وفي نسخة: في التاسعة متوشيل، وفي العاشرة ابن يارد.

السؤال على القراءة الحادية عشر

من ستة أوجه:أحدها: كيف يحسن أن يقال: فكان لما بدأ الناس يكثرون في الأرض، وولد لهم بنات.

فرأى بنو الله[٢] بنات الناس حسنات، فاتخذوا لهم نساء من كل ما اختاروا.

فإن قوله: لما بدأ الناس يكثرون يوهم أن الناس لم يكثروا بعد، مع أنهم قد كثروا كثرة عظيمة. فإن ظاهر اللفظ أن هذا بعد ولادة سام وحام ويافث[٣]، وما ولد لنوح سام وحام ويافث إلا بعد مضي ألفين ومائة سنة، وخمسين سنة من إيجاد آدم

---

(١) قال الحسن البصري: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم:٥٧]. قال: إلى الجنة، وقال قائلون: رفع في حياة أبيه يرد بن مهلاييل والله أعلم. البداية والنهاية (١/١٢١).

(٢) قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

(٣) روى الترمذي في سننه (٣٩٣١)، عن سمرة أن النبي ﷺ قال: « سام أبو العرب ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش » وقال حديث حسن، ويقال: يافث ويافت ويفت. ورواه أحمد في مسنده (١٩٩٨٢)، والحاكم في مستدركه (٢/٥٤٦).

قال في البداية والنهاية (١/١٣٨): وقد قيل إن نوحًا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان وإنما ولد له قبل السفينة كنعان الذي غرق، وعابر مات قبل الطوفان، والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نصُّ التوراة وقد ذكر أن حامًا واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان، وقيل: بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيدًا لإخوته.

على مقتضى وفيات آياته المذكورة في القراءة العاشرة من التوراة.

وفي هذه المدة تمتلئ الأرض ناسًا.

(وفي فرجة بخط المصنف: وفي نسخة (لذو))[١].

من إيجاد آدم إلى ولادة سام ألفا وستة وستين سنة، وهذا تناقض فاحش بين النسختين. يسقط ألبتة تفسيرها إلا أن يكون التناقض من نسخ التوراة العبرانية، فيكون التناقض أفحش[٢].

وثانيها: كيف يحسن أن يقال: فكان لما بدأ الناس يكثرون في الأرض، وولد لهم بنات فإن قوله: وولد لهم بنات يوهم أنه لم يولد لهم بنات إلى الآن، مع أنه ولد للناس بنات كثيرة من سنين متقدمة لأنه بعد مضي ألفي ومائة وخمسة وتسعين سنة من وجود آدم[٣]. كما تقدم. فلما كثر الناس كثرت بناتهم. بل ليس في اللفظ أن البنات كثروا. بل وولد لهم بنات، وولادة البنات مقرونة بولادة الذكور من أول الخلق. فيكون السؤال أقوى.

وثالثها:كيف يحسن أن يقال: فرأى بنو الله بنات الناس حسنات، فإن قوله: بنو الله جمع ابن، وأقل الجمع ثلاثة، فيلزم منه أن يكون لله ثلاث بنين، والله سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون له بنون باتفاق المسلمين واليهود والنصارى، فإن النصارى إنما أثبتوا له ابنا واحدًا[٤].

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) وجدناه في الهامش.

(٣) من آدم عليه السلام إلى نوح عليه السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام كما تقدم عن ابن عباس كما رواه البخاري، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٢٦/١): - ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام، وكان سبب ذلك ما رواه البخاري (٤٩٢٠)، في كتاب التفسير، باب ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].

من حديث ابن عباس قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت».

(٤) اختلف أصحاب المسيح بعد رفعه إلى السماء على أقوال كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف: قال قائلون منهم:كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء .

=

أما إثبات بنين، فلم يقل به أحد منهم. وفي بعض نسخ التوراة بدل: بنو الله بنو ألوهيم. وأيضا: فلو كان لله بنون لم يكن لتخصيص النصارى عيسى بكونه إلهاً معبودًا دون إخوته وجه.

فإن قيل: المراد بالبنوة بنوة التشريف بالقرب من الله تعالى. قلت: لو حسن ذلك لجاز إطلاق البنوة على سائر الأنبياء، وهم يوافقون على امتناعه(١).

وأيضا فلو حسن ذلك لم يبق لهم في إطلاق لفظ البنوة على عيسى(٢) ولفظ

=

وقال آخرون: هو الله، وقال آخرون: هو ابن الله فالأول هو الحق، والقولان الآخران: كفر عظيم كما قال: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

واختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ابن كثير البداية والنهاية (١/٤٨٠).

(١) بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى، اختلف البطاركة الأربعة وجميع الأساقفة، والقساوسة والشمامسة والرهابين في المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم المجمع الأول فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات، فسموا: الملكية ودحض من عداهم وأبعدهم، وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أديوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله فسكنوا البداري والبوادي وبنوا الصوامع والديارات والقلايات، وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل وبنت الملكية الكنائس الهائلة عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان، فحولوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدي.

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح وبنت أمه هيلانة القيامة يعني على قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح، وقد كفر هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة،وأحلوا أشياء هي حرام بنصِّ التوراة ومن ذلك الخنزير، وصلوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلّى إلا إلى صخرة بيت المقدس. البداية والنهاية (١/٤٨٠، ٤٨١).

(٢) ذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق أن عيسى -عليه السلام- قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذي أرسله المسيح إليهم، وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة: لوقا ومتى ومرقس ويوحنا، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة على الأخرى وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح

=

الأبوة على الله سبحانه في الإنجيل دلالة على أن عيسى ابن الله بالمعنى الذي تريده النصارى.

ولا يبقى لهم إلا صدور الخوارق للعادة على يده كسائر الأنبياء، ولا دلالة فيها إلا على الرسالة فقط ورابعها: كيف يحسن أن يقال: وقال الرب الإله لا تسكن روحي في هؤلاء الناس إلى الدهر من أجل إنهم لحم. فإن قوله في هؤلاء الناس يوهم أن روحه سبحانه تسكن من غير هؤلاء الناس، وليس كذا وأيضا: فإن قوله: من أجل أنهم لحم، تعليل لعدم سكنى روحي سبحانه في هؤلاء الناس بكونهم لحمًا مع أن غير هؤلاء الناس أيضًا من الناس لحم، فما وجه تخصيص هؤلاء.

وأيضًا فإذا صحَّ هذا التعليل كان هذا حجة على اليهود والنصارى[1]، مبطلة

=

ورآه وهما: متى ويوحنا ومنهم اثنين من أصحابه وهما: مرقس ولوقا فالله أعلم البداية والنهاية (٤٧٩/١).

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

فأما اليهود فقالوا في العزير: إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقي العزير يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه .
فبينما هو ذات يوم إذ مرَّ على جبانة وإذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول وامطعماه واكاسياه فقال لها:
ويحك من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت الله قال: فإن الله حي لا يموت، قالت: يا عزير فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل ؟ قال: الله قالت: فلم تبكي عليهم ؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به ثم قيل له اذهب على نهر كذا فاغتسل منه وصلِّ هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخًا فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئًا كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذابًا فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلمًا وكتب التوراة. بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوه بها فوجدوا ما جاء به صحيحًا فقال بعض جهلتهم إنما صنع هذا لأنه ابن الله، وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كَذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠] أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلافهم ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾ أي يشابهون ﴿قَوْلَ
=

لسكنى روحه سبحانه وتعالى في بدن عيسى عليه السلام، فإنه لحم.

فأحد الأمرين إما بطلان هذا التعليل أو بطلان اعتقادهم حلول روح الله سبحانه في بدن عيسى عليه السلام. وفي نسخة: لا تسكن روحي في البشر إلى الدهر من أجل أنهم لحم. فيكون السؤال أقوى.

وخامسها: كيف يحسن أن يقال: وكان في تلك الأيام الجبابرة على الأرض، ومن بعد ذلك من أجل بني الله دخلوا على بنات الناس، فكن يلدن لهم جبابرة الناس المنتجبين الأقوياء؛ فإن ظاهره أن الجبابرة إنما وجدوا بسبب تولدهم من ذكور هذه الطائفة، وإناث تلك الطائفة بتزاوجهما.

فإن كان هؤلاء الجبابرة أقوى وأشد جبروتًا من كل واحد من الطائفتين لزم أن يكون الفرع زائدًا على أصليه الزيادة الخارجة عن نوعهما.

وهذا باطل بالضرورة، وإن كانوا أقوى وأشد جبروتًا من أحديهما فقط. فهذا ممكن، لكن يلزم أن تكون الطائفة القوية منهما أقوى وأشد جبروتا من الجبابرة بالضرورة ولزم أن تكون هي أولى باسم الجبابرة. ولزم بطلان التعليل المذكور. فإن الجبابرة يكونون موجودين قبل تزاوج الطائفتين.

وسادسها: كيف يحسن أن يقال: وتأسف الله على آدم إذ خلقه على الأرض[1].

= ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥، ٣٥٦).

(١) قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]. يخبر الله تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرنًا بعد قرن وجيلاً بعد جيل. وفي قوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله =

فإن الله سبحانه لا يتأسف على شيء لأنه يعلم ما يكون قبل أن يكون، فلا يفعله إلا كما يريد فلا يلحقه فيه ندم، ولا تأسف سبحانه وتعالى[1] إنما ذلك في حق عاجز جاهل بعواقب الأمور. وفي نسخة: فندم الله في قلبه.

وسابعها: كيف يحسن أن يقال: وقال الرب الإله أتلف البشر الذين خلقت من وجه الأرض البشر والبهائم والدبيب، إلى طائر السماء من أجل أني قد تأسفت إذ خلقتهم.

لأن السؤال بعينه وارد على قوله من أجل أني قد تأسفت إذ خلقتهم.

وأيضًا فإن البشر كما ذكره أولاً: كثرت سيئاتهم فاستحقوا الإتلاف والإهلاك[2]، فما سبب إهلاك البهائم والدبيب وطائر السماء.

وكيف يليق بالحكم العدل سبحانه وتعالى أن يهلك ثلاث أمم لا ذنب لهم

صلوات الله وسلامه عليهم . تفسير ابن كثير (١/٦٩).

(١) في قوله الملائكة: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ قال ابن جريج: إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم فقالوا: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ .

قال ابن جرير: وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت: ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠] لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك بعدما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها وكيف يعصونك يارب وأنت خالقهم فأجابهم ربهم ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ يعني أن ذلك كائن منهم وإن لم تعلموه أنتم ومن بعض ما ترونه لي طائعًا، قال: وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عمّا لم يعلموا من ذلك فكأنهم قالوا يارب خبرنا – مسألة استخبار منهم لا على وجه الإنكار.

(٢) قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤].

فنوح عليه السلام بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة، وكان قومه يقال لهم: بنو راسب فيما ذكره ابن جبير وغيره البداية والنهاية لابن كثير(١/١٢٢).

بسبب تأسفه على خلق الأمة الرابعة المفسدة الذين هم البشر[١].

وهو قادر على إهلاك الأمة المفسدة وحدها.

فإن قيل: لله أن يهلك ما يشاء ومن يشاء.

قلنا: مسلم، ولكن الكلام على تعليل إهلاك الجميع بذنب بعضهم لا على الإهلاك المطلق.

السؤال على القراءة الثانية عشر

من ثلاثة أوجه: أحدها: كيف يحسن أن يكرر القول الدال على فساد الناس[٢] في موضع واحد خمس مرات.

أولها: قوله: وفسدت الأرض قدام الله.

وثانيها: قوله: عقيبه: وامتلأت الأرض ظلمًا.

وثالثها: قوله عقيبها: ونظر الرب الأرض قد فسدت.

ورابعها: قوله عقيبه: وإن كان جسد قد أفسد طريقه إلى الأرض.

وخامسها: قوله عقيبه: وقال الله لنوح[٣] قد حضر حيث كل الناس أمامي لأن

---

(١) أهلكهم الله بذنوبهم وفي ذلك قال في البداية والنهاية (١٣١/١): إن نوحًا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦].

وقال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

(٢) اجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لهم نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها.

وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل لهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود:٣٧]. المرجع السابق (١٣١/١).

(٣) قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل. وقال يزيد الرقاشي إنما سمي نوحًا لكثرة ما ناح على نفسه وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما =

الأرض قد امتلأت من جورهم، وها أنا ذا مفسدهم، والأرض أيضًا وهذا مما يفضي إلى ركاكة الكلام وتطويله بغير فائدة، ولا سيما وذلك بعد ذكر الإتلاف قبله في القراءة الحادية عشر، فتصير ست مرات متتابعة في مكان واحد.

وكان في المرة التي في آخر القراءة الحادية عشر كفاية.

وثانيها: كيف يحسن أن يقال: ومن كل البهائم ومن كل الوحوش، ومن كل جسد اثنين اثنين يدخل الجميع إلى التابوت[١] لتعولهم معك ذكرا وأنثى يكون من كل طير السماء لجنسه.

ومن كل البهائم لجنسهم، ومن كل دبيب يدب على الأرض اثنين اثنين يدخلون معك ليفتدوا معك، ذكرًا وأنثى، فإن ظاهره أنه يدخل معه من كل أمة اثنين اثنين، وقد ذكره هنا مرتين، وذكره في القراءة الرابعة عشر أيضًا هكذا اثنين اثنين كما سيأتي. وفي القراءة الخامسة عشر أيضًا كذلك. وفي نسخة هنا: وكل شيء من اللحم أدخل معك اثنين اثنين[٢] من اللحم الفلك ليعيشوا. ذكورًا وإناثًا يكون من الطير لجنسه اثنين اثنين،

= السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام.

وقال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قومًا صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجسادًا على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرًا. تفسير ابن كثير (٢/٢٢٨).

(١) ذكر ابن جرير بسنده عن ابن عباس في قصة نقلا عن عيسى عليه السلام أن السفينة كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث، ولما وقع الفأر يخرز السفينة بقرضه أوحى الله -عز وجل- إلى نوح عليه السلام أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر. البداية والنهاية لابن كثير (١/١٣٩).

(٢) قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود:٤٠]

أمر الله نوحًا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل وغيرها من النبات اثنين ذكرًا وأنثى فقيل كان أول من أدخل =

ومن الأنعام لأنعامها، ومن كل الهوام التي تدب على الأرض بجواهرها اثنين اثنين ومن كل شيء أدخل معك.

مع أنه ذكر عقيبه في القراءة الثالثة عشر أنه لا يدخل معه من كل أمة اثنين اثنين بل يدخل معه من الدواب الطاهرة سبعة سبعة، ومن غير الطاهرة اثنين اثنين[١].

وهذا تناقض بين الكلامين. وفي نسخة: الفلك[٢] بدل التابوت. وفي نسخة: في المقام.

واجعل بكل من جميع الدواب الزكية سبعة أزواج ذكور وسبعة أزواج إناث، ومن الدواب التي ليست بزكية زوجين ذكورًا وإناثًا لتعيش معك، ويكون على وجه الأرض.

وثالثها: كيف يحسن أن يقال: لتعولهم معك ثم أعاده مرة ثانية وقال: ليفتدوا معك فإن ظاهره تعليل إدخالهم معه إلى السفينة بأن يعولهم ويفتدوا معه[٣].

=

من الطيور الدرة وآخر من أدخل من الحيوانات فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه فجعل يقول له نوح عليه السلام ويحك ادخل فينهض ولا يقدر فقال ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة. تفسير ابن كثير (٢/٤٥٥).

(١) قال ابن أبي حاتم بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف تطمئن المواشي الأسد؟ .
فسلط الله عليه الحمى، فكانت أول حمى نزلت في الأرض ثم شكوا الفأرة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها». تفسير ابن كثير (٢/٤٥٦).

(٢) قال تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٧، ٣٨].
أي اصنع السفينة بمرأى منا وتعليمنا لك ما تصنعه وقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه وييبسه فكان ذلك في مائة سنة ونجرها في مائة سنة أخرى وقيل في أربعين سنة والله أعلم . تفسير ابن كثير (٢/٤٥٤).

(٣) روى علباء بن أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يومًا وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يومًا، ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه،فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودي. البداية

=

مع أنه ذكر عقيبه في القراءة الثالثة عشر أن العلة ليعيشوا، أو تكون لهم شرة على وجه الأرض.

فقد تناقض التعليلان مع أن هذا التعليل الأول ليس بصحيح في نفسه، فإنه ليس العلة في إدخالهم أن يعولهم ويفتدوا معه فقط، بل العلة هي الثانية.

السؤال على القراءة الثالثة عشر

من خمسة أوجه: **أحدها**: كيف يحسن أن يقال: وقال الله لنوح ادخل أنت وأهل بيتك إلى التابوت(١) من أجل أني رأيتك بارًا أمامي في هذا الجيل.

ومن الدواب الطاهرة اجعل معك سبعة سبعة ذكرًا وأنثى. ومن الدواب التي ليست طاهرة اثنين اثنين ذكرًا وأنثى. ومن طير السماء التي ليست هي بطاهرة سبعة سبعة ذكرًا وأنثى ليعيشوا معك، ويكون لهم شرة على وجه الأرض.

فإن هذا تكرار أيضا لذكر إدخال نوح ومن معه إلى السفينة(٢)، عقيبه من غير بعد عهد به.

وثانيها: أن قوله: ومن الدواب الطاهرة اجعل معك سبعة سبعة ذكرًا وأنثى.

=

والنهاية (١/١٣٩).

(١) اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفسًا معهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسًا، وقيل كانوا عشرة، وقيل إنما كانوا نوحًا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذي انخزل وانعزل وسلك عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل، وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هي نصٌّ في أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به كما قال: ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٨] وقيل كانوا سبعة البداية والنهاية (١/١٣٤).

(٢) امتثل نوح عليه السلام لأمر الله في قوله ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [هود: ٤١].

وقال في البداية والنهاية (١/١٣٤):- وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم وهم: حام، وسام، ويافث، ويام ويسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذي قد غرق وعابر فقد ماتت قبل الطوفان، وقيل: إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها.

وعند أهل الكتاب: أنها كانت في السفينة فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك أو أنها أنظرت ليوم القيامة والظاهر الأول لقوله: ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦].

تناقض ما تقدم من أنه يدخل معه من كل أمة اثنين اثنين.

فإن قيل: إنه مخصص لذلك، وليس مناقضًا له لأنه خصَّ السبعة بالطاهر، والاثنين بغير الطاهر[1].

وإنما يكون مناقضًا لو جعل الجميع سبعة سبعة قلت: هذا كلام صحيح لكنه صرح في القراءة الرابعة عشر بقوله: ومن الطير الطاهر ومن الطير غير الطاهر، ومن البهائم، ومن الدبيب الذي يدب على وجه الأرض اثنين اثنين من كل شيء دخل مع نوح فبطل التخصيص وتحقق التناقض[2].

وثالثها[3]: أن قوله سبعة سبعة ذكرًا وأنثى لا يستقيم، فإن السبعة فرد، لا يمكن

---

(١) قال تعالى ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا ولا ديارًا وهذه من صيغ تأكيد النفي، قال الضحاك: ديارًا واحدًا .

وقال السدي: الديار الذي يسكن الدار فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه. تفسير ابن كثير (٤/٤٢٧).

(٢) روى البخاري في صحيحه (٤٩٢٠) كتاب تفسير القرآن، ١-باب﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]. عن ابن عباس رضي الله عنهما: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمذان وأما نسر فكانت لحمير، لآل ذي الطلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت».

(٣) يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاما وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ [نوح: ٥] أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [نوح: ٦] أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ ﴾ [نوح: ٧]. تفسير ابن كثير (١/٤٢٤، ٤٢٥).

أن يكون نصفها ذكرًا، ونصفها أنثى كما كان الاثنان، أحدهما ذكرًا والآخر أنثى، فيبقى الواحد منها الزائد على ستة إما ذكرًا بلا أنثى أو أنثى بلا ذكر، فلا فائدة في إدخاله السفينة ولا يثمر على وجه الأرض.

وفي فرجة بخطّ المصنف معاملة لهذا الوضع وفي نسخة هنا سبعة أزواج ذكور، وسبعة أزواج إناث، واجعل معك في جميع الدواب الزكية سبعة أزواج ذكورًا وسبعة أزواج إناثًا، ومن الدواب التي ليست بزكية زوجين زوجين ذكورًا وإناثًا، ومن الطير المحرم اثنين اثنين ذكورًا وإناثًا.....)[١] .

ورابعها: أن قوله: ليعيشوا ويكون لهم ثمرة على وجه الأرض تعليل صحيح في نفسه لكنه مناقض للتعليل الأول الذي في القراءة الثانية عشر.

وهو قوله: لتعولهم، وقوله: ليفتدوا معك كما تقدم شرحه.

وخامسها: كيف يحسن أن يقال هنا لأن من يومك هذا إلى سبعة أيام[٢] أنا انزل على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة وأتلف كل شيء أقمته وصنعته على وجه الأرض من بشر إلى دواب.

ففعل نوح كما أمره الرب الإله فإن ظاهره أن نوحًا دخل الفلك بمن معه في هذا اليوم قبل السبعة أيام[٣]، وقبل الطوفان ولا سيما قوله: فعل، بفاء التعقيب مع أنه ذكر

---

(١) كلام وجدناه بالهامش وآخره كلام غير واضح.

(٢) قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: ٩-١٣].

قال ابن جريج عن ابن عباس: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ [القمر: ١١] كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر. تفسير ابن كثير (٢٦٣/٤)

(٣) قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]. هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذي لا يقلع ولا يفتر.

وأما قوله: ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ [هود: ٤٠] فعن ابن عباس التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيونا تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول =

في القراءة الخامسة عشر أنه دخل بمن معه بعد وقوع الطوفان.

فيكون بعد السبعة أيام، لأنه قال: وفي سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في سبعة عشر يومًا من الشهر في ذلك اليوم انفتحت ينابيع الأعماق وتفتحت مياذيب السماء. ثم قال بعده: في ذلك اليوم دخل نوح، وهذا تناقض.

السؤال على القراءة الرابعة عشر

كيف يحسن أن يقال: ومن الطير الطاهر، ومن الطير غير الطاهر، ومن البهائم، ومن الدبيب الذي يدب على وجه الأرض اثنين اثنين من كل شيء دخلوا مع نوح إلى التابوت ذكرًا وأنثى، كما أوصى الله لنوح[(١)]، كان ظاهره أنه أمر أن يدخل معه إلى التابوت من كل أمة طاهرة أو غيرها اثنين اثنين.

وكذا ذكره في القراءة الثانية عشر. وفي القراءة الخامسة عشر أيضًا.

لكنه مخالف لما ذكره في القراءة الثالثة عشر وهو قوله: ومن الدواب الطاهرة اجعل معك سبعة سبعة ذكرًا وأنثى.

وقوله: ومن طير السماء التي هي طاهرة سبعة سبعة ذكرًا وأنثى وهذا تناقض ظاهر جدًا.

فإن قيل: هذا إخبار عما فعل نوح عليه السلام وذلك أمره لنوح[(٢)] بما يفعله،

=

جمهور السلف وعلماء الخلف. فحينئذ أمر الله نوحًا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات اثنين ذكرًا وأنثى . تفسير ابن كثير (٢/٤٥٥).

(١) قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود: ٤٠] أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله، وقوله:﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أي من قومك: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا. تفسير ابن كثير (٢/٤٥٦).

(٢) يقول تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود:٤١].أي باسم الله يكون جريها على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها. وقرأ أبو رجاء العطاردي: ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَآ ﴾ وقال الله تعالى فَإِذَا ﴿ ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى

=

فلعله اجتهد وخالف بعض ما أمر به لمصلحة رآها، فلا يلزم أن يكونا متناقضين. وإنما يلزم أن يكونا متنافضين (أن)(١) لو كان أمرين أو خبرين.

قلت: هذا ممكن في نفسه، لكن آخر كلامه عقيبه ما يبطله، وهو قوله: كما أوصى الله لنوح. فإن مقتضاه أن الذي فعله هنا هو الذي أوصاه الله به هناك. وفي نسخة: كما أمر الله نوحًا(٢).

السؤال على القراءة الخامسة عشر

من أربعة أوجه:أحدها:كيف يحسن أن يقال هنا: وفي سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في سبعة عشر يومًا من الشهر في ذلك اليوم انفتحت ينابيع الأعماق وتفتحت مياذيب السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة(٣).

ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩] تفسير ابن كثير (٢/٤٥٦).

(١) كذا بالأصل.

(٢) في ذكر فضائل نوح عليه السلام قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣].
قيل: إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.
روى مسلم في صحيحه [٨٩-(٢٧٣٤)] كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ٢٤-باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب. عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»، ورواه أحمد والترمذي والنسائي.
والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

انظر البداية والنهاية (١/١٤١).

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢]، وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرًا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٠-١٣]. البداية والنهاية (١/١٣٥).

في ذلك اليوم دخل نوح، وحام وسام ويافث بنو نوح، وامرأة نوح[1] وثلاث نساء بنيه معه في السفينة، وكل وحوش الأرض إلى آخره.

فإن ظاهره أن دخول نوح بمن معه إلى السفينة كان يوم وقوع الطوفان بعد السبعة أيام الموقتة، ولا سيما في نسخة: فلما أن تمت السبعة أيام، وكان ماء الطوفان على الأرض سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني، وفي سبعة عشر يومًا من الشهر.

في ذلك اليوم انفتحت ينابيع القعر الأكبر ثم قال: في ذلك اليوم دخل نوح بعده. مع أنه ذكر في القراءة الثالثة عشر أنه دخل بمن معه قبل السبعة أيام، لأنه قال هناك بعد أمره بالدخول بهم، لأن من يومك هذا إلى سبعة أيام أنا أنزل مطرًا على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة[2].

ثم قال عقيبه: ففعل نوح كما أمره الرب الإله وظاهره أنه دخل في ذلك اليوم. ولا سيما قوله: ففعل، بفاء السببية، ففيها تناقض، ظاهر كلامه هنا أن دخوله بعد الأربعين.

---

(١) قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].

ليس المراد بقوله: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ في فاحشة بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء.

وعن ابن عباس في الآية: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال: ما زنتا أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه وعن ابن عباس قال: كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به أما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحد أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء تفسير ابن كثير (٤/٣٩٣).

(٢) ذكر ابن جرير وغيره: أن الطوفان كان في ثالث عشر شهر آب في حساب القبط وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١]. أي السفينة: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢].

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعًا وهو الذي عند أهل الكتاب،قيل ثمانين ذراعًا، وعمَّ جميع الأرض ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير. البداية والنهاية (١/١٣٥).

وثانيها: كيف يحسن أن يقال هنا: وكل وحوش الأرض لجنسها، وكل دبيب يتحرك على وجه الأرض لجنسه، وكل طير ذي جناح لجنسه دخل مع نوح في التابوت اثنين اثنين[١].

ثم قال عقيبه: كما أمر الرب الإله نوح. مع أنه ذكر في القراءة الثالثة عشر قوله: ومن الدواب الطاهرة اجعل معك سبعة سبعة ذكرًا وأنثى، ومن الدواب التي ليست بطاهرة اثنين اثنين ذكرًا وأنثى، ومن طير السماء التي هي طاهرة سبعة سبعة ذكرًا وأنثى.

فإن ظاهرها متناقض كما قدمنا شرحه.

وثالثها: كيف يحسن أن يقال: لو كان المطر على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة، وذكر عقيبه، وكان الطوفان أربعين يومًا وأربعين ليلة على الأرض.

مع قوله بعد ذلك: وتعالى الماء على الأرض مائة وخمسين يومًا[٢]. فإنهما خبران متناقضان عن مدة الطوفان.

فإن قيل: يمكن أن يكون الإخبار الأول إخبارًا عن مدة نبع الماء ووقوع المطر فقط والإخبار الثاني إخبار عن مدة النبع ووقوع المطر وإقامة الماء عد ذلك بلا مطر،

---

(١) وقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠].

هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

وفي كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين ذكرًا وأنثى، وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق ﴿ ٱثْنَيْنِ ﴾ إن جعلنا ذلك مفعولا به، وأما إن جعلناه توكيدًا لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافي والله أعلم. البداية والنهاية (١/ ١٣٣).

(٢) روى ابن جرير وابن أبي حاتم بسندهما عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم أم الصبي» قال رسول الله ﷺ: «كان نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يعني وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر فكيف تجري؟ قال سوف تعلمون فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حبًا شديدًا فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا، فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم أم الصبي » تفسير ابن كثير (٢/٤٥٧، ٤٥٨).

قلت: هذا ممكن في نفسه، لكن يبطله قوله عقيب ذكر المائة وخمسين يومًا: وذكر الله نوحًا وكل الدواب، وكل الدبيب، وما كان معه في التابوت، وبعث الله ريحًا على الأرض وسكن الماء، وانسدت ينابيع العمق ومزاريب السماء، وامتنع مطر السماء وجعل الماء يقل عن الأرض ويرجع بعد مائة وخمسين يومًا[1].

والنبع كان هو ونقصان الماء بعد مائة وخمسين يومًا.

فتحقق التناقض، وأيضًا فإن قوله: وذكر الله نوحًا وكل الوحوش يوهم أن طول المدة كان بسبب النسيان، وهو باطل.

ورابعها: أن قوله: وجعل الماء يرجع عن الأرض، ويقل بعد مائة وخمسين يومًا عقيبه في القراءة السادسة عشر واستبقى الماء في الشهر السابع في سبعة عشر يومًا من الشهر على جبل أراب فردًا فبدأ الماء ينقص إلى الشهر العاشر، لأن هذا يقتضي شروع الماء في النقص بعد المائة والخمسين يومًا[2].

وذلك يقتضي شروعه في النقص بعد سبعة عشر يومًا من الشهر السابع فتناقضا. وفي نسخة هنا ورجع الماء عن وجه الأرض وجعل يذهب الماء ويغيض وينقص من بعد مائة وخمسين يومًا.

السؤال على القراءة السادسة عشر

من أربعة وجوه:

أحدها: كيف يحسن أن يقال واستقر التابوت في الشهر السابع في سبعة عشر

---

(١) قال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكفَّ ذلك الطوفان أرسل ريحًا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر وكان استواء الفلك فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشر ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رءوس الجبال. البداية والنهاية (١/ ١٤٠)

(٢) قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

قال مجاهد ﴿ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾: هو جبل جزيرة تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام، وقال قتادة: استوت عليه شهرًا حتى نزلوا منها، قال قتادة، قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رمادًا. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٧).

يومًا من الشهر على جبل أراب فردا[١]. فبدأ الماء ينقص إلى الشهر العاشر. فظهرت رءوس الجبال في اليوم الأول من الشهر العاشر.

فإن ظاهره أن نقص الماء بدأ بعد سبعة عشر يومًا من الشهر السابع مع أنه قال في القراءة الخامسة عشر قبيل هذا: أن الماء جعل يرجع عن الأرض ويقل بعد مائة وخمسين يومًا كما تقدم، فتناقض الخبران. وفي نسخة: على جبل قردى[٢].

وثانيها:كيف يحسن أن يقال: وكان بعد أربعين يومًا فتح نوح طاق التابوت الذي صنع وأرسل الغراب ينظر إن كان قد قلَّ الماء، مع أنه قد قال قبله: فظهرت رءوس الجبال في اليوم الأول من الشهر العاشر.

فإذا كانت قد ظهرت رءوس الجبال من قبل ذلك بأربعين يومًا، بل وتزداد ظهورًا في مدة الأربعين يومًا[٣].

فكيف يحتاج في معرفة أن الماء قد قلَّ إلى إرسال غراب أو غيره، فإنه

(١) قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤].

قيل الجودي: من أرض الجزيرة، وقال الضحاك: جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو بالطور وسيأتي بأوسع من ذلك قريبًا. تفسير ابن كثير (٤/٤٥٧).

(٢) وجدته في النسخة المطبوعة في دار الكتاب المقدس بمصر (صـــ١٣): على جبال أراراط.

(٣) قال في البداية والنهاية (١/١٤٠) قال محمد بن إسحاق:- يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رءوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون. يومًا فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم تجد لرجلها موضعًا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قلَّ عن وجه الأرض ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت،فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد في الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك. وهذا الذي ذكر ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب.

قال ابن إسحاق وفي الشهر الثاني من سنة اثنين في ست وعشرين ليلة منه ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [هود: ٤٨].

بالمشاهدة ترى رءوس الجبال بعد أن كان الماء مرتفعًا عليها خمسة عشر ذراعًا فيعلم نقصان الماء.

وثالثها: كيف يحسن أن يقال وأرسل الحمامة تنظر إن كان قد قلّ الماء عن وجه الأرض فلم تجد الحمامة موضعًا لرجليها مع أن قلة الماء معلومة بمشاهدة ظهور رءوس الجبال، كما قدمنا.

وأيضًا فإن قوله هنا فلم تجد الحمامة موضعًا. لرجليها مع أن رءوس الجبال قد ظهرت من قبل ذلك بأربعين يومًا لا وجه له، فإنها تجد لرجليها موضعًا على رءوس الجبال كما جلس الغراب على رءوس الجبال، ولم يعد حتى نشف الماء من الأرض كما ذكره قبيله[1].

فإن قيل لعلّ مراده أن ينظر إن كان قد قلّ الماء عن الأراضي المنبسطة الوطية من وجه الأرض لا عن رءوس الجبال المرتفعة.

قلنا: وهذا أيضًا معلوم بالمشاهدة أن الماء مرتفع عليه ويمكنها أن تجلس أيضًا على رءوس الجبال كالغراب وأيضًا فإن قوله: لتنظر إن كان قد قل الماء عن وجه الأرض، لا يمكن الحمامة أن تعلمه حتى يبعثها لمعرفته لأن قلة الماء وكثرته على وجه الأرض سواء في نظرها لاشتراكهما في ستر الأرض عن نظرها.

فكيف يحسن بعثها بكشف ذلك. وأيضا فإن بعثها وبعث الغراب لـــكشف ذلك يستدعي أن يعرف لغة الطير، ولم يثبت ذلك لنوح ولا لغير سليمان عليهم

(١) قال علي بن أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم وأنهم كانوا فيها مائة وخمسين يومًا وأن الله وجه السفينة إلى مكة فطافت بالبيت أربعين يومًا ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون فلطخت رجليها بالطين فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها اللسان العربي، فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم.

وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي وقال قتادة وغيرهم ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم على الجودي شهرًا وكان خروجهم من السفينة في عاشوراء من المحرم، وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير، وأنهم صاموا يومهم ذلك والله أعلم. تفسير ابن كثير (٢/٤٥٧).

السلام[1].

ولو كان يعلمها وأمرها بلغتها التي يعلمانها كلاهما لما خالفت في المرة الثانية لما بعثها فلم ترجع كما ذكره عقيبه في قوله: فمكث سبعة أيام أخر.

وأرسل الحمامة فلم ترجع إليه.

ورابعها:كيف يحسن أن يقال: وكان في سنة إحدى وستمائة من حياة نوح في أول يوم من الشهر الأول بها، نقص الماء عن وجه الأرض وكشف نوح غطاء التابوت الذي صنع فرأى الماء قد نقص عن وجه الأرض.

وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض وقال الرب الإله لنوح اخرج من التابوت.

فإن قوله: نقص الماء يقتضي أن النقص إنما وجد في هذا التاريخ مع أن النقص قد وجد من بعد مائة وخمسين يومًا، كما صرح به بعد ذلك في موضعين.

وإن كانا متناقضين كما بيناه وهما بعد مائة وخمسين يومًا، وبعد السابع عشر من الشهر السابع فيصير التناقض بين ثلاثة إخبارات.

فإن قيل لعل المراد بقوله نقص الماء أنه جفت الأرض بالكلية في هذا التاريخ، فلا ينافي نقص الماء في التاريخ المتقدم ولا يناقضه.

قلت: هذا يمكن في نفسه، لكن يبطله قوله عقيبه: وفي الشهر الثاني في اليوم

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦].

أي أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضًا وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله، ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود كما قد يتفوه به كثير من الناس فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال، ولكن الله سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها، ولهذا قال تعالى:﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ١٦]. تفسير ابن كثير (٣/٣٧٠).

العشرين من الشهر جفت الأرض(١).

فإذا كان جفاف الأرض إنما حصل في الشهر الثاني.

امتنع أن يكون المراد بالنقص في الشهر الأول هو الجفاف وإلا لتناقضا أيضا.

السؤال على القراءة السابعة عشر

من خمسة أوجه:

أحدها: كيف يحسن أن يقال: وقال الرب الإله لنوح لا أعود أيضًا ألعن الأرض من أجل أعمال البشر، لأن عقل الإنسان مائل إلى الشر منذ صباه(٢).

لأن قوله: ألعن الأرض معناه أبعد الأرض وأطردها، وهذا المعنى لا يحسن استعماله إلا في حقِّ البشر، أما في حق الأرض فلا. لأنها غير مكلفة فلا تبعد ولا تقرب.

وفي نسخة: وقال الله في قلبه لا أعود أيضًا ألعن الأرض(٣).

وبين النسختين تناقض، لأن مفهوم هذه النسخة أن القول لنوح ظاهرًا لا سرا في قلبه، ومفهوم تلك النسخة أن القول في قلبه سرًّا لا ظاهرًا مع نوح، فتناقض الإخباران.

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٨، ٢٩].

ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣]. تفسير ابن كثير (٢/٥٤٦).

(٢) قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣].

تقول المرأة ولست أبرئ نفسي فإن النفس تتحدث وتتمنى ولهذا راودته لأن﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [يوسف:٥٣] أي الا من عصمه الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . تفسير ابن كثير (٢/٤٩٤).

(٣) ليس كذلك فالله كما قال: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج:١٦]. قال ابن كثير في تفسيره (٤/٤٩٦):- أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه ولا يُسأل عما يفعله لعظمته وقهره وحكمته وعدله كما روي عن أبي بكر الصديق أنه قيل له وهو في مرض الموت هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي إني فعال لما أريد.

وثانيها[١]: كيف يحسن أن يعلل عدم لعن الأرض بأن عقل الإنسان مائل إلى الشر، بل المناسب أن يفعل وتبعد الأرض بما فيها أيضًا لشر من فيها، وإن كان المراد بلعن الأرض إهلاك ما فيها من الإنسان، وما ينفع الإنسان من حيوان ونبات، لم يحسن أن يترك هذا لأجل أن عقل الإنسان مائل إلى الشر.

والمناسب أن يفعل هذا إما عقوبة للإنسان مباشرة، وإما تخويفًا لإنسان آخر لينتهي عن شره.

فإن قيل: لعل المراد بهذا التعليل بسط عذر الإنسان فيما يصدر منه من الشر، لأنه إذا كان الشر مركوزًا في طبيعة عقله من الصبا، كان مغلوبًا مع عقله معذورا فيما صدر منه، فيحسن أن يسامح ولا يؤاخذ بشر، ولا يهلك بالطوفان مرة أخرى.

قلت: لو كان هذا هو المراد، وكان ذلك موجبًا للمسامحة في حكمة الإلهية، مع أن العلم الأزلي[٢] محيط به، قبل فعل الطوفان على ذلك لزم أن يكون وقوع الطوفان على خلاف الحكمة الإلهية، ولزم أن يكون هذا ندمًا على إيقاعة[٣]، وهما باطلان

---

(١) قال في البداية والنهاية (١٤١/١):-قد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم وقالوا: إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا، قالوا: ولم نزل نتوارث الملك كابرًا عن كابر من لدن «كيومرث» يعنون آدم إلى زماننا هذا.
وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان، وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لربِّ الأرض والسموات وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان، وأنه عمَّ جميع البلاد ولم يبق الله أحدًا من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذا لما سبق في القدر المحتوم.

(٢) قال في البداية والنهاية (١١٩/١):- قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم عليه السلام الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك.
ثم قال بعد ذلك: ويقال: إن نوحًا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت فدفنهما ببيت المقدس . حكى ذلك ابن جرير.

(٣) لما اجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها .
وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل لهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم.

(............)[1].

وثالثها: كيف يحسن أن يقال: ولكن من الآن كل أيام الأرض زرع وحصاد، برد وحر، صيف وشتاء، نهار وليل، لا يستريحان.

فإن قوله: من الآن يوهم أن الأمر لم يكن ذلك من قبل الآن، وليس كذا.

وفي نسخة: لا يبطلان، بدل: يستريحان.

ورابعها: كيف يحسن أن يقال: وبارك الله على نوح وبنيه، وقال لهم: إنموا واكثروا واملئوا الأرض.

فإن قوله: بارك، يوجب حصول البركة.

وقوله: انموا واكثروا يوجب حصول الكثرة.

لكن وجد من الكثرة كفار وفجار[2]، بل أكثر الكثرة كفار وفجار، ووجود

= فإنه ليس الخبر كالمعاينة، ولهذا قال: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧].

(١) كلمات غير واضحة بالهامش.

(٢) تطاول الزمان والمجادلة بين نوح وقومه كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم.

وكان كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته، ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه أن لايؤمن بنوح أبدا ما عاش ودائما ما بقي، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق، ولهذا قال: ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 27].

ولهذا قالوا: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ [هود: ٣٢-٣٣]. أي إنما يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [هود: ٣٤].

أي من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. البداية والنهاية (١/١٣٠، ١٣١).

شيء من الفجر، والكفر فيهم ينافي البركة، فكيف كثرة الكفر والفجور.

فإن قيل: لعلَّ المراد بقوله: بارك الله على نوح وبنيه أنه كثرهم، فيبقى مناسبًا لقوله انموا واكثروا. قلت: هذا لا يصح لوجهين: أحدهما أن اللفظ الذي يعطي هذا المعنى أن يقال: بارك فيهم بمعنى كثرهم، أما بارك عليهم فمفهومه أنه جعلهم مباركين، وإن كانوا قليلين في العدد كما يقال: فلان رجل مبارك، أي ذو بركة وخير، لا ذو كثرة في العدد.

وثانيها: «أن بارك »[1] إخبار بفعل ماض عن إيقاع شيء منه عليهم، وهي البركة، فقد وقعت وحصلت.

وقوله: انموا واكثروا[2]، فعل أمر إما تكليفي أو تكويني، فلو كان المراد بالبركة كثرة العدد لزم الأمر تحصيل الحاصل لحصولها قبل الأمر.

وخامسها: كيف يحسن أن يقال: ومن يهرق دم الإنسان يهرق دمه بدل دمه، لأن على صورة الله خلق الإنسان. فإن قوله: على صورة الله يتضمن إثبات الصورة لله سبحانه وتعالى، وقد تقدم إبطاله.

---

(١) قال تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود:٤٨].

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي، وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور.

وفي قوله تعالى:﴿ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ ﴾ أي اهبط سالمًا مباركًا عليك وعلى أمم من سيولد بعد، أي من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقبا سوى نوح عليه السلام. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧].

(٢) قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧]. فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافث. روى أحمد في مسنده (١٩٩٨٢)، والترمذي في سننه (٣٩٣١)، والحاكم في مستدركه (٢/٥٤٦). عن سمرة أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم».

وروى ابن عبد البر مثله عن عمران بن حصين وقال: المراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يوثان بن يافث بن نوح عليه السلام . البداية والنهاية (١/١٣٨).

وأيضا فإن تعليل إثبات القصاص بين القاتل والمقتول المكلفين، لا يشترط فيه بعد التكليف فيهما سوى تكافئهما فقط. بأن يكون القاتل أشرف من المقتول، فإنه لا يقتل الحر بالعبد(١) مثلا. أما كونهما على صورة الله أو على غير صورة الله فلا مدخل له في إثبات القصاص. فإن من لم يثبت لله صورة أثبت القصاص أيضا بينهما. وفي نسخة: ومن يسفك دم البشر فللبشر سفك دمه من أجل أنه على تمثال الله خلق آدم.

السؤال على القراءة الثامنة عشر

من ثلاثة أوجه أحدها: كيف يحسن أن يقال قال الرب الإله لنوح وبنيه معه قائلا هو ذا أنا أقيم عهدي لكم ولنسلكم(٢) معكم، ومع كل نفس حية معكم من طائر ومن بهائم، ومن جميع وحوش الأرض الذين معكم، ممن خرج من السفينة،و أقيم عهدي عندكم، وليس يموت كل جسد أيضًا من ماء الطوفان ولا يكون أيضا الطوفان يفسد كل الأرض.

فإن لفظ العهد بأنه لا يقع الطوفان على الأرض أبدًا سواء أفسد أهلها أو لم يفسدوا(٣). ولا يحسن لوجهين أحدهما أنه لا يناسب نفس الشرائع، فإنها محشوة

---

(١) قال الحنفية: يقتل الحر بالحر، والحر بالعبد لعموم الآيات الواردة في القصاص، ولأن القصاص يعتمد المساواة في العصمة، وهي بالدين، أو بالدار، والعبد والحر يستويان فيهما، فيجري القصاص بينهما، وحقيقة الكفر لا تمنع من جريان القصاص، لأنه لو صلح لما جرى بين العبدين. وقال المالكية والشافعية والحنابلة: لا يقتل الحر بالعبد لقوله تعالى: ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾ [البقرة: ١٧٨]. ومن ضرورة هذه المقابلة أن لا يقتل حر بعبد. الفقه على المذاهب الأربعة (٥/٢٢٥).

(٢) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٦].

يخبر الله تعالى أنه منذ بعث نوحًا عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبيًا إلا من ذريته وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتابًا ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ ﴾ حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما. تفسير ابن كثير (٤/٣١٥).

(٣) قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ =

بتهديد المكلفين بعقوبات الدنيا والآخرة على معاصيهم ليخافوا فيستقيموا على طاعته سبحانه وتعالى، فأما إعلامهم بعدم المؤاخذة لاسيما بلفظ المعاهدة فغير مناسب لذلك النفس بل هو منافيه[1].

وثانيها: أن المسامحة بالمؤاخذة يكفي فيه لفظ العفو عن المعصية، أو ترك التكليف بتحريمها، فأما استمرار التكليف مع المعاهدة على ترك المؤاخذة، فلا وجه له، ولا يحسن هذه المعاهدة إلا في مهادنة طائفتين من البشر لتأمن كل منهما من شر الأخرى فيؤمنها شرها أيضا، تعالى الله عن ذلك.

= ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤-٨].

قال ابن كثير في تفسير (٣/٢٦): ﴿ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا ﴾ أي متى عدتم الى الإفساد ﴿ عُدۡنَا ﴾ الى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال.

(١) قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢].

قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٧٠):- لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ أي أخبراهم ﴿ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ مِنۡهَا قَآئِمٞ ﴾ أي عامر: ﴿ وَحَصِيدٞ ﴾ أي هالك ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ ﴾ أي إذا اهلكناهم ﴿ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما أي غير تخسير وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ يقول الله تعالى وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم إنَّ ﴿ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾.

وأيضا فإن قوله: قال الرب الإله لنوح وبنيه معه قائلا، لا يحسن، فإن قال بلفظ الفعل غير جائز لأنه لا يفيد كقولك ضرب زيدًا عمرًا ضاربًا.

وفي نسخة: قال الإصحاح السادس بدل القراءة الثامنة عشر.

وثانيها: كيف يحسن أن يقال عقيبه: فقال الرب الإله لنوح إن هذه علامة عهدي(١) الذي أنا أعطي بيني وبين كل نفس حية الذين معكم إلى أجيال الدهر قوسي أحل في الغمام، ويكون علامة عهدي بيني وبين الأرض، فإذا أنا رفعت الغمام عن الأرض يرى قوسي في الغمام فيذكر عهدي، فإن كون القوس علامة العهد لا يحسن لوجهين:

أحدهما: أن القوس لا يكون في كل غمام بل في القليل من أوقات الغمام وهو وقت رقة الغمام حيث لا يكون موجبًا لكثرة الأمطار(٢)، التي يخاف منها الطوفان فلا تحصل العلامة وقت الحاجة إليها، بل وقت الاستغناء.

وثانيها: أن عهده بأن لا يرسل الطوفان عليهم إن لم يعتمدوا على صدقه، فقوله: إن القوس علامة لعهده لا يعتمدون أيضًا على صدقه، وإن اعتمدوا على صدقه فلا حاجة إلى هذه العلامة التي لا تناسب الطوفان ولا عدمه، ولا تنطلي إلا على ضعيف العقل.

وفي نسخة فاذكر عهدي بدل: فيذكر، وسيأتي ضعفه.

وثالثها: كيف يحسن أن يقال وليكن قوسي في الغمام أراه(٣)، واذكر عهدي.

---

(١) روى البخاري في صحيحه (٤٦٨٦) كتاب تفسير القرآن، ٥- باب قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » قال: ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

(٢) قوس قزح: قوس ينشأ في السماء أو على مقربة من مسقط الماء من الشلال ونحوه ويكون في ناحية الأفق المقابلة للشمس، وترى فيه ألوان الطيف متتابعة، وسببه: انعكاس أشعة الشمس من رذاذ الماء المتطاير من ماء المطر أو مياه الشلالات وغيرها من مساقط الماء المرتفعة.

(٣) قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران:٥].

قال تعالى:﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم:٨ ٣].

فإن قوله: أراه واذكر عهدي يفهم منه أن رؤية القوس تذكره سبحانه وتعالى بالعهد وهذا لا يتوهم أحد من العقلاء أن النسيان يجوز تطرقه إليه سبحانه(١)، حتى يتذكر برؤية القوس. فكيف يجوز أن يخبر به سبحانه عن ذاته المقدسة.

وهذا يدل على أن قوله قبيله في النسخة الأخرى فاذكر عهدي، هذا معناه.

وكذا قوله هنا: فيذكر عهدي، ويتوجه السؤال عليهما أيضًا.

السؤال على القراءة التاسعة عشر

من ستة أوجه:

أحدها: كيف يحسن أن يقال وكان بنو نوح الذين خرجوا من السفينة سام وحام ويافث، حام أبو كنعان. وهؤلاء الثلاثة كل بني نوح(٢).

ومن هؤلاء تفرقوا في الأرض، فإن حام هو أصغر الثلاثة لأنه قال بعده: وعلم ما عمل به ابنه الأصغر، فلم يبتدأ في ذكرهم بالأكبر ثم الأوسط، ثم الأصغر جريا على ترتيب الوجود، وابتدأ بالأكبر فالأكبر، ولم يبدأ بالأصغر، ثم الأوسط، ثم الأكبر جريًا على سلوك الترقي من الأصاغر إلى الأكابر. ثم وقع التخبيط في الترتيب.

=

أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد وإنما هو القصد إلى رضاك الإخلاص لك فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء. تفسير ابن كثير (٢/٥٥٧).

(١) قال تعالى:﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥١، ٥٢]. أي لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئًا يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط وأنه لا ينسى شيئًا تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان أحدهما عدم الإحاطة بالشيء والآخر نسيانه بعد علمه فتنزه نفسه عن ذلك. تفسير ابن كثير (٣/١٦٠).

(٢) روى أبو عمر بن عبد البر من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: ولد نوح ثلاثة، سام، ويافث، وحام وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سام: العرب وفارس والروم، وولد يافث: الترك والسقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام القبط والسودان والبربر».

وقد قيل: إن نوحًا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان، وإنما ولد له قبل السفينة كنعان الذي غرق وعابر مات قبل الطوفان . البداية والنهاية (١/١٣٨).

وثانيها: كيف يحسن أن يقال: فنظر حام[1] أبو كنعان عرية[2] أبيه، فخرج وأخبر إخوته.

ثم يقال بعده: فاستيقظ نوح من سكره وعلم ما عمل به ابنه الأصغر.

فقال ملعون كنعان عبدًا مملوكًا يكون لإخوته فإن الذي أذنب فنظر عورة أبيه هو حام[3]، أبو كنعان، والذي عوقب باللعنة ابنه كنعان يعني أولاد حام الأربعة. وهذا لا يليق بالشرع ولا بالعقل. وفي نسخة: فنظر عورة أبيه بدل عرية. وفي نسخة: يكون عبد العبيد لإخوته.

وثالثها: كيف يحسن أن يقال: ويوسع الله على يافث، ويحل في مساكن سام، ويكون عبدًا له فإن قوله: ويحل في مساكن سام، يوهم حلوله سبحانه في مساكن سام.

وهذا من لم يقل به أحد من العقلاء.

فإن قيل: لعل المراد الاشارة إلى حلوله سبحانه في عيسى عليه السلام على معتقد اليهود. أو حلول لاهوته الابن في عيسى على معتقد النصارى.

قلنا هذا خلاف ظاهر لفظ مساكن سام. فإن مساكن سام غير سام، ومسكن عيسى غير عيسى. ولا سيما بصيغة جمع مساكن سام في هذه النسخة فإنهم لا يقولون

---

(١) الصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نصُّ التوراة وقد ذكر أن حامًا واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جدُّ السودان.

وقيل: بل رأى أباه نائمًا وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيدًا لإخوته المرجع السابق (١/١٣٩).

(٢) كذا بالأصل وهي عورته.

(٣) ذكر الأمام أبو جعفر بن جرير من طريق علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب فأخذ كفًا من ذلك التراب بكفه.

قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح، قال: وضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب فقال له عيسى عليه السلام: هكذا كهلت قال: لا ولكني مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة، فمن ثم شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح، قال:كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع . وكانت ثلاث طبقات... إلى آخر القصة. وفي آخرها فقال له: عد بإذن الله فعاد ترابًا انظر البداية والنهاية (١/١٣٩).

بحلوله في الجمع. وإن قالوا به في المفرد.

وأيضا فإن قوله في هذه النسخة ويكون كنعان عبدًا له يفهم منه أن كنعان يكون عبدًا لسام مع أن حال كنعان المذكور في بركة أولاده. وذريته لا يناسب اللعنة. بل أخوه كوش أو نمروذ[١] الجبار، يناسبها، فيكون مناقضًا لقوله قبيله: ملعون كنعان عبدًا مملوكًا يكون لإخوته.

وفي نسخة ويكون عبدًا لهما ويكثر الله يافث ويحل في مساكن سام[٢].

فتناقض النسختان في لهما وفي مسكن على أنا نقول إن ثبت حلوله سبحانه في مساكن سام بطل اختصاص عيسى بالحلول فيه، وتساوى الأنبياء. غيره ممن حل فيه، فلا يبقى لدعوى نبوته وجه على معتقد النصارى، ولا لدعوى أنه هو على معتقد اليهود.

ورابعها: كيف يحسن أن يقال: وبنو حام كوش ومصرايم وقفط[٣] وكنعان.

وبنو كوش سابا وحويلا وسبتا ورعما وسبتكا وبنو رعما شبا وددان.

وكوش ولد نمرود، وهو بدأ أن يكون على الأرض جبارًا، وهو كان الجبار القائم قدام الله، وكان رأس ملكه ببابل.

فإنه قد ذكر أن بني كوش خمسة. ثم ذكر بعده أن بني ابنه الرابع رعما اثنان[٤].

ثم ذكر بعد ذلك أيضًا أن كوش ولد نمرود الجبار[٥]. فعلى هذا يكون بني كوش ستة لا

---

(١) نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ويقال: نمروذ بن فالخ بن عابد بن شالخ بن إرفخذ بن سام بن نوح، والأول قول مجاهد وغيره، قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان، وكافران. المؤمنان: سليمان بن داود، وذو القرنين والكافران: نمروذ وبختنصر، والله أعلم.

(٢) قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده، بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد لنوح: سام، وحام، ويافث، فولد لسام العرب، وفارس، والروم، والخير فيهم، وولد ليافث: يأجوج ومأجوج، والترك والسقالبة، ولا خير فيهم، وولد لحام: القبط، والبربر، والسودان» ابن كثير البداية والنهاية (١/١٣٨).

(٣) كذا بالأصل ووجدناها «وقوط».

(٤) هما شبا وددان كما تقدم قريبا.

(٥) وهو الذي قال فيه الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ =

خمسة، مع ما فيه من عدم الترتيب.

وخامسها: كيف يحسن أن يقال: وقالوا تعالوا لنبني لنا مدينة وبرجًا يكون رأسه في السماء، ونجعل لنا ذكرًا من قبل أن نتفرق على وجه الأرض كلها.

فنزل الرب[(١)] لينظر المدينة والبرج الذي ابتناه بنو البشر، فإن قوله: فنزل الرب لينظر المدينة والبرج لا يحسن لوجوه:

أحدها: أن النزول ممتنع عليه سبحانه باتفاق منا ومنهم لا يهم، وإن قالوا بصحة تجسده في عيسى، لكنه في ذلك الوقت غير مجسد، فلا يصح عليه النزول. لأن النزول من خواص الأجساد.

وثانيها: أن النزول[(٢)] لينظر يوهم أن النظر مشروط بالنزول، لأن العلة الغائية مشروطة بوجود المعلول.

وثالثها: أن المدينة والبرج لم يوجدا ذلك الوقت، ولابعده. بدليل قوله عقيبه: وكفوا أن يبنوا المدينة والبرج. وفي نسخة: ولم يبنوا القرية، فكيف يقول:نزل لينظرهما،

[البقرة: ٢٥٨].

وقال ابن كثير: هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة تفسير ابن كثير (١/٣١٣).

(١) في نزول الله تعالى قال النووي: مذهبان مشهوران للعلماء ومختصرهما أن: أحدهما: وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يؤمن بأنها حقٌّ على ما يليق بالله تعالى وأن ظاهرها المتعارف في حقّنا غير مراد ولا يتكلم في تأويلها مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق الثاني: مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف وهو محكي هنا عن مالك والأوزاعي أنها تتأول على ما يليق بها بحسب مواطنها. النووي في شرح مسلم (٦/٣٢، ٣٣) طبعة دار الكتب العلمية .

(٢) قال النووي: اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين:

أحدهما: وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها بل يقولون يجب علينا أن يؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وأنه منزه عن التجسم والانتقال والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوق، وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققيهم وهو أسلم.

والقول الثاني وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها، وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله بأن يكون عارفًا بلسان العرب وقواعد الأصول . والفروع ذا رياضة في العلم . شرح مسلم للنووي (٣/١٨) طبعة دار الكتب العلمية.

بصيغة الماضي.

وسادسها: كيف يحسن أن يقال بعده. فقال الرب: هو ذا جنس واحد، ولسان واحد للكل وهكذا هموا ليصنعوا، أما الآن فلا ينقصهم الذي هموا به ليصنعوه، تعالوا ننزل لنقسم هناك ألسنتهم لكي لا يعلم الرجل منهم كلام صاحبه.

فإن قولهم تعالوا ننزل لنقسم هناك ألسنتهم لا يحسن لوجوه أحدها: أن النزول عليه سبحانه ممتنع، كما قدمنا آنفاً.

وثانيها: أن النزول قد حصل قبيله، بدليل قوله: ونزل الرب بصيغة الماضي، وتحصيل الحاصل محال.

وثالثها: أنه قرن به قوله تعالى: لنقسم وهذا يوهم أنه طلب الاستعانة بنزول غيره على قسمة ألسنتهم، وذلك يوجب موقف قسمة ألسنتهم(١).

وهذا لا يليق إلا بعاجز عن تحصيل مقصوده بنفسه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ورابعها: أنه جعل علة النزول قسمة ألسنتهم وذلك يوجب توقف قسمة ألسنتهم، على النزول لأن العلة الغائبة متوقفة على وجود الفعل،وليس كذلك، لإمكان قسمتها بدون النزول.

وخامسها: أنه جعل أيضًا علة قسمة ألسنتهم أن لا يعلم الرجل منهم كلام صاحبه. وتجهيل الإنسان بما يعلمه لا يليق أن يكون مقصودًا لله تعالى.

بل اللائق به أن يعلم الإنسان ما لم يعلم. وفي نسخة الإصحاح السابع قسمة الألسن واختلاف لغتهم بالسريانية اثنان وسبعون لسانًا وكانت الأرض كلها لسانًا

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]. قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يعني اللغات فهؤلاء بلغة الغرب وهؤلاء تنزلهم لغة أخرى وهؤلاء كرج وهؤلاء روم إفرنج وهؤلاء بربر وهؤلاء تكرور وهؤلاء حبشة وهؤلاء هنود وهؤلاء عجم وهؤلاء صقالية وهؤلاء خزر وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم واختلاف ألوانهم وهي حلاهم فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر بل الأبدان مفارقة بشيء من السمت. أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه أخرى، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر. تفسير ابن كثير (٣/٤٤٥).

واحدًا ولم أجد القراءة العشرين. ولعله خلطها مع التاسعة عشر والتي بعدها.

السؤال على القراءة الحادية والعشرين

من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن مقتضى ما ذكره فيها من وفيات المذكورين فيها من أرفخشد المولود بعد الطوفان بسنتين إلى أولاد إبرام وهو إبراهيم بن تارخ[١].

وهم عشرة أنفس: أن المدة ألف وسبعون سنة وهذا تناقض فاحش بين النسختين تسقط الثقة بهما في تفسيرهما التوراة العبرانية[٢].

إلا أن يكون التناقض في نسخ التوراة العبرانية أيضًا فيزداد التناقض فحشًا.

والعشرة هم: إبرام بن تارخ بن ناحور بن ساروخ بن راعو بن فالغ بن عار بن شالخ بن قينان بن أرفخشد. وأرفخشد بن سام بن نوح. ومن ولادة سام إلى ولادة أرفخشد مائة وثلاث سنين.

وفي فرجة بخطّ المصنف: فيكون من ولادة سام إلى ولادة إبرام[٣]، ألف ومائة

---

(١) قال الضحاك عن ابن عباس أن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر وإنما كان اسمه تارخ، وأمه اسمها شانى وامرأته اسمها سارة، وأم اساعيل اسمها هاجر وهي سرية إبراهيم هكذا قال غير واحد من علماء النسب أن اسمه تارخ.
وقال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تاريخ ثم أجاب بأنه قد يكون له اسان كما لكثير من الناس أو يكون أحدهما لقبًا وهذا الذي قاله جيد قوي والله أعلم. تفسير ابن كثير (١٥٣/٢).

(٢) روى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان قالوا: ولما كان عمر تارخ خمسًا وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام هو الأوسط وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين - يعنون أرض بابل، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار. البداية والنهاية (١٦٤/١).

(٣) كان أول دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه وكان أبوه ممن يعبد الأصنام لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى:﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ =

وثلاثة وسبعون سنة، وقد تقدم أن من إيجاد آدم إلى ولادة سام ألفين ومائة وستة سنة.

فيكون إيجاد آدم إلى ولادة إبرام- وهو إبراهيم- ثلاثة آلاف ومائتان وتسعة وسبعون سنة.

وعلى حساب النسخة الأخرى ألف وخمسمائة وأربعة وستون سنة (.....)[١]. فاحش وفاحش جدًا.

وقال في الفرجة هذا تمام السؤال من القراءة الحادية والعشرين[٢].

وثانيها: كيف يحسن أن يقال: وقال الرب الإله لإبرام اخرج من أرضك[٣] ومن أهلك ومن بيت أبيك، وتعال إلى الأرض التي أريك إياها وأجعلك لشعب عظيم، وأباركك، وأرفع اسمك ويكون مباركًا، وأبارك من يباركك، وألعن من يلعنك، ويتبارك بك قبائل الأرض.

فخرج إبرام كما أمره الرب، وخرج معه لوط[٤].

وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة إذ خرج من حران وأخذ إبرام

= عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

(١) كلام غير واضح نحو أربع كلمات.

(٢) وجدناه بالهامش.

(٣) لما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقرًا لا يولد لها ولم يكن له من الولد أحد بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه خلعه من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل. البداية والنهاية (١/ ١٧٤).

(٤) قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٢].

سراي[1] امرأته، ولوط ابن أخيه، وكل ما اقتنوا بحران واكتسبوا، وخرجوا جائين إلى أرض كنعان فإن قوله: اخرج من أرضك ومن بيت أبيك لا يحسن لأنهم بحران ،وهي ليست بأرضه لأن أرضه التي بها ولد هو وأخواه ناحور وهاران أبو لوط، وهي أرض الكلدانيين. وإنما حران ساروا بها في طريقهم لما ساروا من أرض الكلدانيين طالبين أرض كنعان كما صرح به قبيله.

وثالثها: إن قوله: ومن أهلك لا يحسن أيضًا مع قوله: فخرج إبرام، وأخذ إبرام سراي امرأته ولوطًا بن أخيه، وكل ما اقتنوا بحران فيكون قد خرج بأهله لا من أهله.

فيلزم ترك المأمور تناقض الإخبارين.

فإن قيل: لعله لما أمر بخروجه ويكون خروجه منفردًا من أهله امتثل أحد الأمرين[2].

---

(١) تزوج إبراهيم عليه السلام بابنة خالته سارة التي آمنت بدعوته وأخلصت له كما أنها أحبته حبًا جمًا فلما عرض عليها الزواج منه وافقته عليه، ثم وضعت بعد زواجهما كل ما كانت تملكه تحت تصرف زوجها إبراهيم عليه السلام، ولعلها كانت تملك كثيرًا من المواشي والزروع. واعتزل إبراهيم عليه السلام قومه لينصرف إلى دعاء ربه، عسى ألا يكون بدعاء ربه شقيا وأسر الى زوجه بأنه يريد أن يهاجر الى ربه عله يجد في أرض أخرى قومًا يؤمنون بالدين الحنيف الحق، وكان إسراره لها بقوله تعالى: ﴿ ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات:٩٩]، ومر في طريقه بـ«أور» الكلدانيين ثم ارتحل منها إلى «حاران»وهي بلدة في فلسطين التي كان الكنعانيون يحكمون جزءًا منها.

أقام إبراهيم عليه السلام أول الأمر في بلدة تدعى «شكين» وهي التي تعرف اليوم باسم «نابلس» ولكن مقامه فيها كان قصيرًا، إذ كان ينتقل منها إلى الجنوب ليؤدي مهمة الدعوة والتبليغ.

ولم يتوقف النبي إبراهيم عليه السلام في هذه الأرض الجديدة عن الدعوة إلى دين الله العزيز الحكيم ولكنه وجد بالإضافة إلى غربته عن وطنه غربة جديدة في عدم تقبل الناس هنا أيضا الهداية، وظل على العهد قائما وللإيمان بالله داعيًا. انظر مجمع البيان الحديث في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام.

(٢) قال في البداية والنهاية (١/١٧٤): زعم كعب الأحبار أنه خرج من حران، ونقل أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط وأخوه ناحور وامرأة إبراهيم سارة وامرأة أخيه ملكا فنزلوا حران فمات تارح أبو إبراهيم بها وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على أن لا يغيرها .

رواه ابن جرير وهو غريب والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذي تنسب إليه حران، ومن زعم =

فخرج وخالف في ترك أهله لعذر خوف ضياعهم بعده.

وغاية ما فيه ترك بعض ما أمر به لغدر، وهو جائز، وأما تناقض الخبرين فممنوع، لأن ذلك أمر وهذا خبر، فلا تناقض بينهما لإمكان أن يؤمر المكلف بأمر ويخبر عنه بأنه خالف بعضه أو خالفه، قلنا: هذان كلاهما لا يصحان مع قوله فخرج إبرام كما أمر الرب، فإن ظاهره يوجب موافقه الخبر للأمر مع أنه مخالفه، فيلزم المحذوران.

وفي نسخة: اذهب من أرضك التي ولدت فيها ويرد عليها أنه لم يولد بحران كما قدمته. وفيها أورثك بدل أريك وفيها: سارا بدل سرا، وفيها إبرام بدل إبرم.

السؤال على القراءة الثانية والعشرين

من ثلاثة أوجه: أحدها:كيف يحسن أن يقال وهبط إبرام إلى أرض مصر ليسكن هناك من أجل أن الجوع، كان قد اشتد على الأرض فلما قرب من الدخول إلى أرض مصر قال لسراي[1]. إني قد علمت أنك امرأة حسناء، فإذا رآك أهل مصر فإنهم سيقولون هذه امرأته فيقتلوني ويستحيونك، ولكن قولي إني أخته حتى يحسنوا إلي

=

أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش فقد أبعد النجعة وقال بلا علم وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعًا فليس له على ذلك دليل ولو فرض أن هذا كان مشروعًا في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه والله أعلم. ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجرًا من بلاده.

(١) روى البخاري في صحيحه (٣٣٥٨) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]، عن أبي هريرة قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، اثنتان منهن في ذات الله قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:٨٩]، وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء:٦٣]. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه وسأله عنها، فقال: من هذه، فقال: أختي فأتى سارة فقال: ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال:ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت، فأطلق فدعا بعض حجبته، فقال: إنك لم تأتيني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم، فقالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر، قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

وتحيا نفسي من أجلك فإن هذا لا يحسن من مثله لوجوه ثمانية:- أما أولاً: فلأن خوفه من قتله بهذا السبب، غلبه وهم ينشأ عن ضعف عقل لا يرتضي أقل الناس أن يقرَّ به على نفسه بلسانه، لاسيما إذا كان راضيًا بتركها لهم، فإنه لا ينفي لخوفه وجه أصلاً.

وأما ثانيا: فلأن قوله: ويستحيونك يوهم أنه حسدها على حياة الدنيا بعده، وهذا لا يليق بمثله.

وأما ثالثًا: فلأن قوله، قولي إني أخته(١)، تعليم منه لها أن تكذب، وهو قبيح منه.

وأما رابعًا: فلأن جعلها أخته يسهل منهم أخذها منه بدليل ما سيأتي أن فرعون لما علم بأنها امرأته عتقه، فردها، وذلك خطأ منه.

وأما خامسًا: فلأنه استسلم حريمه قبل وقوع محذور في حقه أو تخويف بمحذور أو الوصول إلى معاينة إمارات التخويف.وذلك خور في الطبيعة لا يليق بمثله.

---

(١) قال النووي: اختلفوا في المراد بالكذب المباح. ما هو؟ فقالت طائفة: هو على إطلاقه وأجازوا قول ما لم يكن في هذه المواضع [يقصد ما رواه مسلم وفيه يباح في الحرب، والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها]. للمصلحة.

وقالوا: الكذب المذموم ما فيه مضرة واحتجوا بقول إبراهيم ﷺ: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] و ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله: أنها أختي، وقول منادي يوسف ﷺ: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ [يوسف: ٧٠].

قالوا: ولا خلاف أنه لو قصد ظالم قتل رجل هو عنده مختف وجب عليه الكذب في أنه لا يعلم أين هو.

وقال آخرون منهم الطبري لا يجوز الكذب في شيء أصلاً، قالوا: وما جاء من الإباحة في هذا المراد به التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب مثل أن يعد زوجته أن يحسن إليها ويكسوها كذا وينوي إن قدر الله ذلك وحاصله أن يأتي بكلمات محتملة يفهم المخاطب منها ما يطيب قلبه، وإذا سعى في الإصلاح نقل عن هؤلاء كذلك ووري، وكذلك في الحرب بأن يقول لعدوه مات إمامكم الأعظم وينوي إمامهم في الأزمان الماضية، أو غدًا يأتينا مدد أي طعام ونحوه، هذا من المعاريض المباحة، فكل هذا جائز وتأولوا قصة إبراهيم ويوسف وما جاء من هذا . على المعاريض والله أعلم. وأما كذبه لزوجته وكذبها له، فالمراد به في إظهار الود والوعد بما لا يلزم ونحو ذلك، فأما المخادعة في منع ما عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أولها، فهو حرام بإجماع المسلمين، والله أعلم. النووي في شرح مسلم (١٦/١٢٩، ١٣٠) طبعة دار الكتب العلمية.

وأما سادسًا: فلأنه كان الواجب في حقّه أن يدافع دون زوجته بما يمكنه، وأن خوف القتل إلى أن يقتل يختار القتل على التمكين منها.

أما اختياره للتمكين منها على القتل، فلا وجه له، لأن القتال دون الإيضاع واجب عقلاً وشرعًا.

والقتال دون المال جائز، يجوز تركه، فحط الواجب إلى درجة الجائز خطأ لاسيما من مثله.

وأما سابعًا: فإني قد علمت أنك امرأة حسناء[١] بلفظ الماضي مع قد توهم تجدد ذلك بعد عدمه وإن كان جاهلاً بذلك. ثم علة وهو في غاية البعد.

وأما ثامنًا: فإنه لم يجعل العلة في جعلها أخته أن يحيي نفسه فقط حتى يكون الخوف من القتل عذرًا له في ذلك على ضعفه، بل قال: حتى يحسنوا إلي، فجعل طمعه في إحسانهم إليه[٢] جزاءَ لعلة بل اعتنى به وقدمه على إحياء نفسه، وذلك لا يجوز أصلا ولا شرعًا ولا عقلا، فأين هذا من رتبة تكليم الله سبحانه إياه في قوله: واستعان الرب لإبرام وقال: إني معطي هذه الأرض لزرعك. فأين هذا النزول الدنيوي من ذلك

---

(١) قال في البداية والنهاية (١/١٧٦):-ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة، سارة، وأم موسى ومريم عليهن السلام، والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن.
رأيت في بعض الآثار: أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهدًا لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته فإنه كان يحبها حبًا شديدًا.

(٢) رجع الخليل من بلاد مصر إلى أرض اليمن وهي الأرض المقدسة التي كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.
ثم إن لوطا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور زغر، فنزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشرارًا كفارًا فجارًا، وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغرباً وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض، وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية يؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي منها. البداية والنهاية (١/١٧٦، ١٧٧).

الصعود الإلهي.

وثانيها: كيف يحسن أن يقال وكان للوط لما انطلق مع إبرام غنم وبقر وأشياء كثيرة حسنة فلم تسعهم الأرض ليسكنوا جميعًا. لأن مالهم كثر جدًّا، ولم يطيقوا أن يسكنوا جميعًا. فإن من المحال أن تضيق بهم الأرض، وهي أرض كنعان بسبب مواشيهم وأموالهم، وأين هذا من قوله: إنهم هبطوا إلى أرض مصر لاشتداد الأرض من الجوع مع قرب العهد.

وثالثها: كيف يحسن أن يقال فرفع لوط عينية أبصر أرض الأردن كلها أنها مساقي قبل أن يفسد الله سادوم(١) وعامورا كانت مثل فردوس الله، ومثل أرض مصر.

فإن ظاهر هذا اللفظ أن الأردن مشبهة للفردوس وأرض مصر.

ويلزم من تشبيهها لهما كونهما متقاربين في الحسن والطيبة.

ويلزم من هذا أن يكون الفردوس مكانًا من الأرض مثل مصر في الحسن وفساده بين بل يلزم من تقديم التشبيه بالفردوس على التشبيه بمصر أن تكون مصر أحسن من الفردوس، لأن التشبيه بالأعلى بعد التشبيه بالأدنى توقى في التشبيه والمدح أما التشبيه بالأدنى بعد التشبيه بالأعلى فلا وجه له أصلاً، فيزداد التشبيه فسادًا.

السؤال على القراءة الثالثة والعشرين

أنه كيف يحسن أن يقال: وإن الله قال لإبرام من بعد مفارقة لوطًا(٢) ارفع

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ [هود:٨٢-٨٣].

جاء أمر الله، فاقتلع جبرائيل عليه السلام بطرف جناحيه أماكن أولئك القوم من قراها ورفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها رأسًا على عقب، وهوي بها إلى الأرض، وحتى لايظل أثر منها وصرخ لوط بأهله محذرًا من الالتفات وأسرع يشدهم إلى الأمام منذرًا بسوء العذاب إن استدار أحد أو تطلع إلى الحدث الهائل، ولكن إرادة الله لا راد لها، ولابد أن يحيق الظلم بأهله، فامرأة لوط ظلمت زوجها، وخانته، فحانت ساعة ظلمها لنفسها،لم تأبه لما يحذر منه زوجها، أو ينهى عنه فلوت بعنقها إلى الوراء، وإذا بجسدها يهتدئ على الفور، ويتفتت ثم يذوب لقد أصابها حجرها الخاص بها فأحرق جسمها وأبلاه، لقد خرج لوط بأهله وأخذ امرأته معه لعلها تنجو ولكنها كانت من الغابرين. مختصرًا من مجمع البيان في قصة لوط عليه السلام.

(٢) كان لوط قد نزح عن محلة عمِّه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه، فنزله بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكانت أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من =

عينيك فانظر، من المكان الذي أنت فيه من الشمال والجنوب والمشرق والمغرب كل الأرض التي أنت تراها لك أعطيها،ولنسلك إلى الدهر، واجعل زرعك كرمل البحر إن قدر أحد أن يعد رمل البحر ستحصي نسلك، فإنه إذا جعل نسله بهذه الكثرة، فكيف تسعهم هذه الأرض التي يراها جميعها من مكانه وهي أرض كنعان.

فأين هذا من هذا مع أنه قد قال قبل هذا إنها ضاقت عن اثنين وهما إبرام ولوطا، فكيف يستعظمها الآن، ويجعلها بهذه الكثرة كلها فأين هذا من ذاك.

السؤال على القراءة الرابعة والعشرين

أنه كيف يحسن أن يقال ما معناه أن في السنة الرابعة عشرة جاء ملك عامورا والملوك الثلاثة الذين معه، فضربوا الجبابرة وهم أقوياء معهم والكنعانيين وغيرهم، وضربوا جميع روحي العمالقة ثم ذكره بعده أنهم كسروا ملك سدوم وعامورا. والملوك الثلاثة الذين معه لما يقاتلوا. الملوك التسعة بالوادي المالح الذي هو بحر الملح وأخذوا خيول سدوم وعامورا وأطعمتهم ولوطًا[1]. لأنه كان ساكنًا بسدوم.

ثم ذكر بعده أيضًا أن إبرام لما سمع بسبي لوط ابن أخيه هاران عدَّ غلمانه ثلاثمائة وثمانية عشر، فجرى خلفهم في الليل وضربهم وطردهم إلى كذا التي شمالي دمشق.

ورد لوط وجميع ما أخذوا فإن حاصله أن أربعة ملوك كسروا خمسة ملوك[2]

= أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]. البداية والنهاية (١/٢٠٠، ٢٠١).

(١) قال في البداية والنهاية (١/١٧٧): قالوا: ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً، فاستنقذ لوطا عليه السلام واسترجع أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقًا كثيرًا وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة، ثم رجع مؤيدًا منصورًا إلى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه.

(٢) ذكر في التوراة أسماء الأربعة والخمسة فقال: وحدث في أيام أمراحل ملك شنعار وأريوك ملك الأسار وكدرلعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم أن هؤلاء صنعوا حربا مع بارع ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشناب ملك أدمة وشمئيبر ملك صبوييم وملك بالع التي هي =

ونهبوا بلادهم بعد أن ضربوا الجبابرة والعمالقة.

ثم إن ابرام في ثلاثمائة وثمانية عشر من غلمانه تعد قوتهم إلى هذا الحد كسرهم وقيل جلد عامور والملوك الذين معه، ورد الغنائم منهم.

وهذا في غاية ما يكون من البعد إلا أن يعني بهؤلاء الملوك بعض رؤساء سدوم أو غيرها من قرى الغور. ويعني بالجبابرة والعمالقة سكان القرية المذكورة فربما تمشي القضية على أن غور زغر أقل من هذا كله. وفي نسخة جلد كدر لعمر بدل جلد عامور.

وفيها: فعبأ فتيانه أولاد بيته ثلاثمائة وثمانية عشر. وفيها إلى الحوبة التي هي شمالي دمشق بذي كوا.

السؤال على القراءة الخامسة والعشرين

أنه كيف يحسن أن يقال: إنه إنما هو إلهك الذي أخرجك من أرض الكلدانيين، أعطيك هذه الأرض لترثها[1]. فقال له: سيدي وولي كيف أعلم هذا أني أرثها.

فقال له: خذ عجلا ابن ثلاث سنين، ومعزى ابن ثلاث سنين، وكبشًا ابن ثلاث سنين، ويمامًا وحمامًا.

فأخذ هؤلاء كلهم فقسمهم نصفين، وجعل كل عضو يلاقي صاحبه، ولم يقسم

=

صوغر، جميع هؤلاء اجتمعوا متعاهدين إلى عمق السديم الذي هو بحر الملح، اثنتي عشرة سنة استعبدوا الكدر لعومر، والسنة الثالثة عشرة عصوا عليه، وفي السنة الرابعة عشر أتى كدر لعومر والملوك الذين معه وضربوا الرفائيين في عشتاروث قرنايم والذوزيين في هام والإيميين في شوي قريتايم، والحوريين في جبلهم سعير إلى بطمة فاران التي عند البرية ثم رجعوا وجاءوا إلى عين مشفاط التي هي قادش وضربوا كل بلاد العمالقة وأيضا الأموريين الساكنين في حصون تامار. فخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمة وملك صبوييم وملك بالع التي هي صوغر ونظموا حربا معهم في عمق السديم مع كدر لعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم وأمرافل ملك شنعار وأريوك ملك الأسار أربعة ملوك مع خمسة وعمق السديم كان فيه آبار حمر كثيرة، فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك والباقون هربوا إلى الجبل، فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع أطعمتهم ومضوا، وأخذوا لوطًا ابن أخي إبرام وأملاكه ومضوا، إذ كان ساكنًا في سدوم... إلى آخره.

(١) الصحيح ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الطير، وجعل الطير فوق الأجساد، وحركها إبرام فتحركت.

لأن قوله سبحانه أعطيك هذه الأرض لترثها صريح في أنه يعطيه إياها.

فقول إبرام بعد ذلك كيف أعلم هذا أني أرثها؟، لا وجه له، فإنه إذا لم يفده قول الله سبحانه مخاطبته شفاها العلم بذلك، ولأدرجه في الإعلام أبلغ منها. فأي كيفية إعلام يطلبها بعدها.

وأيضا فإن قوله خذ عجلاً ابن ثلاث سنين ومعزى إلى أن قال: فحركها إبرام فتحركت. كيف يحسن أن يكون جوابًا لقوله: كيف أعلم أني أرثها.

كان هذا دليل على قدرته على إحياء الموتى(١)، أما على أن إرث الأرض يحصل له فلا. اللهم أن يقال: إن قدرته على إحياء الموتى يستلزم قدرته على تحصيل إرث الأرض له.

ولكن إبرام لم يقل كيف أعلم أنك تقدر على هذا ولكن قال: كيف أعلم أني أرثها، أي كيف أعلم أن الإرث يقع، ووقوع المقدور مغاير للقدرة عليه وغير لازم لها. فجواب أحدهما غير جواب الآخر.

وأيضًا فقوله: فأخذ هؤلاء كلهم، فقسم نصفين يناقض قوله: ولم يقسم الطير(٢).

---

(١) جاء في تفسير ابن كثير (١/٣١٥) فيما ذكره في تفسير الآية المتقدمة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى﴾ ... الآية [البقرة: ٢٦٠] ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً منها أنه لما قال لمروذ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها إذ لو كان في ذلك مهم لنصَّ عليه القرآن فروي عن ابن عباس أنه قال: هي الغرنوق والطاووس الديك والحمامة، وعنه أيضا أنه أخذ وزًا ورألاً وهو فرخ النعام وديكا وطاووسًا وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامة وديكا وطاووسًا وغرابًا.

وقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي وقطعهن قاله ابن عباس وعكرمه وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلي ووهب بن منبه والحسن والسدي وغيرهم.

(٢) وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل

لا سيما بصيغة كلهم مع أن الطير كان اللائق به أن يقسم أكثر من قسمين لكونه أقرب بما معه إلى التحرك أما أنه لا يقسم بالكلية مع قسم ما معه. فلا وجه له، وأيضا فإن تنويع هذه الأنواع وتقييدها بهذا السن الواحد، لا يكاد يظهر له خصوصية أصلا فإن إظهار القدرة بتحريكها يحصل بأي نوع كان، وبأي سن كان.

وأما ما ذكره عقيبه وهو قوله: ولما كان عند مغيب الشمس وقع على إبرام سكوت وكأن خوف وظلمة كثيرة سقطت عليه.

وقيل لإبرام اعلم أن زرعك سيكون في أرض غريبة، ويستعبدونهم ويضربونهم ويزلونهم أربعمائة سنة..... إلى آخر القراءة.

فإنه كلام لا يظهر له انتظام مع أن إبرام يتوجه له أن يقول أيضًا: كيف أعلم أن زرعي سيكون في أرض غريبة، كما سأل أولاً.

السؤال على القراءة السادسة والعشرين

من وجوه أربعة:

أحدها: أنه كيف يحسن أن يقال في ذلك اليوم: أقام الله عهده مع إبرام[1]،

= جبل منهن جزءًا فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءًا، قيل: أربعة أجبل، وقيل سبعة.

قال ابن عباس: وأخذ رءوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها على بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته، ولهذا قال: ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء وما شاء كان بلا ممانع لأنه القاهر لكل شيء حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. تفسير ابن كثير (٣١٥/١).

(١) حطَّ إبراهيم رحاله في أرض فلسطين حيث أقام في مستقره مع زوجه سارة وخادمتها هاجر تحيط بهم نعمة من الله الكريم وأمان، لكن هيهات لنفس مؤمنة أن تحس راحة كاملة وفيها بعض مشاعر القلق والتنغيص، فسارة كانت امرأة عقيمًا لا تنجب أولادا، ويحز في نفسها ويؤلمها كثيرًا أن ترى بعلها الذي أَحبته من أعماقها محروما من الخلفة فأشارت عليه أن يتزوج أمتها هاجر، وتم اقترانه بهاجر فأنجبت غلامًا زكيا سماه أبوه إسماعيل انظر مجمع البيان الحديث =

وقال له: إني معطي خلفك من هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الأكبر نهر الفرات.

فإن قوله في ذلك اليوم أقام الله عهده، ظاهره أن العهد إنما حصل في ذلك اليوم مع أنه حصل قبله بمدة، وفي اليوم الذي قبله أيضا قبل مغيب الشمس كما صرح به في القراءة الخامسة والعشرين فتناقضا.

وأيضًا فإنه قال في القراءة الثالثة والعشرين أنه يعطيه له ونسله الأرض التي يراها من مكانه من الشمال والجنوب والمشرق والمغرب وهو لايمكن أن يرى من نهر مصر إلى الفرات فتخالفا.

وثانيها: كيف يحسن أن يقال: ووجدها ملك الرب على عين الماء في طريق شور فقال لها ملك الرب: يا هاجر[1]، ثم قال عقيبه فدعت هاجر اسم الرب الذي تكلم معها. فإنه أخبرها بأن الذي تكلم معها هو ملك الرب. وذكره خمس مرات، ثم أخبر بأنه الرب. فدعت هاجر اسم الرب الذي تكلم معها وقالت: أنت الله الذي نظر إلي، فتناقضا.

وثالثها: كيف يحسن أن يقال عقيبه فقالت أنت الله الذي نظر إلي، ولم ينكر

=

قصة إبراهيم عليه السلام.

(١) لما أوحى الله لإبراهيم وحمل طفله وأمه وارتحل يسير على هدى الله، وظل إبراهيم عليه السلام يقطع الفلوات حتى وصل إلى مكان مقفر وفي واد أجرد تظله الجبال وتحف به التلال. فشعر بأن قوته تشده إلى هذا المكان، فنزل إبراهيم وأنزل هاجر وإسماعيل ثم أقام لهما خيمة في ظل الصخور على جانب تلة من تلك التلال وبعد أن أمن لهما المقام استودعهما الله، محاولاً الرجوع فأمسكت به هاجر، وهي ترفع صوتها شاكية وباكية وهي تقول: أين ترحل يا إبراهيم وتتركنا؟ وهدأ إبراهيم من روع زوجه حتى استكانت هاجر بعض الشيء، فطلب إليها أن تكف عن أذى نفسها فقال لها: إنه أمر من الله يا امرأة وهو ما شاء سبحانه لكما وهو سبحانه الذي أمرني أن أضعكما في هذا المكان، فارتدت هاجر إلى نفسها وهي تسمع كلام نبي الله خاشعة مستسلمة لما يحكم به الله تعالى، وانصرفت إلى ابنها ومرت الأيام ونفد الطعام والماء، وجفَّ حليبها بعدما لاكها الجوع وأيبس العطش نضارة جسمها، فلاح لها عن بعد بريق عند الصفا فاندفعت نحوه ولكنها لم تجد الماء، ثم تراءى لها كأن ماء في ناحية ثانية عند المروة فركضت إليه لتجده سرابًا فراحت تهرول وتسعى بين الصفا والمروة حتى قطعت سبعة أشواط وهذا هو أصل السعي الذي يقوم به الحجيج كل عام وأنه أحد المناسك الواجبة لاكتمال فريضة الحج. انظر المرجع السابق.

عليها في قولها: أنت الله. مع أن الذي كلمها هو ملك الرب كما ذكره أولاً بل ولم يعرفها خطأها لترجع عنه. بل حكي عنا أيضًا مثله بقوله: لأنها قالت إني رأيته ظهر قدامي مع أن لام التعليل في قوله: لأنا، لا وجه لها أصلاً.

ورابعها: كيف يحسن أن يقال: وقال لها ملك الرب بالكثرة، أكثر زرعك، ولا يحصى من كثرته والامتنان عليها، وعلى إبرام بكثرة النسل(١).

قد تكرر فيما مضى، وفيما يأتي مرارًا متعددة مع أنه لا اختصاص لهما بكثرة النسل(٢)، بل كل من فوقها وتحتها من الآباء كذلك فتخصيصها بالامتنان عليهما، وتكرير الامتنان لا وجه له.

السؤال على القراءة السابعة والعشرين

من وجوه أربعة: أحدها: كيف يحسن أن يقال فاستعلى الله لإبرام وقال له: أنا

---

(١) ولد لإبراهيم بعد إسماعيل بأربع عشر سنة ولده إسحاق قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣].

(٢) ابنها هو الذبيح وقد وردت الآثار بأنه إسماعيل عليه السلام فقال ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه قال المفدي إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود.

وقال ابن إسحاق سمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنّا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من النبي إبراهيم قال الله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢] ويقول الله تعالى ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديًا فأسلم وحَسُنَ إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر: أي ابني إبراهيم أُمِرَ بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين إن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان وكل قد كان ظاهرًا طيبًا مطيعًا لله عز وجل. تفسير ابن كثير (١٨/٤).

هو إلهك كن مرضيًا أمامي، ولا يكون فيك عيب.

واجعل عهدي بيني وبينك،وأكثرك جدًّا فخر إبرام على وجهه، فكلمه الله قائلا: هوذا اجعل عهدي معك، وتكون أبا لأمم كثيرة ولا يدعى اسمك بعد إبرام ولكن إبراهيم.

أما أولاً: فلأن اليهود والنصارى يسلمون أن كليم الرحمن من خواص موسى[(١)].

وأما ثانيًا: فلأن هذه مشارطة بينهما شفاها وما هذه مكررة مرة بعد مرة واللائق بالأمر الإلهي النفوذ المطلق، لا المعاهدة كما بين الشخصين المتكافئين.

وأما ثالثًا: فلأن هذه المعاهدة تكررت في هذا الفصل، وفي غيره إلى أن سجت على السمع.

وأما رابعًا: فلأن الامتنان عليه بتغير اسمه ليس فيه طائل.

وكذلك الامتنان بتغير اسم سراي سارة وفي نسخة: إني أنا أرشد أي عوض أنا هو إلهك.

وثانيها: أنه قال: كل ذكر لكم يختن[(٢)]، وتختنون لحم قلفتكم إلى أن قال:

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، هذا تشريف لموسى عليه السلام، وقد روى ابن مردويه بسنده عن أبي بكر بن عياش أنه سمع رجلاً يقرأ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، ثم قال: وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام، أو يكلم أحدًا من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ فقال له يابن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل. (تفسير ابن كثير ١/٥٨٨).

(٢) قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: ابتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد: في الرأس: قص الشارب والمضمضة والسواك والاستنشاق وفرق الرأس وفي الجسد: تقليم الأظافر وحلق العانة والختان، ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء» وروى البخاري في صحيحه (٥٨٨٨)، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « الفطرة خمس: الختان، والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط».

والأقلف الذي لا يختن لحم قلفته تمحق تلك النفس من (جلسها)[١] أنها نسخت عهدي. مع أنَّ النصارى المعتمدين في أحكامهم على التوراة لا يقولون بالختان[٢]، فإن قالوا إن بطرس نسخه بالمعمودية، قلنا: فإن أجزتم النسخ فلا تستبعدوا نسخ الشريعة المحمدية لشريعتكم[٣].

وثالثها: كيف يحسن أن يقال: وقال في قلبه قد يكون هذا لمن صار له مائة سنة، وسارة تسعين سنة أن تلد مع أن أهل ذلك الجيل يلدون لأكبر من هذا السن، ويعيشون أكثر من هذا العمر، فإن أباه تارخ عاش مائتين وخمسين سنة. فالمائة أقل من نصف عمره، فلم يصل إبراهيم عليه السلام إلى حد ينقطع فيه نسل مثله. فإن قيل: تعجبه إنما كان لكون زوجته كانت عاقرًا. قلنا: هذا خلاف ظاهر هذا الكلام.

ورابعها: كيف يحسن أن يقال: فلما فرغ الله من خطابه عنه فصعد الله عنه مع أن الله سبحانه وتعالى منزه عن الصعود والهبوط[٤] في هذا الحال بالاتفاق منّا ومن

---

(١) كذا بالأصل وفي النسخة التي بين أيدينا من سعبها أنها نكثت عهدي.

(٢) قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ....﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن كثير: أما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حرامًا ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس وخفيفًا فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ثم قال ابن كثير بعد ذلك: لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدًا ﷺ الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة وجعله خاتم الأنبياء كلهم. (تفسير ابن كثير ٢/٦٨).

(٣) قال النووي: الختان واجب عند الشافعي، وكثير من العلماء، وسنة عند مالك وأكثر العلماء، وهو عند الشافعي واجب على الرجال والنساء جميعًا، ثم إن الواجب في الرجل أن يقطع جميع الجلدة التي تغطي الحشفة حتى ينكشف جميع الحشفة، وفي المرأة يجب قطع أدنى جزء من الجلدة التي في أعلى الفرج، والصحيح من مذهبنا الذي عليه جمهور أصحابنا أن الختان جائز في حال الصغر ليس بواجب، ولنا وجه أنه يجب على الولي أن يختن الصغير قبل بلوغه، ووجه أنه يحرم ختانه قبل عشر سنين، وإذا قلنا بالصحيح استحب أن يختن في اليوم السابع من ولادته وهل يحسب يوم الولادة من السبع أم تكون سبعة سواه فيه وجهان أظهرهما يحسب. (النووي في شرح مسلم ٣/١٢٦) طبعة دار الكتب العلمية.

(٤) روى مسلم في صحيحه [١٦٨- (٧٥٨)] كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ٢٤- باب =

اليهود والنصارى أما عندنا فظاهر.

وأما عند اليهود فإنهم وإن قالوا بجواز تجسده سبحانه في بدن عيسى عليه السلام، لكنه عندهم إلى الآن لم يقع ذلك.

وأما عند النصارى[١] فلأنهم، وإن قالوا بتجسد الابن في بدن عيسى عند وجود البدن، فلا يقولون بتجسده قبل وجود عيسى، فضلاً عن تجسد الله تعالى[٢].

وفي نسخة: فلما تم قوله مع إبراهيم ارتفع (مستعلان)[٣] الرب عن إبراهيم (عوض)[٤] فصعد الله عنه، وهذا كلام خال من الفائدة بالكلية، ولنقتصر من الآن على إيراد بعض ما تحتمله لفظ التوراة من الأسئلة حذرًا من التطويل.

=

الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر» وقال النووي: هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان مشهوران للعلماء... وسبق نقلهما وملخصه أحدهما: الإيمان بأنها حقٌّ مع الاعتقاد بتنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق وعن الانتقال والحركات. والثاني: تتأول على ما يليق بها بحسب مواطنها تأويلين فعن مالك بن أنس وغيره قال: معناه تنزل رحمته وأمره وملائكته كما يقال فعل السلطان كذا إذا فعله أتباعه بأمره، والثاني أنه على الاستعارة ومعناه الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف والله أعلم. (النووي في شرح مسلم ٦/٣٣)، طبعة دار الكتب العلمية.

(١) ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه بل غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقًا أو باطلاً أو ضلالاً أو رشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا ولهذا قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] (ابن كثير في تفسيره ١/٥٨٩).

(٢) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

(٣) كذا بالأصل.

(٤) كذا بالأصل.

السؤال على القراءة الثامنة والعشرين

كيف يحسن أن يقال: وظهر الله لإبراهيم عند شجرة حمراء وهو جالس عند باب خبائه وقت الظهر وتطلع إبراهيم بعينه نظر فإذا ثلاثة رجال كانوا قياما فوقًا منه، فإنه سبحانه وتعالى منزه عن ظهوره للناظر[١] في صورة رجل من جملة ثلاثة رجال أتوا في ضيافة إبراهيم من غير أن يستدعيهم لضيافته. بل هذا أمر لا يرضاه لنفسه بعض البشر فضلاً عن إله العالم. ولا سيما وقد كلمه بقوله بعد ذلك فوضعوه لهم، فأكلوا فإنه لا أجهل ممن يعتقد أن إله العالم يأكل مع أن الملكين لا يأكلان باتفاق العقلاء.

السؤال على القراءة التاسعة والعشرين

كيف يحسن أن يقال: قال الرب إن صراخ سدوم وعامور[٢] قد كثر عندي

---

(١) مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضًا على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين، وزعمت طائفة من أهل البدع المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً، وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين ورواها نحو من عشرين صحابيًا عن رسول الله ﷺ وآيات القرآن فيها مشهورة واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبة مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة، وأما رؤية الله تعالى في الدنيا فقط قدمنا أنها ممكنة ولكن الجمهور من السلف والخلف من المتكلمين وغيرهم أنها لا تقع في الدنيا، ونقل عن أبي الحسن الأشعري قولين أحدهما وقوعها، والثاني: لا تقع ثم مذهب أهل الحق أن الرؤية قوة، يجعلها الله تعالى في خلقه ولا يشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك لكن جرت العادة في رؤية بعضنا بعضًا بوجود ذلك على جهة الاتفاق لا على سبيل الاشتراط وقد قرر أئمتنا المتكلمون ذلك بدلائله الجلية ولا يلزم من رؤية الله تعالى إثبات جهة تعالى عن ذلك بل يراه المؤمنون لا في جهة كما يعلمونه والله أعلم. شرح مسلم للنووي (١٥/٣).

(٢) لما دعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضي الإخراج وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج وتركهم في محلتهم خالدين لكن بعدما صيرها عليهم بحيرة =

وخطاياهم عظيمة. انزل وانظر إن كان لصياحهم الآتي هل يفعلون، فاعلم ذلك أم لا.

فإنه سبحانه منزه عن أن يستعلم شيئًا بل هو عالم بكل شيء من الزل قبل وجوده. وأيضًا فقوله بعد ذلك حاشا لك يا ديان كل الأرض أن تقضي بهذا القضاء. لا يحسن لأن مثل هذا الكلام لا يقال إلا لجاهل يفعل ما لا يليق، فيتلطف به بحسن عبارة ليرجع عن خطئه.

السؤال على القراءة الثلاثين

كيف يحسن أن يقال: فصنع لهما سرعًا[1] وفطيرًا، خبزه لهما فأكلا مع أن الملائكة[2] لا يأكلون باتفاق العقلاء لأنهم أرواح مجردة عن الأبدان المتفنية.

السؤال على القراءة الحادية والثلاثين

كيف يحسن أن يقال: وقالت الكبرى للصغرى[3] أبونا قد شاخ وليس أحد على وجه الأرض يدخل علينا كالرسوم لكل الأرض.

فلنسق أبانا خمرًا ونتضجع معه، ونقيم نسلاً من أبينا، ثم عقبه بما معناه أن الكبرى سقته وضاجعته، فأحبلها بموآب. وفي الليلة التالية سقته الصغرى وضاجعته

= منتنة ذات أمواج لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى التي لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحيون من مجالسيهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ولا يرعون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل. (البداية والنهاية ١/٢٠٣).

(١) كذا بالأصل وفي التوراة التي بين أيدينا «ضيافة»

(٢) روى مسلم في صحيحه [٦٠-(٢٩٩٦)] كتاب الزهد والرقائق، ١٠- باب في أحاديث متفرقة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»

(٣) قال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوا نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم فلقوا ابنة لوط تستقي الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريتا، والصغرى ذعرتا، فقالوا لها: يا جارية هل من منزل؟ فقالت لهم: مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم من قومها فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم.. إلى آخره. (البداية والنهاية ١/٢٠٤).

فأحبلها بعمان، ولم يعلم بمضاجعتهما. فإن هذا لا يظن بلوط ﷺ، يسكر بحيث يغيب عقله إلى هذا الحد، وأن يزني بابنتيه ويحبلهما بولدي زنا(١). بل لو وقع هذا لبعض آحاد أناس لما وسعته الأرض بعد ذلك خزيًا وهمًا، بل لو فعله غلامه لما أمكنه أن يراه بعد ذلك أصلاً. فضلاً أن يقيم عذره بعدم علمه.

السؤال على القراءة الثانية والثلاثين

كيف يحسن أن يقال: والتجأ في (الحلوص)(٢)، انتقل إبراهيم من هناك إلى أرض غربية وسكن بين راقيم وبين الجفار، وقال إبراهيم عن سارة امرأته إنها أختي(٣) لأنه خاف أن يقول إنها امرأته لئلا يقتله رجال المدينة من أجلها لأنه كذاب(٤)، وإبراهيم

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٨-٧٩] قال ابن كثير: أي يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعًا لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد كما ورد في الحديث وكما قال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] وفي قول بعض الصحابة والسلف وهو أبٌ لهم. فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٩] أي يقولون عليهم لعائن الله: لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نسائنا وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا. (البداية والنهاية ١/٢٠٥).

(٢) كذا بالأصل.

(٣) قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن حفص عن ورقاء هو ابن عمر اليشكري عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات قوله حين دعي الى آلهتهم ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾، وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾، وقوله لسارة إنها أختي... الحديث بطوله. وقد تقدم في البخاري (٢٢٥٨)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وذكرناه بلفظه.

(٤) اختلفوا في الكذب المباح ما هو فقالت طائفة هو على إطلاقه وأجازوا قول ما لم يكن في هذه المواضع للمصلحة وقالوا الكذب المذموم ما فيه مضرة واحتجوا بقول إبراهيم ﷺ، بل فعله كبيرهم وإني سقيم وقوله إنها أختي وقول منادي يوسف ﷺ: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ [يوسف: ٧٠]، قالوا ولا خلاف أنه لو قصد ظالم قتل رجل هو عنده مختف وجب عليه الكذب في أنه لا يعلم أين هو، وقال آخرون منهم الطبري لا يجوز الكذب في شيء أصلاً قالوا: وما جاء من الإباحة في هذا المراد به التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب =

نبي كما ذكره عقيبه، والأنبياء معصومون عن الكذب وأيضًا فهو كذب يسهل أخذها على ظالم يزني بها لمجرد خوف وهمي لا مستند له. فإنه إذا كان هكذا يعطيها لمن يأخذها من غير مقابلة، لم يقتله أحد، وقد تقدم مثله. وأيضًا فإن أرض فلسطين قريبة من مسكنه التي هي أرض كنعان ليست بغريبة والخائف فيها يكون خائفًا بأرض كنعان أيضًا على أنها إذا كانت مخوفة إلى هذا الحد وحدها فلا وجه لانتقاله إليها.

وأيضًا فقوله عقيبه فجاء الله إلى أبيمالاك في الحلم بالليل، وقال له: هو ذا أنت تموت من أجل المرأة التي أخذتها، لأنها ذات بعل[1]، كلام لا يحسن فإن الله لا يجيء في النوم بل يريه في الحلم كما يرى سائر الناس المنامات، وفي نسخة: أتى الله. وأيضًا فقوله وهي بالحقيقة أختي من أبي ليست من أمي صارت لي امرأة. كلام عجيب، فإنها

مثل أن يعد زوجته أن يحسن إليها ويكسوها، كذا وينوي إن قدر الله ذلك وحاصله أن يأتي بكلمات محتملة يفهم المخاطب منها ما يطيب قلبه، وإذا سعى في الإصلاح نقل عن هؤلاء إلى هؤلاء كلاما جميلاً ومن هؤلاء إلى هؤلاء كذلك ووري وكذا في الحرب بأن يقول لعدوه مات إمامكم الأعظم وينوي إمامهم في الأزمان الماضية أو غدًا يأتينا مدد أي طعام ونحوه، هذا من المعاريض المباحة فكل هذا جائز وناولوا قصة إبراهيم ويوسف وما جاء من هذا على المعاريض والله أعلم، وأما كذبه لزوجته وكذبها له فالمراد به في إظهار الود والوعيد بما لا يلزم ونحو ذلك فأما المخادعة في منع ما عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أو لها فهو حرام بإجماع المسلمين والله أعلم. (النووي في شرح مسلم ١٦/١٣٠)، طبعة دار الكتب العلمية.

(١) أراد إبراهيم أن يوجد عذرًا يثني به هذا الملك المعتدي عن مرامه وخاف أن يجهر بأن سارة زوجه، لئلا يكون في ذلك خطر على حياته إذ تسول للملك نفسه الإقدام على قتله للتخلص منه، ولئن استعمل إبراهيم عليه السلام التورية فليس ما يعيبه قولا ولا فكرًا لأنه لم ينطق إلا بالحق، فالأخت تكون في الدين كما تكون في النسب، ولكن أنى لملك ظالم أن يعلم ما يبطن إبراهيم، وأمره بالانصراف فرفع ناظريه إلى الله بالدعاء: «اللهم هذه أمتك وزوجة خليلك فاصرف عنها السوء واحفظها برعايتك وارحمني وإياها يا أرحم الراحمين».

ودخل الملك مخدعها ولكنه ما أن قارب يده نحوها حتى أحس ألمًا في قلبه واضطرابًا في كيانه وهلع من فرط ما ألم به فارتمى على أريكة بجانبها، وحاول الكرة والدنو منها فعاودته حالة التمزق والتفسخ والانهيار وتكررت المأساة مرات عديدة ولاذ بالفرار وهرب يلتجئ إلى فراشه وهو يغط في نوم عميق وتراءت له في المنام حقيقة سارة وبعلها إبراهيم، فهب مذعورًا ونادى حراسه آتوني بتلك المرأة وقال لها: لا خوف عليك ولا حزن يا زوج إبراهيم أنت وزوجك في ديارنا على رحب وسعة، وهبها هاجر زيادة في التكريم والتقدير. (مختصرًا من قصص الأنبياء في القرآن الكريم المختار من مجمع البيان الحديث في قصه إبراهيم عليه السلام).

ليست بنت تاخ أبي إبراهيم فإن أراد أنها بنت آدم، فهي أيضًا بنت (خوى)[١] وتكون أخته من أمه أيضًا.

وأيضًا فقوله: فلما أبصرت سارة ابن هاجر المصرية يلعب مع إسحاق ابنها قالت لإبراهيم أخرج هذه العبدة وابنها[٢]، لأن ابن هذه لايرث مع إسحاق ابني.

كيف يحسن وهو تحكم في حكم شرعي، وهو الإرث وليس لها ذلك، وقطيعة رحم، وهو طرد ابنه وزوجته وهو غير لائق بالعقلاء لا سيما وقد عقبه بقوله حكاية عن الله سبحانه اسمع منها، وهذا مما لا يليق بمحاسن الشريعة أن يأتي بمثله، بل يحث على عدمه.

السؤال على القراءة الثالثة والثلاثين

قوله فدعاه ملك من السماء، وقال: إبراهيم إبراهيم وهو قال: هو ذا أنا، قال: لا تضع يدك على الصبي، ولا تصنع به شيئًا من الشر[٣]، لأني قد علمت الآن أنك

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) في قصة خروج إبراهيم بإسماعيل وأمه ووضعهما عند المسجد الحرام تأتي قريبًا في التخريج، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/٢١٧)، ذكر علماء النسب وأيام الناس أنه أول من ركب الخيل وكانت قبل ذلك وحوشًا فأنسها وركبها وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد تعلمها من العارب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل. ودفن إسماعيل نبي الله بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعًا وثلاثين سنة.

(٣) من قال إن الذبيح هو إسحاق فإنما تلقاه من نقلة بني إسرائيل الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر، وفي رواية الوحيد وأيًّا ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل ففي نص كتابهم أن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، وإنما ولد إسحاق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل فإسماعيل هو البكر لا محالة وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة، أما في الصورة فلأنه كان وحده ولده أزيد من ثلاثة عشر سنة وأما أنه وحيد في المعنى فإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر وكان صغيرًا رضيعًا فيما قيل فوضعهما في وهاد جبال فاران وهي الجبال التي حول مكة لعم المقيل وتركهما هناك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل وذلك ثقة بالله وتوكلا عليه، فحاطهما الله تعالى بعنايته وكفايته فنعم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل فهو هو الولد الوحيد في الصورة والمعنى ولكن أين من يتفطن لهذا السر؟ وأين من يحل بهذا المحل؟ والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل، وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب مع ما كان يدعو إليه من =

خائف الله أنت، ولم تشفق على ابنك الحبيب من أجلي. كيف يحسن هذا الكلام وأوله وأوسطه يقتضيان أن المخاطب هو ملك، وآخره يقتضي أن المخاطب هو الله تعالى.

السؤال على القراءة الرابعة والثلاثين

كيف يحسن أن يقال: وأتى إبراهيم ليندب سارة وينوح عليها، فإن الندب والنياحة[1] لا تليق بفحولة الرجال، فضلاً عن الأنبياء.

مع أن على ما فيها من التطويل والتكرار فحاصلها سار إبراهيم للقرية المكفيلة[2] التي قدام ممر القرية المسماة حبرون من أرض كنعان، ودفن سارة في قبرها المكفيلة حين كانت، وعمرها مائة وسبعة وعشرين سنة.

السؤال على القراءة الخامسة والثلاثين

كيف يحسن أن يقال: فقال إبراهيم لغلامه كبير بيته المستولى على ماله ضع يدك على وركي لأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض إنك لا تزوج ابني[3] من بنات الكنعانيين الذي أنا مقيم بينهم، بل تمضي إلى أرضي ومولدي وقبيلتي وتأخذ

=

عبادة ربِّ الأرباب قال تعالى﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٢]، البداية والنهاية (١/٢١٦، ٢١٧).

(١) روى مسلم في صحيحه [٢٩-(٩٣٤)] كتاب الجنائز، ١٠-باب التشديد في النياحة، عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم، والنياحة» وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب.

(٢) بالأصل مصاعقة وأثبتناه من النسخة التي بين أيدينا.

(٣) هو إسحاق عليه السلام والذي كان مولده بشارة من الله تعالى قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٦٩-٧٣].

لابني امرأة من هناك.

لأن التحليف لا يحسن: إما أولاً: فلأن يحلف مثل غلامه هذا على تزويج ابنه بامرأة من قبيلته وأرضه ليست من الكنعانيين، لا وجه له بل بامرأة فقط(١).

وأما ثانيًا: فلأنه مساعد على ذلك بالعناية الإلهية، كما ذكره عقيبه إذ أنه يبعث ملاكه قدامه، ويأخذ لابنه امرأة(٢) من هناك فلا وجه لتحليفه.

وأما ثالثًا: فلأن ابنه عنده، وبمعاشرته يحصل تزويجه، ولا يكاد يخفى عنه هذا الأمر فلا وجه لتحليفه.

وأما رابعًا: فلأن وضع يده على ورك إبراهيم في تحليفه لا وجه له.

وأما قوله: هو ذا أنا قائم على بئر الماء، وبنات سكان المدينة يخرجون ليسقين الماء، فتكون العذراء التي أقول لها أميلي جرتك لكي أشرب، فتقول: اشرب أنت، وأنا أسقي جمالك حتى يشربوا كلهم، هذه التي عينتها لغلامك إسحاق، فهذا عمل بطريق مستقل في طلب زوجة لإسحاق مخالف لوصية إبراهيم. ومن طريق متحير في أمره غير عارف بمن يطلبه من النساء، وإنما كان سبيله أن يسأل عن قبيلة إبراهيم ويخطب من يختارها منها.

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٢١٩/١)، ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج رفقا بنت بتواييل في حياة أبيه كان عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقرًا فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أولهما: سموه عيصو وهو الذي تسميه العرب العيص وهو والد الروم، والثاني: خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل قالوا: وكان إسحاق يحب العيصو أكثر من يعقوب لأنه بكره وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر.

(٢) قال في البداية والنهاية (١٩٩/١): ذكر ابن جرير في تاريخه في سياق كلامه على خليل الله في مولده وحياته قال: فلما أهلك الله نمرود على يديه وهاجر إلى حران ثم إلى أرض الشام وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا وولد له إسماعيل وإسحاق وماتت سارة قبله بقرية حبرون التي في أرض كنعان ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ورثاها رحمها الله واشترى من رجل من بني حيث يقال له: عفرون بن صخر مغارة بأربع مائة مثقال، ودفن بها سارة هنالك. قالوا: ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحاق فزوجه رفقا بنت بتوئيل بن ناحور بن تارخ، وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل قالوا: ثم تزوج إبراهيم عليه السلام قنطورا فولدت له زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولا قنطور.

السؤال على القراءة السادسة والثلاثين

أنه قال: ثم عاد إبراهيم واتخذ امرأة اسمها قطور[١] فولد له زمران، ويقسان، ومادان، ومديان وسياق وشوح.

فأين هذا من قوله في القراءة السابعة والثلاثين وقال في قلبه هل يكون هذا من قد صار له مائة سنة، وسارة تسعين سنة أن يلد؟[٢].

مع أنه إنما ولد هذه الجماعة بعد أربعين سنة أخرى، لأن إبراهيم إنما زوج إسحاق بعد أن صار عمره أربعين سنة، كما ذكره في أول القراءة السابعة والثلاثين. تزوج هو بعد إسحاق كما هو ظاهر هذه القراءة فدل على أن ذلك الاستبعاد إنما كان وهمًا مجردًا لا أصل له أقامه في مقابلة وعد الله تعالى على أن الرجل وإن طعن في السن لا ينقطع نسله بالكبر[٣]. مع أنه هو لم يصل في السن إلى أواخر عمره لأنه عاش بعد ذلك خمسة وسبعين سنة لأن عمره مائة وخمسة وسبعون سنة كما ذكره هنا.

ولم يكن في ذلك الوقت لحق نصف عمر أبيه تارخ، لأن عمره مائتان وخمس

---

(١) أول من ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر القبطية المصرية، ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل، ثم تزوج بعدها قنطورًا بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة: مدين وزمران وسرج يقشان ونشق ولم يسم السادس، ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين فولدت له خمسة: كيسان وسورج وأميم ولوطان، ونافس، هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والإعلام. (البداية والنهاية ١/٢٠٠).

(٢) قال أبو حاتم بن حبان في صحيحه بسنده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق عكرمة بن إبراهيم وذكر سنده إلى أبي هريرة موقوفًا. ثم قال ابن حبان: ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم وذكر بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اختتن إبراهيم حين بلغ مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة».قلت -أي ابن كثير- الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة وفي رواية: وهو ابن ثمانين سنة وليس فيهما تعارض لما عاش بعد ذلك والله أعلم. (البداية والنهاية ١/١٩٩).

(٣) قال مالك عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: كان إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول الناس اختتن وأول الناس قصَّ شاربه، وأول الناس رأى الشيب، فقال: يارب ما هذا؟ فقال الله: وقار فقال: يارب زدني وقارًا، وزاد غيرهما وأول من قص شاربه، وأول من استحد، وأول من لبس السراويل. فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليهما السلام ببلد حبرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم. (البداية والنهاية ١/ ٢٠٠).

سنين، فبالنظر إلى ابنه هو شاب.

السؤال على القراءة السابعة والثلاثين

كيف يحسن أن يقال: ومضت لتستخير الرب فقال له الرب: إنك حبلى بأمتين[(١)]، فإن رفقا زوجة إسحاق ليست أهلاً أن تخاطب الله سبحانه، ولا أن يخاطبها بالاتفاق.

لقد هزلت حتى بدى من هزالها كلاها وحتى استامها كل مفلس

وأيضًا فإن قوله: ومضيت أستخير الرب شعر مع ذلك أنه سبحانه في مكان تمضي إليه سبحانه وتعالى لتستخيره فيه.

وأيضًا: فكيف يحسن أن يقال: فسأله رجال ذلك الموضع من أجل رفقا امرأته فقال: هي أختي لأنه خاف أن يقول إنها امرأتي لئلا يقتلوه، فإنه لا يليق به، وقد تقدم مثله لإبراهيم مع هذا الملك أنه الأخ، وبسطنا القول فيه[(٢)].

السؤال على القراءة الثامنة والثلاثين

كيف يحسن أن يقال: قال يعقوب لأبيه[(٣)] أنا عيسو بكرك، هو ذا قد عملت

---

(١) هما العيص ويعقوب، وكان العيص هو البكر قالوا: فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعامًا وأمره أن يذهب فيصطاد له صيدًا ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له، وكان العيص صاحب صيد فذهب يبتغي ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعاما كما اشتهاه أبوه ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له قامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعه وعنقه من جلد الجديين لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك فلما جاء به وقربه إليه قال: من أنت؟ قال: ولدك فضمه إليه وجسه وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب، وأما الجس والثياب فالعيص فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدرًا وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده وأن يكثر رزقه وولده.
فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه إليه فقال له: ما هذا يا بني قال: هذا الطعام الذي اشتهيته فقال: أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا والله وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك فوجد في نفسه عليه وجدًا كثيرًا. (انظر البداية والنهاية ٢١٩/١).

(٢) انظر ما تقدم في صحيح مسلم وشرح النووي وقد ذكرناه من قبل في تخريجاتنا.

(٣) قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، جاء الملائكة فقالوا: إنا نبشرك بغلام عليم وذهل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ =

الذين كلمتني به، قم اجلس كل من صيدي لكي تباركني نفسك، فإن هذا أمر لا ينطلي ولا تمشي على عاقل كيف يشبه على إسحاق أحد ابنيه بآخر وأما ليس يعقوب خلفه عيسو، وربط جلود المعز على يديه وعنقه.

فهب أن هذا يخفى عليه لعمائه، ولكنه لا يخفى عليه صوته أصلاً. وهذا أمر معلوم بضرورة العقل. وأيضًا فالصلاح وولاية الله والنبوة لا تنال بالمحال. وأيضًا: فما له من الرتبة أن يظهر له الرب ويكلمه ويستجيب دعاءه، يخفى عليه هذا الأمر الظاهر، أين هذا من هذا.

السؤال على القراءة التاسعة والثلاثين

كيف يحسن أن يقال: قال عيسو في قلبه: قربت أيام موت أبي لكي أقتل أخي يعقوب[1]، وبلغ رفقا كلام عيسو، لأن كلامه في قلبه لا يبلغ إليها، ولايعلمه إلا الله

تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٥-٥٦]، قالوا: ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ وكانت امرأته قائمة على عملها، فأقبلت في صرة فصكت وجهها- أي في حركة من الضجة والصياح، فضربت بيدها على جبينها من شدة التعجب وقالت: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود: ٧٢]، قالوا: ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ وحيال أمر ربها الحكيم العليم اقتنعت سارة وأسعدتها البشرى، فضحكت وقد غمر قلبها السرور، وكان فرح زوجها إبراهيم عليه السلام لا يقل عن فرحها فشكرا ربهما على هذه النعمة الكبيرة. (انظر قصص الأنبياء في القرآن الكريم المختار من مجمع البيان الحديث قصة إبراهيم عليه السلام).

(١) لما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها لابان الذي بأرض حران، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه، وأن يتزوج من بناته، وقالت لزوجها إسحاق: أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل، فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم، فأدركه المساء في موضع فنام فيه وأخذ حجرًا فوضعه تحت رأسه ونام فرأى في نومه ذلك معراجًا منصوبًا من السماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له: إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك، فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالمًا ليبنين في هذا الموضع معبدًا لله عز وجل وأنّ جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره، ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنا يتعرفه به وسمي ذلك الموضع بيت إيل أي بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك. (البداية والنهاية ١/٢١٩).

تعالى، أما لو قيل فقال عيسو لأحد، فربما بلغها وكيف يحسن أن يقال: فاستيقظ يعقوب من نومه، وقال الرب ههنا أنا، ولم أكن أعلم، فإن الرؤيا تحصل في كل موضع.

السؤال على القراءة الأربعين

كيف يحسن أن يقال: وقال يعقوب للابان أعطني امرأتي، لأن الأيام قد كملت لكي أدخل عليها، فجمع لابان رجال ذلك الموضع وصنع عرسًا، ولما كان المساء أدخل لابان ابنته ليا[١] على يعقوب، ودخل يعقوب إليها، فإن المحال في باب الزواج لا يقدم عليه العقلاء ولا من له دين ولا مروءة، فإنه يوقعه في المعصية والعار والفضيحة.

لأن الأب يكون قد أعطى بنته الغير مزوجة لمن ينكحها زنا مع منعه للزواج من زوجته التي يستحقها، والزوج يكون قد أخذ غير زوجته ينكحها زنا بغير تزويج، واتفق العقلاء أرباب الشرائع أجمع على اشتراط التزويج في النكاح وإن اختلفوا في صورته وشروطه، ويفرقون بينه وبين الزنا.

وأيضًا فقوله في آخر القراءة: وأحب راحيل[٢] أكثر من ليا. مع قوله عقيبه: ولما

(١) لما قدم يعقوب على خاله لابان بأرض حران إذا له ابنتان اسم الكبرى: ليا، واسم الصغرى: راحيل، وكانت أحسنهما وأجملهما فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين فلما مضت المدة على خاله لابان صنع طعامًا وجمع الناس عليه وزف إليه ليلاً ابنته الكبرى ليا وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر فلما أصبح يعقوب إذا هي ليا فقال لخاله: غدرت بي وأنت إنما خطبت إليك راحيل، فقال: إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكنها، فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها وكان ذلك سائغًا في ملتهم ثم نسخ في شريعة التوراة، وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم ووهب لابان لكل واحدة من ابنتيه جارية، فوهب لليا جارية اسمها: زلفى، ووهب لراحيل جارية اسمها بلهى وجبر الله تعالى ضعف ليا بأن وهب لها أولادًا فكان أول من ولدت ليعقوب روبيل ثم شمعون ثم لاوي ثم يهوذا فغارت عند ذلك راحيل وكانت لا تحبل فوهبت ليعقوب جاريتها بلهى فوطئها فحملت وولدت له غلامًا سمته دان وحملت وولدت غلامًا آخر سمته بنفتالي فعمدت عند ذلك ليا فوهبت جاريتها زلفى من يعقوب عليه السلام فولدت له جاد وأشير غلامين ذكرين، ثم حملت ليا أيضًا فولدت غلامًا خامسًا منها وسمته إيساخر، ثم حملت وولدت غلامًا سادسًا سمته زابلون ثم حملت وولدت بنتًا سمتها دينا فصار لها سبعة من يعقوب. (البداية والنهاية ١/ ٢٢٠).

(٢) دعت الله تعالى راحيل وسألته أن يهب لها غلامًا من يعقوب فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها فحملت من نبي الله يعقوب فولدت له غلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا جميلاً سمته يوسف كل هذا وهم مقيمون بحران وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى، =

نظر الله أنه يبغض ليا فتح رحمها، كلامان متناقضان، لأن قوله أنه يحب راحيل أكثر من ليا يقتضي مشاركتهما في المحبة مع رجحان محبة راحيل، فيجتمع في حق ليا المحبة والبغض، وهما متنافيان، وأيضًا فقوله، فتح رحمها لا وجه له، لأن العاقر رحمها مفتوح لا مسدود.

السؤال على القراءة الحادية والأربعين

كيف يحسن أن يقال في آخر القراءة: وذكر الله راحيل وسمع لها وفتح رحمها فحملت وولدت ابنا ليعقوب اسمه يوسف(١)، ولم يكن رحمها مسدودًا.

السؤال على القراءة الثانية والأربعين

كيف يحسن أن يقال وظهرت العصى (المقفرة)(٢) بلقاء وبيضاء، وترك العصي في أحواض الماء التي للغنم لكن إذا جاءت الغنم ليشربن يتوحمن رسم العصي، فكانت الغنم تلد بلقاء ومحلة ومنقطة(٣)، فإن الأولاد يخلقون على ما يختاره الله سبحانه

=

فصارت مدة مقامه عشرين سنة فطلب يعقوب من خاله لابان أن يسرحه ليمر إلى أهله فقال له خاله إني قد بورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئت فقال تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة. (البداية والنهاية ١/٢٢٠).

(١) روى البخاري في صحيحه (٣٣٩٠) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»، وقال ابن كثير: قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ وهم إشارة إلى بقية إخوته: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ [يوسف: ٧]، وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له فهاله ذلك، فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته لكيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر. (البداية والنهاية ١/٢٢٤).

(٢) كذا بالأصل.

(٣) لما سأل يعقوب خاله أن يسمح له بالعودة إلى أهله قال له: سلني من مالي ما شئت، قال ابن كثير، فقال: تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع وكل حمل ملمع أبيض بسواد وكل أملح ببياض وكل أجلح أبيض من المعز، فقال: نعم، فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم، قالوا: فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز

=

وتعالى من الألوان.

وإن كان قد أجرى الله عادته غالبًا أن يخلقهم على شبه ألوان أصولهم، فأما أن يخلقهم على شبه ما يرونه من العصي وغيرها. فهذا مما لا يتوهمه أحد من العقلاء أصلاً، وإلا لأتى الأولاد المتولدون في الربيع خضرًا كلهم لأنهم يرون الأرض جميعها خضرًا وهي أكثر ما يرونه(١).

السؤال على القراءة الثالثة والأربعين

كيف يحسن أن يقال: وقال لي ملك الله في الحلم يعقوب يعقوب، فقلت: ها أنا ذا، فقال لي: انظر بعينك إلى فوق لترى التيوس والكباش صاعدة على النعاج والمعز رقطاء وبلقاء ورمادية ومنقطة، لأني رأيت مافعله بك لابان، أنا هو الله الذي ظهرت لك في بيت الله (مسحت)(٢) هناك قصبة، ونذرت لي هناك نذرًا.

فإن أول الكلام يدل على أن القائل هو الملك وآخره يدل على أن القائل هو الله سبحانه وهما متناقضان.

السؤال على القراءة الرابعة والأربعين

كيف يحسن أن يقال: فجاء الله إلى لابان السرياني في الحلم وقال له: احذر أن

=

ولب فكان يقسرها بلقا وينصبها في مساقي الغنم من المياه لينظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها فتصير ألوان حملانها كذلك وهذا يكون من باب خوارق العادات وينتظم في سلك المعجزات فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد وتغير له وجه خاله وبنيه وكأنهم انحصروا منه، وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه، ووعده بأن يكون معه، فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته فتحمل بأهله وماله. (انظر البداية والنهاية ١/٢٢٠).

(١) لما رأى العيص أخاه يعقوب تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهب الله لعبدك، ورجع العيص فتقدم ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال ساعير فلما مر بساحور ابتنى له بيتا لدوابه به ظلالاً، ثم مر على أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية واشترى مزرعة شخيم بن جمور، وبني مذبحًا سماه إيل إله إسرائيل، وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه، وهو بيت المقدس اليوم الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك. (ابن كثير في البداية والنهاية ١/٢٢١، ٢٢٢).

(٢) هكذا بالأصل وأظنها نصبت.

تكلم يعقوب بردى[1].

فإن الله لا يجيء في الحلم، بل يري النائم ما شاء من غير مجيء ولا ذهاب.

وكيف يحسن أن يقال عقيبه لأن أباك أمس قال لي احذر أن تكلم يعقوب بردى. فإن القائل هو الله على ما قال آنفًا لا أبوه ثم اعلم أن هذا النص يبطل مذهب النصارى في التمسك على أن عيسى ابن الله بإطلاق لفظ الرب على الله تعالى بالنسبة إلى عيسى في الإنجيل[2]، فإنها قد أطلقت هنا على الله سبحانه بالنسبة إلى يعقوب، وليس هو ابنا لله بإجماع الطوائف كلها، بل هو مجاز على المربي ونحوه.

وكيف يحسن أن يقال: وقال له لابان: هذه الرابية شاهدة بيني وبينك اليوم. ثم قال عقيبه: هذه الرابية شاهدة بيني وبينك وقال[3] للابان هو ذا هذه الرابية وهذه

---

(١) أوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه وعده بأن يكون معه، فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين على طاعته فتحمل بأهله وماله وسرقت راحيل أصنام أبيها، فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم لابان وقومه، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه وهلا أعلمه فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول وحتى يودع بناته وأولادهن ولما أخذوا أصنامه معهم ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه فأنكر أن يكونوا أخذوا له أصنامًا فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئًا وكانت راحيل قد جعلتهن في بردعة الحمل وهي تحتها فلم تقم واعتذرت بأنها طامث فلم يقدر عليهن فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها جلعاد على أنه لا يهين بناته ولا يتزوج عليهن ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر لا لابان ولا يعقوب وعملا طعامًا وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر وتفارقوا راجعين إلى بلادهم فلما اقترب يعقوب من أرض ساعير تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم. (البداية والنهاية (١/٢٢١).

(٢) قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]. يقول تعالى مخبرًا وحاكيًا بكفر النصارى في إدعائهم في المسيح ابن مريم وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقه أنه هو الله - تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا- ثم قال مخبرًا عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ تفسير ابن كثير (٢/٣٥).

(٣) يعقوب أو إسرائيل عليه السلام قد سموا بني إسرائيل نسبة إليه وكلمة إسرائيل كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى: عبد أو صفوة، (إيل) وهو الله فيكون معنى كلمة إسرائيل عبد الله، أو صفوة الله.

النصبة التي نصبتها بيني وبينك هذه الرابية شاهدة وهذه النصبة شاهدة فإنه لا معنى لشهادة الحجارة، ولا فائدة فيها ولا يحسن ذلك من عاقل.

السؤال على القراءة الخامسة والأربعين

كيف يحسن أن يقال: بات وحده وصارعه إنسان إلى الفجر، فنظر أنه لا يقوى عليه فدنا من حق وركه فسل عرقًا من حق ورك يعقوب عندما صارعه. وقال له: اطلقني لأن الصبح قد أشرق، وهو قد قال له: لا أطلقك إذا لم تباركني[1] قال له: ما اسمك؟ قال: يعقوب. قال: لا يدعى اسمك يعقوب بل إسرائيل[2] يكون اسمك لأنك قويت مع الله، ولك قوة في الناس، فسأله يعقوب عن اسمه. قال: عرفني ما سؤالك عن اسمي، وباركه هناك وسمى يعقوب اسم ذلك الموضع وجه الله قال: لأني رأيت الإله وجهاً لوجه[3] وتخلصت نفسي أن فيه أشياء لا تليق، أما أولاً: فلأن ظاهره أنه يريد

= وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر ولدا، وذلك أنه أعقب من زوجته ليا ستة أولاد وهم: رأوبين شمعون- لاوى- يهوذا- لساكر- زبولون، وأعقب من زوجته راحيل اثنين هما: يوسف- بنيامين وأعقب من (زلفا) جارية ليا اثنين هما جاد – أشير، وأعقب من (بلها) جارية راحيل اثنين هما: دان ، نفتالي. ومن أبناء يعقوب عليه السلام وذرياتهم من بعدهم تكونت أمة بني إسرائيل ونسبت إليه.

(١) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (١/٢٢١)، في عودة يعقوب إلى بلاده فقال: وتأخر يعقوب بزوجته وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهارًا، فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية تبدى له ملك من الملائكة في صورة رجل فظنه يعقوب رجلاً من الناس فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه فظهر عليه يعقوب فلما أضاء الفجر قال له الملك ما اسمك؟ قال يعقوب، قال: لا ينبغي أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل فقال له يعقوب: ومن أنت وما اسمك؟ فذهب عنه، فعلم أنه ملك من الملائكة وأصبح يعقوب يعرج من رجله.

(٢) إسرائيل معناه: إسرا وهي بمعنى عبد أو صفوة، وإيل بمعنى: الله فيكون معنى الكلمة: عبد الله، أو صفوة الله.

(٣) مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضًا على وقوعها في الآخرة وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين.

وزعمت طائفة من أهل البدع المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه وأن رؤيته مستحيلة عقلاً، وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى =

بالإنسان. الله تعالى كما ذكره في آخر الكلام، تعالى سبحانه وتعالى عن ذلك.

وأما ثانيًا: فلأنه ذكر فيه المصارعة بينهما.

وأما ثالثًا: فلأنه جعلها ممتدة إلى الفجر.

وأما رابعًا: فإن فيه أنه لم يقدر أحدهما على الآخر.

وأما خامسًا: فلأنه قال: اطلقني، ولم يقدر ينطق بذاته.

وأما سادسًا: فلأنه لم يطلقه كما قال إلا بعوض وهو أن يباركه.[١]

وأما سابعًا: فلأنه قال: ما اسمك، وفيه دليل على أنه لم يعلم اسمه.

وأما ثامنًا: فلأنه قال: لأنك قويت مع الله وفيه شبه من قول الشخص أن فلانًا قوي مع المصارع الفلاني، القائم في الصراع بإدامة معه.

وأما قوله لأني رأيت الله وجهًا لوجه، فهو قد وصل على ما ذكره إلى ما هو أعلى من ذلك، وهو المصارعة والمغالبة، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ثم كلمه بقوله وأشرقت الشمس عليه إذ عبر وجه الله (وهو يجمع على فخذه)[٢].

= في الآخرة للمؤمنين ورواها نحو من عشرين صحابيًا عن رسول الله ﷺ، وآيات القرآن فيها مشهورة. (النووي في شرح مسلم ١٤/٣، ١٥)، طبعة دار الكتب العلمية.

(١) في عودة يعقوب إلى بلاده قال في البداية والنهاية (٢٢١/١)، ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل في أربعمائة راجل فتقدم أمام أهله، فلما رأى يعقوب أخاه سجد له سبع مرات وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان، وكان مشروعًا لهم كما سجدت الملائكة لآدم تحية له، وكما سجد إخوة يوسف وأبوه له، فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهب الله لعبدك، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له، ودنت ليا وبنوها فسجدوا له، ودنت راحيل وابنها يوسف فخرا سجدا له وعرض عليه أن يقبل هديته (التي أرسلها يعقوب أمامه إلى أخيه العيص) وألح عليه فقبلها ورجع العيص فتقدم أمامه ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال ساعر فلما مر بساحور ابتنى له بيتًا ولدوابه ظلالاً ثم مر على أورشليم قرية شخيم بن حمور بمائة نعجة فضرب هنالك فسطاطه وابتنى ثم مذبحًا فسماه إيل إله إسرائيل، وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه وهو بيت المقدس اليوم الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام.

(٢) غير موجود بالأصل واستكملناه بالأصل وسمي وجه الله اسم المكان الذي صارع فيه الملك على زعمهم أنه صارع الله ورآه وجهًا لوجه.

السؤال على القراءة السادسة والأربعين

كيف يحسن أن يقال: ولما كان في اليوم الثالث وهم متوجعون جدًّا، أخذ ابنا يعقوب شمعون ولاوي أخوا دينا[١] كل واحد سيفه وطلعا المدينة، ويداهما قوية وقتلا جميع الذكور وحمور وشكيم ابنه بحد السيف فيها.

وأخذ دينا أختها من شكام ومضيا، فطلع بنو يعقوب[٢] على القتلى، ونهبوا المدينة التي غصبت فيها أختهم دينا، وغنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة، وسبوا نساءهم، فإن هذا لا يكاد العقل يقبله أن يقدر اثنان على قتل أهل المدينة.

وأيضًا فإن هذا فساد عظيم من الذي فعله شكام، وهو إهلاك أهل مدينة فيها من تعدى عليهم، ومن لم يتعد عليهم، فكيف يصدر عمن لهم قرب من الله تعالى، ما تقدم ذكره وما يأتي ذكره.

السؤال على القراءة السابعة والأربعين

كيف يحسن أن يقال: وقال الله ليعقوب قم اصعد إلى بيت إيل، وقم هناك واصنع هناك مذبحًا لله تعالى الذي ظهر لك وأنت هارب عن وجه عيسو أخيك[٣].

قال يعقوب لبنيه، وكل من معه: انزعوا الآلهة الغرباء من بينكم وتطهروا إلى أن قال بعده فاعطوه الآلهة الغرباء التي كانت في أيديهم والأقراط التي كانت في آذانهم فدفنها، فإن أول الكلام يدل على أعلى رتبة وهي خطاب الله تعالى[٤]. وآخره يدل

---

(١) ذكر أهل الكتاب هنا قصة دينا بنت يعقوب بنت ليا، وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذي قهرها على نفسها، وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها، فقال إخوتها إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا فإنا لا نصاهر قومًا غلفًا، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم، فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا شخيما وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم مضافًا إلى كفرهم وما كانوا يعبدونه من أصنامهم، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة. البداية والنهاية (١/٢٢٢).

(٢) كان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلاً، فمن ليا، روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وإيساخر، وزايلون. ومن راحيل: يوسف وبنيامين، ومن أمة راحيل: دان، ونفتالي، ومن أمة ليا: حاد وأشير.

(٣) انظر ما تقدم قريبًا نقلاً من البداية والنهاية لابن كثير (١/٢٢١، ٢٢٢).

(٤) قال في كتاب بنو إسرائيل في القرآن والسنة (صـ ٧٥): إذا نظرنا إلى التوراة الحالية من حيث المتن نجدها محشوة بالقصص والعبارات والمتناقضات التي تتنزه الكتب السماوية الصحيحة عن ذكرها وإليك بعض الأمثلة: (أ) في سفر التكوين: أن الله تعالى بعد خلق =

على أنهم كانوا أهل أصنام، فأين هذا من هذا، مع ما تقدم لهم من الفساد، وإهلاك أهل مدينة فيهم من تعدى عليهم ومن لم يتعد.

السؤال على القراءة الثامنة والأربعين

كيف يحسن أن يقال: ولما سكن إسرائيل في تلك الأرض، مضى روبيل وضاجع بها سرية أبيه[١] فسمع إسرائيل مكان الفعل، سرى بين يديه. فإن الأنبياء يصانون عن أن يقع تحريم فعل وأبناء الأنبياء يصانون عن أن يقع منهم مثل ذلك. وأين هذا بما وعد الله تعالى يعقوب أن يباركه ويبارك زرعه ويحفظه ويكون معه باطنًا وظاهرًا للعين ومما وعد أباه وجده.

السؤال على القراءة التاسعة والأربعين

كيف يحسن أن يقال: وقال يهوذا لأونان ادخل على امرأة أخيك وكن معها وقم زرعًا لأخيك ولما علم أونان أن الزرع لا يكون له صار إذا دخل على امرأة أخيه يسكب على الأرض أن لا يعطي زرعًا لأخيه، فكان الفعل رديًا قدام الله أنه فعل هذا فقتل الآخر[٢] فإن الزرع لباذره لا للأخ الميت، فكيف يقيم زرع أخيه.

= السموات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع وكان يوم سبت، وأن الله قد بارك هذا اليوم من أجل ذلك فحرم فيه العمل. وهذا الوصف تنزه عنه الخالق تعالى كما تنزه أي كتاب سماوي عن أن يشتمل على هذه العبارات الباطلة.

(١) تنسب التوراة الحالية لبعض الأنبياء عليهم السلام أعمالاً قبيحة تتنافى مع العصمة التي منحها الله تعالى لهم، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس من ذلك ما جاء في سفر التكوين عن لوط عليه السلام وابنتيه فهو يذكر أن لوطا عليه السلام وابنتيه هم الذين نجوا بعد هلاك قومه وأن ثلاثتهم قد أقاموا عقب ذلك في غار، وحينئذ قالت كبراهما لصغراهما: إن أبانا قد أصبح شيخًا كبيرًا وليس في هذا المكان القفر رجال يتصلن بنا على النحو الذي يفعله ذكور الناس مع إناثهم، وإذا بقي الأمر على تلك الحالة سينقرض نسل أبينا بعد وفاته ووفاتنا، وخير وسيلة أن نسقي أبانا خمرًا حتى يفقد وعيه ويتصل بنا فنأتي منه بذرية تخلد نسله، ثم أنفذتا ما اتفقتا عليه وجاءت الكبرى بغلام أسمته مؤاب وجاءت الصغرى بغلام أسمته عمون ومن هذين الغلامين تكون شعب المؤابيين والعمونيين، هذا وفي التوارة الحالية نصوص أخرى فيها تطاول على بعض الأنبياء كآدم ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا وفيها وصف لهم بأعمال ذميمة تتعارض مع الخلق الكريم الذي طبعهم الله تعالى عليه. المرجع السابق (صـ ٧٦).

(٢) اشتملت بعض الأسفار على غزل شهواني صريح ومن تعبير ماجن خليع يجعل العاقل يستبعد =

وأيضًا فقوله: يسكبه على الأرض أن لا يعطي زرعًا لأخيه، يقتضي أنه إذا رزق منها ولد يكون منسوبًا إلى الميت، وهذا لا يتوهمه أحد وأيضًا فكيف يحسن أن يأمره أن يدخل على امرأة أخيه.

وأيضًا: فروبيل ضاجع سرية أبيه يعقوب، وهو فعل أعظم من هذا وما قبله أبيه فكيف يحسن أن يقول هنا فقتل الآخر يعني لأجل فعله.

فكيف يحسن أن يقال بعد هذا ما معناه أن يهوذا[1] زنا بكنته الأرملة ثامار، لأنه لم يعرف أنها كنته بل ظنّها زانية، وأعطى خاتمه وعمامته وعصاه رهنًا على جدي من غنمه.

وحبلت منه بتوأم وهما فراض وزارح، وأنه أمر بحرقها حتى قالت أتاني من هذه عمامته وخاتمه وعصاه. فإن هذا أقبح ما يحكى عن عاقل ما أنه فعله فضلا عن أولاد

=

أن تكون هذه الأسفار منزلة من السماء وفي سفر نشيد الأنشاد مثلا كثير من هذا اللون الماجن من الغزل، ففي بعض فقراته يقول: في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي طلبته فما وجدته، إني أقوم وأطوف المدينة في الأسواق والشوارع، وجدني الحرس الطائف في المدينة فقلت: أرأيتم من تحبه نفسي فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدته فأمسكته ولم أتركه أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بي. (انظر سفر نشيد الإنشاد نقلاً عن كتاب المسيح في القرآن لعبد الكريم الخطيب صـ ٥٢).

(١) في أصل بني إسرائيل باليهود أن بعض العلماء رجح النسبة إلى يهوذا الابن الرابع ليعقوب عليه السلام فقد قال البيروني مؤيدًا هذا القول: وإنما سمّوا باليهود نسبة إلى يهوذا أحد الأسباط، فإن الملك استقر في ذريته وأبدلت الذال المعجمة دالاً مهملة لأن العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيروا بعض حروفها، وقد كان يهوذا هو الحاكم لسائر أبناء أبيه الأحد عشر بتقديم أبيه له، وظل كذلك حتى مات، وكان سبطه من بعده هو المقدم على سائر الأسباط الأخرى إلى أن انقسمت مملكتهم بعد وفاة سليمان عليه السلام إلى قسمين: مملكة يهوذا ومقرها أورشليم، وتتكون من سبطي يهوذا وبنيامين ومملكة إسرائيل ومقرها السامرة وتتكون من بقية الأسباط العشرة.

وبعد سقوط دولة إسرائيل على يد الآشوريين سنة (٧٢١) ق. م. دخل من بقي منهم تحت طاعة ملوك يهوذا، إلى أن سقطت مملكة يهوذا على يد بختنصر سنة (٥٨٦) ق.م. وساق الأحياء منهم أسارى إلى بابل، وعرفوا حينئذٍ ببني يهوذا، وقيل للواحد منهم يهودي ثم اتسعت هذه الكلمة فصارت تشمل جميع العبرانيين وبني إسرائيل ومن دخل في اليهودية من الأجناس الأخرى. (انظر بنو إسرائيل في القرآن والسنة صـ ١٣).

الأنبياء.﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠][١].

السؤال على القراءة الخمسين

كيف يحسن أن يقال كان يوم هكذا دخل يوسف[٢] إلى البيت ليعمل أعماله، ولم يكن أحد داخل البيت، فعلقت بثيابه وعرته (إياهم)[٣] قائلة: ارقد معي، فخلف ثيابه في يدها وهرب وخرج وكان لما نظرت إنه خلف ثيابه في يدها وهرب وخرج، دعت الذين في البيت وقالت لهم نظرتم أنه دخل إليّ غلامًا عبرانيًا ليضحك بي دخل إليّ قال: ارقدي معي، فصرخت بعظم صوت. ولما سمع أني رفعت صوتي وصرخت خلف ثيابه بيدي وهرب ومضى إلى الخارج وترك الثياب بيدها[٤].

فإن أول هذا الكلام يقتضي أنه لم يكن أحدًا داخل البيت، وآخره يقتضي أن فيه جماعة وهما متناقضان مع ما فيه من سوء تدبيرها وجهل سيده في استماع كلامها.

فإنه لو كان هو الطالب لها لما تعرى بثيابه، لأنه يبقى بثوبه أن يأتي سيده على

---

(١) وجدناها في الهامش بالمخطوط.

(٢) روى البخاري في صحيحه (٣٣٩٠)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧] عن ابن عمران أن رسول الله ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

(٣) كذا بالأصل.

(٤) قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٢٣-١٩].

غفلة[١] فيراه عرياناً[٢].

ولو كان هو الطالب لها لما هرب، فإن هربه بعد الذنب لا يسكتها ولا يكذبها، بل يوجد تكلمها وتصديقها، لكن كان سبيله أن يقف يترقق وينخضع لها ويعتذر لتسكت عن شكواه، ولو كان هو الطالب لها لما هرب عريانًا، لأن هربه عريانًا لا يستره بل يفضحه، على أن سيده كان مخطئاً غير آخذ بالجرم والاحتراز في إدخاله عليها.

السؤال على القراءة الحادية والخمسين

كيف يحسن أن يقال فنظر الاثنان منامًا كل واحد نظر منامه في ليلة واحدة، فإن الاثنين لايريا منامًا، بل منامين[٣] وكيف يحسن أن يقال: وكل واحد نظر منامه في ليلة واحدة، فإن كل واحد لا يمكن أن يرى منامه إلا في ليلة واحدة لا في ليلتين بل

(١) ذكر الله في الآية المتقدمة ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها وهي مع هذا كله امرأة الوزير، قال ابن إسحاق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء فعصمه ربه عن الفحشاء وحماه عن مكر النساء . (البداية والنهاية ١/٢٢٩).

(٢) قالوا: كان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها الذي الخزائن مسلمة إليه قال ابن إسحاق: واسمه أطفير بن روحيب، قال: وكان ملك مصر يومئذٍ الريان بن الوليد رجل من العماليق، قال: واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعاييل وقال غيره: اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها، وقيل: فكا بنت ينوس رواه الثعلبي عن أبي هشام الرفاعي، وقال محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس: كان اسم الذي باعه بمصر يعني الذي جلبه إليها مالك بن ذعر بن نويب بن عفقا بن مديان بن إبراهيم فالله أعلم. (البداية والنهاية ١/٢٢٨).

(٣) قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦] قيل: كان أحدهما ساقي الملك واسمه فيما قيل: بنو، والآخر خبازه يعني الذي يلي طعامه وهو الذي يقول له الترك «الجاشنكير» واسمه فيما قيل: «مجلث» كان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ودله وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه إلى خلقه فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير: رأيا في ليلة واحدة. أما الساقي فرأى: كأن ثلاثة قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه، ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز وضواري الطيور تأكل من السلة الأعلى فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما. (البداية والنهاية ١/٢٣٢).

الواجب أن يقال: ونظر الاثنين منامهما في ليلة واحدة[١].

السؤال على القراءة الثانية والخمسين

لا كيف يحسن أن يقال: فقال يوسف لخادمه قم الآن واطلب القوم وأدركهم، قل لهم جازيتم شرًا مكان الخير، إن الصاع الذي يشرب به سيدي ويتفاءل به سرقتم، لقد أسأتم فيما فعلتم[٢]. فإن يوسف عليه السلام لا يليق به أن يعلم خادمه الكذب. وهذا الكلام الذي علمه فيه ثلاث كذبات:

أحدها: قوله: جازيتم شرًا مكان الخير.

وثانيها: قوله سرقتم.

وثالثها: قوله: قد أسأتم فيما فعلتم[٣]، وأيضًا فكيف يحسن أن يقال في حق

---

(١) في تأويل رؤيا الساقي والخباز قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾ [يوسف: ٤١]، قالوا: وهو الساقي، ﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾ قالوا: وهو الخباز: ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ أي وقع هذا لا محالة ووجب كونه على حاله ولهذا جاء في الحديث: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت» انظر البداية والنهاية (١/٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٦٩-٧٦].

(٣) يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف وإيوائه إليه وإخباره له سرًا عنهم بأنه أخوه وأمره بكتم ذلك عنهم وسلاه عما كان منهم الإساءة إليه ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم فأمر فتيانه بوضع سقايته، وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام، عن غرة في متاع بنيامين ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك، ووعدهم جعالة على رده، حمل بعير، وضمنه النادي لهم فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه
=

بنيامين وحده الذي بقي لأمه وأبوه يحبه، معه أن راحيل ماتت بعد ولادته...[١] كما تقدم ذكره في القراءة السابعة والأربعين بل صوابه هو وحده الذي بقي لأبيه من أولاد أمه راحيل.

السؤال على القراءة الثالثة والخمسين

كيف يحسن أن يقال: فقال إسرائيل: إن كان ابني حيًّا أم امضي لأراه قبل أن أموت. لأن هذا الكلام معكوس، وصوابه أن يقال: فقال إسرائيل[٢]: أمضي مطلقًا لأرى ابني قبل أن أموت إن كان حيًّا، لأن الرؤية الموقوفة على كونه حيًّا لا المعنى، فإنه ماض ولابد مطلقًا عن كان حيًّا في نفس الأمر، أو لم يكن اعتمادًا على حصول ظنٍّ حياته الآن.

السؤال على القراءة الرابعة والخمسين

كيف يحسن أن يقال: وقال يوسف لإخواته: امضي إلى فرعون، وأقول له قد جاء إليَّ إخوتي[٣] وبيت أبي الذين كانوا في أرض كنعان والرجال هم رعاة، لأنهم أناس

= وهجنوه فيما قاله لهم: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ فلما عاينوا استخرجوا الصواع من جمل بنيامين، ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ أي إن أطلقنا المتهم واخذنا البريء وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به ﴿ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ [يوسف: ٧٩]، البداية والنهاية (١/٢٣٩، ٢٤٠).

(١) بياض بالأصل.

(٢) قال عبد الرزاق بسنده عن ابن عباس قال: فلما فصلت العير قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ﴿ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف: ٩٤] قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية، وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي سنان به وقال الحسن البصري، وابن جريج المكي: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخا وكان له منذ فارقه ثمانون سنة. وقوله: ﴿ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي تقولون إنما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن، قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة تفندون تسفهون. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا ﴾ [يوسف: ٩٦]، البداية والنهاية (١/٢٤٢).

(٣) قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ =

يربون الدواب.

كان هذا كذب، ولا يليق بيوسف أن يقوله ولا أن يعلم إخوته أن يقولوه، وليس بعد هذا إلا القراءة السابعة والخمسون هكذا النسخة.

السؤال على القراءة السابعة والخمسين

كيف يحسن أن يقال: فقال لهم: لا تخافوا أنا أرزقكم وأعولكم، فإنه لا يرزق إلا الله سبحانه وتعالى. تم السفر الأول بأسئلته(١).

=

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يوسف: ٩٨، ٩٩] هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة التي قيل إنها ثمانون سنة وقيل ثلاث وثمانون سنة وهما روايتان عن الحسن وقيل خمس وثلاثون سنة قاله قتادة وقال محمد بن إسحاق ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة قال: وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة، وكان حمله من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم فيما قاله أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود ثلاثة وستين إنسانًا، وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبد الله بن شداد كانوا ثلاثة وثمانين إنسانا، وقال أبو إسحاق عن مسروق دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون إنسانا قالوا: وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل وفي نصِّ أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفسًا وسموهم، وفي قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ قيل كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة، وقال بعض المفسرين فأحياها الله تعالى وقال آخرون بل كانت خالته ليا والخالة بمنزلة الأم، وقال ابن جرير وآخرون بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذٍ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيخالفه وهذا قوي والله أعلم. (انظر البداية والنهاية لابن كثير ١/٢٤٣، ٢٤٤).

(١) ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم توفي عليه السلام وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق قال السدي، فصبر وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام. وعند أهل الكتاب أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ومع هذا قالوا: فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة، هذا نصُّ كتابهم وهو غلط إما في النسخة أو منهم أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا وقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]، المرجع السابق (١/٢٤٦).

السؤال على السفر الثاني من التوارة
وهو سفر الخروج في القراءة الأولى

كيف يحسن أن يقال: وكلما كانوا يذلونهم كانوا يزدادون بكثرة، وكان المصريون يشفقون على بني إسرائيل، والمصريون يستعبدون بني إسرائيل جورًا،[١] ويمررون عليهم حياتهم بأفعال الطين واللبن والحرث.

أما أولاً: فإن هذا لا يخفى على عاقل، أن الإذلال بأعمال المشقة، لا يقلل القبيلة[٢].

فإن طريق الفناء على هذا الطريق من القتل والنفي ونحوهما.

وأما ثانيًا: فإن الإخبار عن المصريين بأنهم كانوا يشفقون على بني إسرائيل، والإخبار عنهم بأنهم يستعبدونهم جورًا، إخباران متنافيان.

السؤال على القراءة الثانية

كيف يحسن أن يقال: فرأت تابوتًا في النهر مع أنه ذكر في القراءة الأولى أنها

---

(١) قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ [القصص: ٤]، أي تجبر وعتا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهلها شيعًا أي قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع يستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض وقد سلّط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (البداية والنهاية ١/٢٦٤).

(٢) قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]، أي سنجعل الضعيف قويًا والمقهور قادرًا والذليل عزيزا، وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل وقد احترز فرعون كل الاحتراز أن لا يوجد موسى حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته، وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم وهذا فيه نظر بل هو باطل وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ [غافر: ٢٥]، البداية والنهاية (١/٢٦٥).

تركته في البردى عند النهر[١]. فإن كونه عند النهر مغاير لكونه في النهر فتناقض الإخباران.

السؤال على القراءة الثالثة

كيف يحسن أن يقال: فالتفت إلى الجانبين فلم ير أحدًا، فقتل المصري ودفنه في الرمل مع أنه قال عقيبه: إن العبراني الظالم قال له، أو يقول: تقتلني كما بالأمس قتلت المصري، فإنه يلزم أن يكون هناك هو، أو من أخبره وظاهر كلامه الأول أنه لم يكن ثم أحد وإلاّ لما قتل المصري[٢]، فتناقضا.

السؤال على القراءة الرابعة

كيف يحسن أن يقال: وذكر الله عهده الذي قرره بينه وبين إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فإن الله سبحانه لا ينسى قوله حتى يصح أن يقال: ذكر. وكيف يقال: فنزلت لأخلصهم من أيدي المصريين[٣].

---

(١) كان الحامل لفرعون على قتل الذكور من بني إسرائيل كما ذكر ابن كثير فقال: ذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة أن فرعون رأى في منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والحذقة والسحرة وسألهم عن ذلك فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء سبب هلاك أهل مصر على يديه فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان. فلما وضعت أم موسى ألهمت أن اتخذت له تابوتًا فربطته في حبل وكانت دارها متاخمة للنيل فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت فأرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل عندها فإذا ذهبوا استرجعته إليها به. (البداية والنهاية) (١/٢٦٥).

(٢) قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أي إسرائيلي ﴿ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أي قبطي قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق ﴿ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته وكان بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاها وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله أي من الرضاعة فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ قال مجاهد طعنه بجمع كفه وقال قتادة: بعصا كانت معه ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي فمات منها، وقد كان ذلك القبطي كافرًا مشركًا بالله العظيم ولم يرد موسى قتله بالكلية وإنما أراد زجره وردعه. (البداية والنهاية ١/٢٦٨).

(٣) قال صاحب تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم: والراجح أن حالة بني إسرائيل تبدلت بعد =

وكذا عقيبه: وأدخل بهم إلى أرض واسعة فإنه سبحانه منزه عن النزول وعن الدخول إلى الأرض.

وكيف يحسن أن يقال: وإذا (رمتم)[١] الخروج لا تخرجوا فارغين، بل تسأل المرأة من جارتها ورفيقتها أواني فضة، وأواني ذهب وثيابًا. تحملونهم لنبيكم وبناتكم وتغنموا المصريين. فإنه لا يليق أن ينسب إلى الله سبحانه وتعالى أن يعلم الناس أن يستعيروا أمتعة الناس ويخونوهم ويغدروا بهم، ويذهبوا بها.[٢]

السؤال على القراءة الخامسة

كيف يحسن أن يقال: وأنت قل لفرعون[٣]: هذا ما يقوله الرب: ابني بكري

= تقويض حكم الهكسوس في القرن السادس عشر ق.م، وقيام الإمبراطورية المصرية، ويستدل من أوراق البردي المذكورة: أن تسخيرهم واضطهادهم قد بلغ الذروة في عهد رمسيس الثاني أعظم ملوك الأسرة التاسعة التي حكمت حسب تقدير المؤرخ بريستيد من سنة (١٣٥٠) إلى سنة (١٢٥٠) ق.م، وحسب تقدير المؤرخ شالوييم من سنة (١٤٦٢)، إلى سنة (١٢٨٨)ق. م. وهناك قرائن تدل على أنه كان لبني إسرائيل أثر في الانقلاب الديني الذي قام به إخناتون أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة سنة (١٥٨٠)، إلى سنة (١٣٥) ق.م، فقد هدف إخناتون في انقلابه إلى عبادة ما وراء الشمس وسمى معبوده آتون الذي يظن أنه مقتبس من اسم (أدون) أو (أدوناي) العبراني الذي كانوا يسمون به الرب. [تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم (صـ٤١)].

(١) كذا بالأصل وأظنها (أردتم).

(٢) يعلق أحد المؤرخين على قصة استلاب بني إسرائيل لحلي المصريين عند خروجهم من مصر فيقول: «ويلفت النظر خاصة ما جاء في التوراة من سلب رجال ونساء بني إسرائيل أمتعة جيرانهم الذهبية والفضية بحيلة الاستعارة ونسبة ذلك إلى الله تعالى ومهما كان من أمر فإن تسجيل هذا الخبر بهذا الأسلوب يدل على ما كان وظل يتحكم في نفوس بني إسرائيل من فكرة استحلال أموال الغير وسلبها بأية وسيلة، ولو لم تكن حالة حرب ودفاع عن النفس، كما أنه كان ذا أثر شديد بدون ريب في رسوخ هذا الخلق العجيب في ذراريهم ثم من دخل في دينهم من غير جنسهم» تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم صـ ٢٤.

(٣) حكى لنا القرآن الكريم في آيات كثيرة أن موسى عليه السلام طلب من فرعون أن يقلع عن إيذاء بني إسرائيل، وأن يترك الكفر والغرور ويعبد الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف:١٠٤، ١٠٥] .

أي قال موسى ملزمًا فرعون الحجة إني رسول من الله الذي هو خالق كل شيء وربه ومليكه =

إسرائيل. قلت لك أطلق (ابني)[1]، وأنت أبيت أن تطلقه فانظر إني سأقتل ابنك بكرك.

فإن هذا الكلام غير منتظم، لأن معناه أنه سبحانه أمر موسى أن يقول لفرعون هذا ما يقوله الرب: ابني بكري إسرائيل قلت لك أطلق جمعي، فالمأمور بقوله: قلت لك، وتوسط ابني بكري بين الأمر وبين المقول لا معنى له هنا، ولا تعلق له بالأمر، ولا بالمقول بل هو قاطع الارتباط الكلام بأوله.

وأيضًا فإن قتل ابنه بكره في مقابل تعويق أولاد بكره إسرائيل (...)[2] من العشران كبني يزيد وبني نمير، لا من أحكام الشريعة على أن هذا الكلام المتوسط مبطل لقول النصارى أن عيسى ابن الله، متمسكين بإطلاق لفظ النبوة على عيسى في الإنجيل.[3] فإنه إذا أطلق لفظ النبوة في التوراة على إسرائيل أيضًا، لم يبق لعيسى بها

=

وإني جدير بأني لا أقول على الله سوى القول الحق الذي أمرني به أو حريص على أني لا أقول على الله إلا القول الحق: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: أطلقهم من أسرك وقهرك واتركهم يعبدون الله ربهم وخل سبيلهم ليرجعوا معي إلى بلاد الشام، ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك أن أشراف قوم فرعون طلبوا منه أن يزيد في إيذاء بني إسرائيل وأن يحملهم على عبادة آلهته فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي قال الأشراف من قوم فرعون له، أتترك موسى وقومه ليفسدوا رعيتك بأن يحملوهم على عبادة ربِّ موسى ويرغبون في ذلك وينهوهم عن عبادة آلهتك؟ فأجابهم فرعون بقوله: سنقتل أبناءهم ونستحي نسائهم وإنا فوقهم قاهرون، أي غالبون مستعلون عاملون على قتل ذكورهم وإبقاء نسائهم. (بنو إسرائيل في القرآن والسنة صـ ٢٢).

(١) بالأصل (جمعي).

(٢) بياض بالأصل.

(٣) حكى القرآن الكريم كثيرًا من العقائد الباطلة والأقاويل الفاسدة التي رددها أهل الكتاب، ومن ذلك ما ذكر عن اليهود بأنهم قالوا: ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، وعن النصارى بأنهم قالوا: ﴿ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ وأن الفريقين قد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وأنهم أرادوا إطفاء نور الإسلام الذي عمَّ الآفاق وهدى الضالين ولقد رد القرآن الكريم على ما حكاه عن أهل الكتاب من انحراف في العقيدة والقول بما يبطل مزاعمهم ويثبت جهلهم وضلالهم فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ

=

اختصاص، وحينئذ فأخذ الأمرين لازم إما أن يكون اثنين لله سبحانه أو لا يكون واحد منهما ابنًا له والأولُ منتف بإجماع العقلاء، فتعين الثاني بل في هذا الكلام لفظ بكري.

والبكر أول الأولاد فتكون بنوة إسرائيل قبل بنوة عيسى، مع أن عيسى عندهم ابن أزلي قبل وجود إسرائيل وغيره.

السؤال على القراءة السادسة

كيف يحسن أن يقال: سوف ترى ما أفعله بفرعون لأنه سيرسلهم بيد عزيزة وذراع رفيعة يخرجهم من أرضه[1].

=

يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ١٠] المرجع السابق صـ ٥٨١.

(١) قال محمد بن إسحاق: رجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبًا مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر، فتابع الله عليه بالآيات فأخذ بالسنين فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يخرجوا ولا أن يعملوا شيئًا حتى جهدوا جوعًا، فلما بلغهم ذلك: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، فدعا موسى ربه فكشفه عنهم فلما لم يفوا له بشيء فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلم يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه، فما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشيء منه مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دمًا لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطا وقال زيد بن أسلم المراد بالدم: الرعاف رواه ابن أبي حاتم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦]. البداية والنهاية لابن كثير (٢٩٣/١).

مع أنه قال عقيبه: قل لبني إسرائيل إني أنا الرب وأنا أخرجكم من تجبر المصريين، وأخلصكم من العبودية، وأنقذكم بذراع رفيعة، وحكم عظيم وأبقيكم لي شعبًا، وأكون لكم إلهًا، فإنهما كلامان ظاهرهما التناقض، لأن الأول مقتضاه أن فرعون هو المخرج لهم بذراع رفيعة. والثاني: مقتضاه أن الله سبحانه هو المخرج لهم بذراع رفيعة.

وأيضًا فإن قوله: وأكون لكم إلهًا بلفظ الفعل المستقبل المعطوف على أخرجكم المستقبل كيف يحسن مع أن الله سبحانه وتعالى هو إلههم في الحال وفي الماضي.

السؤال على القراءة السابعة

كيف يحسن أن يقال: فقال الرب لموسى: قد أعطيتك أن تكون إلهًا لفرعون، وهارون أخوك يكون لك نبيًا[1].

فإن موسى ليس بإله بإجماع العقلاء، لا لفرعون ولا لغيره، واليهود والنصارى يسلمون بذلك بل الإلهية ثبوتها للبشر ممتنع ببديهة العقل[2] وأيضًا فإن هارون يمتنع أن

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣] أي وأجبنا سؤاله وشفاعه في أخيه فجعلناه نبيًا كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤]، وقال: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦]، وقال: ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء: ١٣-١٤] ولهذا قال بعض السلف ما شفع أحد في أخذ شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًا قال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣]، تفسير ابن كثير (١٢٩/٣).

(٢) قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، قال ابن كثير: أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس اعبدوني من دون الله أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى، ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته قال: ذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضًا يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٩]، وفي المسند والترمذي أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله ما عبدوهم؟ قال: «بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم».

=

يكون نبيًّا لموسى بل الممكن أن يكون نبيًّا لله سبحانه وتعالى.

السؤال على القراءة الثامنة

كيف يحسن أن يقال: وقال موسى لفرعون: هذا ما يقوله الرب إن في نصف هذه الليلة أنا أدخل في وسط مصر، ضرب كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الذي يجلس على الكرسي إلى بكر العبدة التي تجلس عند الرحى.

فإن الرب سبحانه وتعالى منزه عن الدخول في وسط مصر، فإن هذه صفة الأجساد، وهم والنصارى وإن قالوا بتجسد عيسى لا يمكنهم أن يقولوا بتجسد الرب سبحانه وتعالى.

وأيضًا فكيف يحسن أن يقال: والرب قسَّى قلب فرعون، فإن الله مراده هداية عباده لا ضلالهم.(١)

فإن قيل قسَّاه ليكثر الآيات فيراها الناس فيؤمنون، قلنا: وكيف يحسن أن يضل شخص ليهتدي غيره. إنهم بعد تقسيته رأوا الآيات وكفروا.

السؤال على القراءة التاسعة

كيف يحسن أن يقال: ويكون الدم علامة على البيوت التي أنتم تسكنونها، فأرى الدم وأغطي عليكم فلا يكون فيكم ضربة ولا كسر(٢).

=

فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام. تفسير ابن كثير (١/١٣٧٧).

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه: ٧٧-٧٩].

(٢) قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا

=

فإن الرب سبحانه عالم ببيوتهم لا يحتاج إلى علامة عليها. وأيضًا فقوله وأُعطي عليكم لا حاجة إليه. وأيضًا فقوله: وأنا أعبر في أرض مصر، قد تقدم السؤال على نظيره.

وأيضًا فأكل الخروف على هذه الصفة من شدة (الحقوين)[١]، ولبس الأحذية ومسك العصي بعجلة مشويًا، بفطائر (وسراير)[٢] مما لا يكاد يظهر له معنى. وأيضًا فتعليمهم أن يستعيروا من رفاقهم وجيرانهم أواني الفضة والذهب، وثيابهم ويخونوا أماناتهم فيها مما لا يكاد يقبله قواعد الشرائع.

السؤال على القراءة العاشرة

كيف يحسن أن يقال كما حلف لآبائكم أنه يعطيكم أرضًا تقطر اللبن والعسل[٣].

= عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦].

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسله مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة، والحجج البليغة القاهرة التي أراهم الله إياها عيانا وجعلها دليلاً وبرهانًا وكلما شهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا مما كانت قبلها وأقوى فيقولون فيكذبون، ويعدون ولا يفون ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، البداية والنهاية (١/ ٢٩٣).

(١) الحقو: هو الخصر، يقال أخذ بحقوه.

(٢) كذا بالأصل وبالنسخة التي بين يدي على أعشاب مُرة يأكلونه، وأظنها هنا ومرائر.

(٣) قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥٧].

اختلفت عبارات المفسرين في المنّ ما هو؟ فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، كان المن ينزل عليها على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك وإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء وهذا كله في البرية، وقال الربيع بن =

مع أنه ليس الأراضي المذكورة هنا بهذه الصفة، أعني أراضي الكنعانيين وأصحابهم بل هي كغيرها من الأراضي. وأيضًا فلم يتقدم فيما مضى من الوعد بإعطائهم أرض الكنعانيين اشتراط أن يأكلوا فطيرًا حتى يحيل هنا عليه ويقول: ولا تأكلوا خميرًا حتى يدخلكم الله إلى أرض الكنعانيين كما حلف لآبائكم.

السؤال على القراءة الحادية عشر

كيف يحسن أن يقال: وكان الله يسير أمامهم بالنهار بعمود سحاب يريهم الطريق، وبعمود نار في الليل، فإن الله سبحانه وتعالى منزه عن السير أمامهم(١)، وأيضًا

=

أنس: المنُّ شراب ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر يشبه بالسماني كانوا يأكلون منه، وقال السدي بسنده عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة السلوى طائر يشبه السماني.

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال: السلوى هو السماني، وكذا قال مجاهد والشعبي الضحاك والحسين وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله،وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك. تفسير ابن كثير ١/٩٥، ٩٦).

(١) قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ۝ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٣-٦٠]

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون في جنوده طالبًا بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل: كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم وكان عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف فالله أعلم.

وقيل: إن بني إسرائيل كانوا نحوًا من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستة وعشرين سنة شمسية،والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود، فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان، ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، وهم في غاية الخوف والذعر فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٢٦].

=

فقد قال بعد ذلك: وارتحل الملك الذي كان يسير قدام بني إسرائيل ومشى خلفهم، وانتزع عمود الغمام من قدام وجههم، ووقف وراءهم. فإن ظاهره، السائر ملك وليس هو الله تعالى فقد تناقض الكلامان.

وأما التسبيحة المذكورة أخيرًا ففيها من الركاكة الظاهرة ما يخيل أن تكون من كلام الله تعالى وأيضًا فإن التوراة نزلت على موسى مخبرة له ولبني إسرائيل فكان إخبار موسى بني إسرائيل بأنهم سبحوا بهذه التسبيحة كلامًا خاليًا عن الفائدة، فإنهم عالمون بأنهم سبحوا بها فيمتنع أن يكون الله أنزل هذه التسبيحة في التوراة.

السؤال على القراءة الثانية عشر

كيف يحسن أن يقال: ولقطوا فمنهم من استقلل ومنهم من استكثر، فكالوا كيلاً فلم يفضل لمن استكثر، ولم ينقص عمن استقلل. كل ما تعط واحد كفاف ما أكل[1].

ثم قال عقيبه: وقال لهم موسى لا تبقوا منه شيئا إلى الغد. فلم يطيعوا موسى واستفضلوا منه فداد ونتن فإنه إذا كان ما لقطه كل واحد كفاف ما أكل لم يفضل منه شيء. فكيف يصح أن يقال استفضلوا منه[2]، فهذا تناقض ظاهر.

=

ثم ذكر ابن كثير ما كان من أمر الله لموسى بضرب البحر بعصاه إلى آخر كلامه. انظر البداية والنهاية لابن كثير (١/٢٩٨).

(١) قال السدي: قالوا يا موسى كيف لنا بما ههنا أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على شجرة الزنجبيل، وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك فإذا تعدى ذلك فسد، ولم يبق حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء وهذا كله في البرية. تفسير ابن كثير (١/٩٥).

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (١/٩٧)، قال وهب بن منبه سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام لحمًا فقال الله لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض فأرسل عليهم ريحًا فأذرت عند مساكنهم السلوى وهو السماني مثل ميل في ميل قيد رمح في السماء فخبئوا للغد فنتن اللحم وخنز الخبز، وقال السدي: أنزل عليهم المن فكان ينزل على شجر الزنجبيل والسلوى هو طائر يشبه السماني أكبر منه فكان يأتي أدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينًا ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه قالوا هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فشرب كل سبط من عين فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم

=

وأيضًا فقوله: ودعا بنو إسرائيل اسمه المن وكان لونه أبيض مثل حب الكزبرة، وكان طعمه مثل الشهد. وكان تشبيه لونه بحب الكزبرة من أعجب التشبيهات بل صوابه ما تقدم أنه مثل الجليد، وأيضًا فقوله: وكان إذا رفع موسى يديه تغلب بنو إسرائيل، وإذا خفض يديه تغلب العمالقة، فتعبت يدا موسى، فأخذ حجارة ووضعها وجلس عليها، وهارون وحور يدعمان يديه واحد من ههنا وواحد من ههنا، وكانت يداه مرتفعتين إلى أن غربت الشمس وأهلك يشوع عماليق وقومه بحد السلاح. فإن رفع يدي موسى هكذا إلى أن تعبت ودعهما برجلين حتى يبقى كأنه مصلوب(١).

هذا مما تكاد لا تقبله العقول، فإن النصر من عند الله. فإن كان ثم دعاء إلى الله تعالى أوهمه، فنعم وأما هذه الصورة المنكرة، فلا، وكان الشعب يقومون عند رأس موسى من حين يصبحون إلى حين يمسون مما لا وجه له كما أنكره حمو موسى(٢).

= ثوب فذلك قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقوله: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

(١) قال ابن كثير: ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبارين، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة، ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين، ولكن فيها أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار، وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمة، ورفع موسى عصاه فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم.
وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك وجعل هارون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس فانتصر حزب يوشع عليه السلام. البداية والنهاية (٣٠٧/١).

(٢) هو يثرون كاهن مدين بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون فقدم على موسى مسلمًا ومعه ابنته صفورا زوجة موسى وابناها منه جرشون وعازر، فتلقاه موسى وأكرمه واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظموه وأجلوه، وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفاء يبغضون الرشاء والخيانة فيجعلهم على الناس رءوس ألوف، ورءوس مائتين ورءوس خمسين ورءوس عشرة فيقضوا بين الناس، فإذا أشكل عليهم جاءك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم ففعل ذلك موسى عليه السلام، قالوا: ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء في =

وأما عذره بأنه إذا كان لهم مسألة يأتوني فأقضي بين الرجل وبين صاحبه، فمسلم ولكنه لا يقع، فالمسألة والنزاع بين كل رجل منهم وبين صاحبه هذا مما لا يكون أصلاً.

وأما رأي حمو موسى في مشورته عليه أن يقيم رءوس الآلاف، ورءوس مائتين، ورءوس عشرات من بني إسرائيل للتحاكم في الأمور السهلة، فصواب ولا نظن أنه يخفى على موسى.

السؤال على القراءة الثالثة عشر

كيف يحسن أن يقال موسى يتكلم مع الله، والله يجيبه بالصوت (١).

وهبط الله في الغمام على طور سيناء إلى رأس الجبل، ودعا الله موسى إلى أعلى الجبل يصعد إليه، فإن الله منزه عن الصوت، وعن الهبوط فإنهما من صفات الأجساد

=

الشهر الثالث من خروجهم من مصر وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم وهي أول فصل الربيع فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف والله أعلم (البداية والنهاية ١/٣٠٨).

(١) عندهم في كتاب التوراة أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله ولم يفهموه حتى فهمهم موسى وجعلوا يقولون لموسى: بلغنا أنت عن الرب عز وجل، فإنا نخاف أن نموت فبلغهم عنه فقال: هذه العشر الكلمات وهي الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن الحلف بالله كاذبًا، والأمر بالمحافظة على السبت ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السبت أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض الذي يعطيك الله ربك لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على صاحبك شهادة زور، لا تمد عينيك إلى بيت صاحبك ولا تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حمارة ولا شيئًا من الذي لصاحبك، ومعناه النهي عن الحسد، وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن وهما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣] المرجع السابق (١/٣٠٨-٣٠٩).

عندنا. والله عند اليهود (وقت)[١]، إذ ليس بمتجسد، وعند النصارى ليس بمتجسد، بل المتجسد الابن عندهم.

وأيضًا فقوله في الكلمة الأولى من العشر كلمات لا يتخذ صورة ولا تماثيل، ما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض. ولا تسجد لهن ولا تعبدهن، إني أنا ربك الغيور تصريح بتحريم اتخاذ الصورة[٢] والسجود لها.

وأيضًا فقوله في الكلمة الثالثة: فاستراح في اليوم السابع مشكل، فإن الله سبحانه وقت إذ منزه عن الاستراحة لعدم تجسده حينئذٍ باتفاق الشرائع.

(وجد في هذا الموضع حاشية مخرجة عليها (الجلا)[٣] وهي حاشية لطيفة، ولم يوجد لها موضعُ تخريج وفيها شيء مطموس منع ارتباطها بالأصل)[٤].

وأيضًا فقوله بعد الكلمة العاشرة، وكان جميع الشعب يسمعون الصوت، متناقضٌ. مع قوله عقيبه، وقالوا لموسى: كلمنا لنسمع، ولا يكلمنا الله فنموت، لأنهم

(١) كذا بالأصل.

(٢) قال النووي: قال أصحابنا وغيرهم من العلماء تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث وسواء صنعه بما يمتهن أو بغيره فصنعته حرام بكل حال لأن فيه مضادها لخلق الله تعالى وسواء ما كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها وأما تصوير صورة الشجر ورحال الإبل وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام، هذا حكم نفس التصوير، وأما اتخاذ المصور فيه صورة حيوان فإن كان معلقًا على حائط أو ثوبًا ملبوسًا أو عمامة ونحو ذلك مما لا يعد ممتهنًا فهو حرام، وإن كان في بساط يداس ومخدة ووسادة ونحوها مما يمتهن فليس بحرام، ولكن هل يمنع دخول ملائكة الرحمة ذلك البيت فيه كلام، ولا فرق في هذا كله بين ما له ظل وما لا ظل له هذا تلخيص مذهبنا في المسألة وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو مذهب الثوري ومالك وأبي حنيفة وغيرهم، وقال بعض السلف، إنما يُنهى عما كان له ظل ولا بأس بالصور التي ليس لها ظل وهذا مذهب باطل فإن الستر الذي أنكر النبي ﷺ الصورة فيه لا يشك أحد أنه مذموم وليس لصورته ظلٌ مع باقي الأحاديث المطلقة في كل صورة. (النووي في شرح مسلم ١٤/٧٠)، طبعة دار الكتب العلمية.

(٣) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٤) وجدناها بالهامش.

إذا سمعوا جميعهم صوته سبحانه ولم يموتوا. فكيف يقولون ولا يكلمنا الله فنموت، فحاصله أن سماع كلام الله يوجب الموت ولا يوجبه.

وأيضًا فقوله عقيبه: ودنا موسى من الضباب الذي فيه الله مشكل، فإنه سبحانه منزه عن ذلك كما تقدم.

السؤال على القراءة الرابعة عشر

كيف يحسن أن يقال: وقال الله لموسى هكذا قل لبني إسرائيل إنكم قد رأيتم أني كلمتكم من السماء(١).

فإن هذا متناقض كما تقدم من وجوه:

أحدها: أنه تقدم أنه سبحانه وتعالى لم يكلمهم بل كلم موسى فقالوا لموسى كلمنا لنسمع ولا يكلمنا الله فنموت.

وثانيها: أنه سبحانه لم يكلمهم ولا كلم موسى من السماء. بل تقدم أنه هبط على طور سيناء، وتكلم منه لا من السماء.

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢، ١٤٣] قال ابن كثير، فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل الجليل وهو ابن أمه وأبيه ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه فوصاه وأمره وليس في هذا لعلوّ منزلته في ثبوته منافاة قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه: ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ أي كلمه الله من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأدناه، وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ومنصب شريف ومنزل منيف فصلوات الله عليه تترى وسلامه عليه في الدنيا والأخرى، ولما أعطي هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القوي البرهان ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتًا وأشد ثباتًا من الإنسان لا يثبت عند التجلي من الرحمن ولهذا قال ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ . البداية والنهاية (١/٣١١).

وثالثها: أنه كونه يكلمهم أو يكلم موسى يسمع بالأذن لا يرى بالعين وأيضًا فقوله: وإن ارتهنت ثوب صاحبك فردّه إليه قبل أن تغيب الشمس، مشكل، لأنه إن أريد بالثوب مع بقاء الدين ضاعت مصلحة المرتهن، وإن أريد ردُّه مع وفاء الدين قبل الغروب عجز عنه الراهن، إن كان تصرف في الدين وفاتت المصلحة.

السؤال على القراءة الخامسة عشر

الأمر أن يعمل هذه القبة[1] على هذه الهيئة، يعني قبة الزمان، مما يتنزه عنه الإله سبحانه وتعالى ولا سيما وقد قال وأكلمك من فوق الغشاء من بين الكاروبيين الذين فوق تابوت الشهادة فقال: وكلم الربُّ موسى وقال له: قل لبني إسرائيل فليختصروا لي من كل رجل ما نوى في قلبه، فلأنها خاصة لله، وهذه الخاصة التي يأخذون منهم ذهبًا وفضة وصبغًا أخضر وأرجوانًا وغزل كتان وشعر الغنم وجلود الكباش، وخشب الشمشار، ودهن السرج وطيب المسح، وبخورة الدخنة، وحجارة البلور والحجارة الجياد المدرعة والرداء.

---

(١) قال ابن كثير بعد أن ذكر ما قاله أهل الكتاب في كتبهم بمثل ما ذكره المصنف وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جدًا وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم وكيفيته وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها وأن موسى ﷺ كان إذا دخلها يقفون عندها وينزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجدًا لله عز وجل ويكلم الله موسى ﷺ من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبيين، فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهي، وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء يجئ إلى قبة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة وقد كان هذا مشروعًا لهم في زمانهم أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ في معبدهم وعند مصلاهم، فأما ما في شريعتنا فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب ﷺ لما وسع في مسجد رسول الله ﷺ الذي وكله على عمارته: «ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس» وقال ابن عباس لا نزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم، وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم إذ جمع الله هممهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة فلله الحمد والمنة. البداية والنهاية (١/٣٣٦، ٣٣٧).

وليصنعوا لي مقدسًا وأحل بينهم، وأنظر إلى كل شيء أريتك من مثال القبة وأبنيتها، فليصنعوا كذلك وليصنعوا تابوتًا من خشب الشمشار طول ذراعين ونصف. وفي نسخة ذراعان ونصف، واطله بذهب خالص من خارجه ومن داخله، واصنع له إكليلاً من ذهب يحوط به. واصنع له أربع حلق من ذهب في أربعة جوانبه من هذا الجانب حلقتين، ومن الجانب الآخر حلقتين(١).

واصنع عمودين شبه الرمان من خشب الشمشار واطلهم بالذهب، وادخل الرمان في الحلق على جانبي التابوت، ومحمل بهم التابوت، وليكن الرمان في حلق التابوت لا يبارحها، وتجعل في التابوت الشهادة التي أعطيتك.

ويصنع موضع غفران من ذهب نقي طوله ذراعين ونصف، وعرضه ذراع ونصف.. واصنع كاروبين من ذهب سبك وتحملهما على كلا جانبي موضع الغفران الغشاء واصنع الكاروبين، أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، ولتكن أجنحة الكاروبين مبسوطة من فوق، ويسترون على موضع الغفران الذي هو الغشاء بأجنحتها، ووجهاها متقابلين بعضها إلى بعض.

وضع الغشاء على التابوت(٢)، من فوق وضع التابوت الشهادة، كما أوصيتك

---

(١) كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه يصلون إليه وهي قبلتهم وكعبتهم وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام، ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام، فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمر بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام وهو الذي دخل بيت المقدس، ولما استقرت يده على بيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة ببيت المقدس، فكانوا يصلون إليها فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة، وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس، فصلى إليها ستة عشر، وقيل سبعة عشر شهرًا، ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر، وقبل الظهر. البداية والنهاية (٣٣٧/١).

(٢) هو والله أعلم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨] عن ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، وقال =

على بني إسرائيل، وأهل الشهادة التي أعطيتك في التابوت، وأتراءى لك، وأكلمك من فوق الغشاء من بين الكاروبيين الذين فوق تابوت الشهادة.

وكل شيء أوصيك يعملوا بني إسرائيل، واصنع مائدة من خشب الشمشار، طولها ذراعين وعرضها ذراع، وارتفاعها ذراع ونصف واجعل ضباتها من ذهب خالص. واصنع لها إكليلاً من ذهب إلى غير ذلك من التطويلات في السرق والاشتغال بزخارف الدنيا الفانية الشاغلة عن الله تعالى(١).

السؤال على القراءة السادسة عشر

إن تكليف موسى أن يتخذ لهارون لباس القدس على الهيئة المذكورة، يتنزه عنه

= السدي: أصبح التابوت في دار طالوت فآمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا طالوت. انظر تفسير ابن كثير (١/٣٠١).

(١) كان خروج بني إسرائيل من مصر حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وبعد أن رأوا غرق فرعون بأعينهم سار بهم موسى عليه السلام إلى أرض فلسطين بالشام، مؤملاً أن يصبحوا أمة قوية بإيمانها، وصالح أعمالها، فقد ترتب على خروجهم من مصر وهلاك فرعون أمام أعينهم أن أصبحوا أحراراً في شئونهم وأحوالهم بعد أن كانوا يذوقون في مصر سوء العذاب على أيدي فرعون وجنده، يقول صاحب تاريخ الإسرائيليين وقد كان تاريخهم إلى وقت خروجهم من مصر، تاريخ أسرة صغيرة أخذت تنمو وتزداد حتى صارت قبيلة كبيرة لا كيان لها ولا حكومة منها، ولا شارع أو وازع فيها ينظر في أمورها، ويرد قويها عن ضعيفها، متفرقة في أرض مصر عرضة للعبودية والسخرة والاستبداد والإهانة، أما بعد الخروج فإنهم تألفوا شعبا واحدًا وأمة واحدة لها قائدها من بنيها، وجيش يقوم على حمايتها وحاكم يتولى أمورها وشئونها وأخذت تبدو فيها صفات الأمة المستقلة فإنها لم تكد تغادر مصر حتى بدأ الشارع في سن النواميس والقوانين، والشرائع الدينية والأدبية والمدنية، كما تكون في الأمة المستقلة القائمة بنفسها وعليه فتاريخ الإسرائيليين لا يبتدئ إلا بعد خروجهم من مصر، وتاريخهم هذا يستغرق قرونًا عديدة، اتفق لهم من خلالها كثير من الحوادث العادية من حروب وتقدم وانحطاط.

ولكن بني إسرائيل لم يقدروا نعمة الحرية ولم يشكروا الله على إنجائه لهم من عدوهم ولم يطيعوا نبيهم موسى عليه السلام الذي جاء لهدايتهم وإصلاحهم والدفاع عنهم، بل آذوه إيذاء شديدًا، وهذه بعض القبائح التي صدرت عنهم وهم في طريقهم معه إلى أرض الشام، ثم ذكر ما حدث منهم من تمردهم على موسى وهارون عليهما السلام، وطلبهم عبادة العجل وما فعلوه بعد ذهاب موسى إلى الطور فانتهزوا لين جانب هارون عليه السلام فعبدوا عجلاً جسدًا له خوار صنعه لهم السامري. انظر بنو إسرائيل في القرآن والسنة صـ ٢٧، ٢٨، وتاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس (صـ ١٥).

الإله سبحانه وتعالى فقال: واتخذ لهارون أخيك لباس القدس للكرامة والمجد. وأنت فأمر جميع حكماء القلوب الذين ملأتهم روح الحكمة والفهم فيعملوا لهارون لباس القدس والتقديس وليكهن لي. وهذا اللباس الذي يعملونه سراويل وجبة ورداء وسربال من كتان وعمامة ومنطقة، فيعملوا لباس القدس لأخيك هارون وبنيه ليكهنوا لي وليأخذوا من الذهب والخز والأرجوان وصبغ القرمز وغزل الكتان، فيعملوا ذراعه الدمقسي[١] من ذهب وخز وأرجوان وصبغ قرمز، وغزل كتان، عمل صانع حاذق. وليكن أكمامها ملتصقين من جانبيها، ولتصف منطقة الجبة عليها، ولتكن المنطقة منسوجة منها على عملها من ذهب وخز وأرجوان وصبغ القرمز وغزل الكتان.

وخذ حجرين (بلوزا)[٢] انقش عليهما أسماء بني إسرائيل[٣]، وانقش على فصٍّ واحد ستة أسماء، والستة الأسماء الباقية انقشها على الفص الآخر، كنسبهم وأفخاذهم،

---

(١) الدمقس: الحرير، دمقس الثوب: نسجه بالدمقس فهو مدمقس.

(٢) كذا بالأصل والنسخة التي بين أيدينا من خشب اللوز.

(٣) خلال سير موسى بقومه في صحراء سيناء إلى بلاد الشام واعد الله موسى أن يعطيه التوراة لتكون هدى لبني إسرائيل بعد أربعين يومًا يصومها، فلما حل الموعد ترك موسى بني إسرائيل مستخلفًا عليهم أخاه هارون وذهب إلى الطور لتلقي التوراة، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك فقال تعالى: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]قال الإمام ابن كثير: يقول تعالى ممتنًا على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، قال المفسرون: فصامها موسى عليه السلام فلما تم الميقات استاك إذا دخلوا إلى قبة الشهادة فيغسلوا أيديهم وأقدامهم أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر: عشر ذي الحجة، قاله مجاهد ومسروق وابن جريج.

وروي عن ابن عباس وغيره، فعلى هذا يكون قد كمل ميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام، فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ [طه: ٨٠]، فحينئذٍ استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله له وجاهة وصلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء. تفسير ابن كثير (٢/٢٤٣).

عمل نقاش حاذق، فيكونا منقوشين كنقش الخاتم وانقش على الفصين أسماء بني إسرائيل فيكونا مغلفين بحلق من ذهب، وصير الفصين على مناكب الجبة. إلى غير ذلك من السرف وأنواع الزخرفة الشاغلة عن الحق سبحانه إلى أن قال: وصب فيها ماء فيغسل منها هارون وبنيه أيديهم وأقدامهم بلحاء شجرة فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر لكيلا يموتوا مع أن الغسل لا يمنع عنهم الموت.

السؤال على القراءة السابعة عشر

كيف يحسن أن يقال: وأعطى لموسى لما فرغ من كلامه لهم من طور سيناء لوحي الشهادة لوحين من حجارة مكتوب عليها بأصبع الله، مع أن الله سبحانه وتعالى عند اليهود والمحققين من المسلمين منزه عن الأصبع وسائر الجوارح وسيذكر بعده أن اللوحين من عمل الله، وخط الله مكتوب عليها، وأيضًا فإن الحجارة لا تنزل من السماء، بل الأنبياء تتلقى الوحي من الله سبحانه أو من الملك أو في المنام أو بالإلهام[١] وأيضًا فإنه قال عقيبه: فنزع الشعب الأقرطة التي في آذانهم، فأتوا بها إلى هارون فأخذ هارون ذلك فصور منه تمثالاً، وعمل منه عجلاً مفرغًا مصبوبًا. وكيف يليق بهارون ؑ أن يصور عجلاً من ذهب تتخذه بنو إسرائيل إلهًا فإن هذا كفر[٢]، وأن الأنبياء

(١) قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].
هذه هي مقدمات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئًا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل ﴿ أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]، كما كلم موسى ؑ فإنه سأل الرؤية بعد التكلم فحجب عنها، ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٥١] كما ينزل جبريل ؑ وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. تفسير ابن كثير (١٢٢/٤).

(٢) لقد حصل منهم أنهم انتهزوا لين جانب هارون ؑ معهم فعبدوا عجلاً جسدًا له خوار، صنعه لهم السامري من حلي نسائهم التي استعاروها من قبط مصر، وحاول هارون أن يصدهم عما ترددوا فيه من ضلال وكفر، ولكنهم أعرضوا عنه قائلين كما حكى القرآن الكريم عنهم في سورة طه: ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٩١] فلما اشتد عليهم في النهي عن عبادة العجل تطاولوا عليه وكادوا يقتلونه.
وأعلم الله تعالى موسى ؑ أن قومه قد فتنهم السامري بعبادة العجل فعاد إليهم مغضبا حزينًا وأخذ يوبخهم بقوارص الكلم وينذرهم بسوء المصير فاعتذروا إليه بأن السامري هو =

معصومون عنه وأيضًا فإنه قال: فقال لهم موسى: هكذا يقول الرب إله إسرائيل: ليتقلد المرء منكم سيفه وجوزوا من باب إلى باب، وحرفوا العسكر وليقتل المرء منكم أخاه وصاحبه وقريبه. فصنع بنو لاوي كما أمرهم موسى فقتل من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل.

وأين هذا من قوله فيما تقدم لا يشتد غضبك يارب على شعبك الذي أخرجتهم من مصر بقوتك العظيمة وبذراعك العالية الرفيعة ولا يقول أهل مصر إنك إنما أخرجتهم لهلاكهم لتقتلهم بين الجبال، ولتستأصل ساعتهم. وأين هذا أيضًا من قوله فيما يأتي: إن أنت غفرت لهم خطاياهم، وإلا محاني من سفرك الذي كتبت. ما أراد إلا يناقض ما تقدم وما يأتي.

السؤال على القراءة الثامنة عشر

كيف يحسن أن يقال: قال الرب لموسى اصعد فانطلق من ههنا أنت وشعبك الذي أخرجتهم من أرض مصر[1] إلى الأرض التي أقسمت لها لإبراهيم وإسحاق

= الذي أضلهم، وظن موسى عليه السلام أن أخاه هارون قد قصر معهم فعاتبه ولامه على ذلك فأخبره عن عبادة غير الله، ولكنهم لم يستجيبوا له بل آذوه وكادوا يقتلونه، ثم صب موسى عليه السلام جام غضبه على السامري رأس الفتنة ومدبرها، فأحرق العجل وألقى ترابه في البحر وأثبت للجميع أن المستحق للعبادة إنما هو الله تعالى، وأوحى الله تعالى إلى موسى بعد ذلك أن توبة عابدي العجل من قومه لن تكون مقبولة منهم، إلا بقتلهم لأنفسهم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٧]، (انظر بنو إسرائيل في القرآن والسنة صـ ٢٩، ٣٠).

(١) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا =

ويعقوب، ووعدتهم أن أعطيها نسلهم من بعدهم، فأرسل ملكي بين يديك، فيقتل ويبيد الكنعانيين.

ثم قال: لأني أصعد معكم لأنكم شعب قاسية قلوبكم، فلعل غضبي أن يشتد عليكم فأقتلكم في الطريق.

ثم قال عقيبه: فقال الرب لموسى: قل لبني إسرائيل إنكم قوم قاسية قلوبكم، فإن صعدت معكم ساعة واحدة استأصلتكم وأيدتكم(١).

فإن هذا مشكل من وجوه: أما أولاً: فلأنه يقتضي صحة الصعود، ومعهم إلى أرض كنعان، وهي من خواص الأجسام، والله سبحانه منزه عن ذلك. واليهود يسلمون تنزهه عنه.

وأما ثانياً: فلأنه يوهم إذا صعد معهم (...)(٢) على خطاياهم الناتجة عن قساوة قلوبهم فيعاقبهم بقساوتهم، فترك الصعود كيلا يطلع عليها فلا يعاقبهم، والله سبحانه وتعالى

=

وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٥].

(١) في نكول بني إسرائيل عن الجهاد، قال في البداية والنهاية (٣٠٥/١) يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم وإحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ [المائدة: ٢١]، أي تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم ﴿ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ أي فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسًا وأكثر جمعًا وأعظم جندًا ثم قال ابن كثير. قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي بالإسلام والإيمان والشجاعة: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ فصمم ملاؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ قال ابن عباس: اقض بيني وبينهم، ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾

(٢) بياض بالأصل.

منزه عن ذلك فإنه سبحانه مطلع عليهم وعلى أحوالهم مطلقًا لا يخفى عن علمه شيء.

وأما ثالثًا: فإنه قوله: فإن صعدت معكم ساعة واحدة استأصلتكم يوحي بأنه لا يملك غضبه، ويقع إهلاكهم ضرورة وذلك باطل، لأنه سبحانه حكيم فعال لما يريد.

فإنه قد صدر منهم قبل هذا أشياء قبيحة كعبادة العجل[1] وغيرها، ولم يهلكهم.

وأيضًا فقوله وإذا دخل موسى القبة، كان ينزل عمود السحاب، فيقف على القبة ويكلم موسى.

إن أريد أن عمود السحاب يكلم موسى فهذا ظاهر البطلان، وإن أريد أن الله سبحانه ينزل في العمود فيكلمه، فإنه سبحانه منزه عن النزول إلى خدمة موسى.

وأيضًا قوله: وكلم الرب موسى مواجهة كما يكلم الرجل أخاه وصاحبه.

يوهم الجهة والتحيز والجسمية، والله سبحانه منزه عن ذلك.

وأيضًا فقوله: وقال الرب لموسى: انطلق إلى ذلك الموضع من الجبل، إن هذا الموضع بين يدي، فقف على الصخرة، فإذا جاز مجدي أسكنك مغارة الصخرة، وأستر يدي عليك حتى أجوز، وأجير يدي فترى خلفي، لأن وجهي لا يرى[2].

---

(١) ذكر الله تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة وهو تعالى عنها، فعمد رجل منهم يقال له: هارون السامري فأخذ ما كان استعاره من الحلي فصاغ منه عجلاً وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي، ويقال: إنه استحال عجلاً جسدًا أي لحمًا ودمًا حيًا يخور، قال قتادة وغيره: وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة فيرقصوا حوله ويفرحوا: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨]، أي فنسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو ههنا تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وهباته. البداية والنهاية لابن كثير (١/٣١٤).

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، بين الله تعالى أن موسى لن يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتًا وأشد ثباتًا من الإنسان لا يثبت عند التجلي من الرحمن ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، وفي الكتب المتقدمة أن الله =

فإن هذا تجسيم يتنزه الرب سبحانه عنه، وأيضًا فمتى كان له وجه وخلف، وأمكن أن يرى خلفه، ضرورة إذ وجهه لا يكون شنيعًا بالإجماع أحسن من خلفه.

السؤال على القراءة التاسعة عشر

إن هذه القراءة على طولها وهي سبع ورقات ليس فيها سوى تكرار صفة قبة الزمان ولباس القدس، وقد عرف حاصلها فيما تقدم.

السؤال على القراءة العشرين

إن حاصلها تكرار هيئة قبة الزمان وقد عرف. تم السفر الثاني.

السؤال على القراءة الأولى من السفر الثالث وهو سفر اللاويين(١)

كيف يحسن أن يقال: وإن كان قربانه ذبيحة تامة للرب، وقرب فليقرب قربانًا لا عيب فيه ذكرًا كان أو أنثى، ويضع صاحب القربان يده على رأس قربانه، ثم يذبحه على باب قبة الزمان.

فقال هنا ذكرًا كان أو أنثى مع أنه قد ذكر في أول القراءة أن القربان لا يكون إلا ذكرًا لأنه قال: وقل لهم كل إنسان منكم إذا قرب للرب قربانًا من البهائم فلتكن

=

تعالى قال له: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حجابه نور» وفي رواية « النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾، قال مجاهد: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقًا، فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا. البداية والنهاية (١/٣١١، ٣١٢).

(١) سفر اللاويين معظمه يدور حول شئون العبادات والوصايا والأحكام والطقوس والأعياد والنذور، واللاويون هم نسل لاوي أحد أبناء يعقوب عليه السلام، ومنهم موسى وهارون عليهما السلام، ونسب هذا السفر إليهم لأنهم كانوا سدنة الهيكل وحفظة الشريعة، ومعظمه يدور حول ما يشرفون عليه من عبادات ومعاملات. بنو إسرائيل في القرآن والسنة (صـ ٧٢).

قرابينكم من الثيران والغنم، فإن كان قربانه من الثيران، فليكن ذكرًا لا عيب فيه.(١)

ثم قال بعده: وإن كان قربان من الغنم فليكن من الحملان، أو من المعز، وليقربه ذكرًا نقيًا لا عيب فيه، ويذبحه عند حافة المذبح. فقد تناقض الكلامان.

السؤال على القراءة الثانية

كيف يحسن أن يقال: وإن أخطأت نفس من الشعب، وغلطت وعملت شيئًا مما حرم عليها فعله، (وامتحت)(٢) إذا عرفت جرمها الذي أجرمته تأتي بقربانها شاة من المعز أنثى لا عيب فيها. مع أنه قد تقدم في أول القراءة الأولى أن القربان لا يكون إلا ذكرًا.

وأيضًا فقد ذكر قبيل هذا في هذه القراءة قوله: وإن أجرم عظيم من عظماء آل إسرائيل وارتكب شيئًا من الوصايا التي (حرب)(٣) فيها، ويفعل ذلك غلطًا أو نسيانًا ويستحي فإن عرف الجرم الذي أجرم، يقرب قربانًا تيسًا من ذكر لا عيب فيه، فقد تناقض الكلامان.

السؤال على القراءة الثالثة

كيف يحسن أن يقال: ثم قال موسى لهارون(٤): ادن من المذبح فقرب خطيئتك

---

(١) قال الحنفية: لا تصح الأضحية بالعمياء ولا بالعوراء، ولا بالعجفاء وهي المهزولة التي لا مخ في عظامها، ولا بالعرجاء التي لا تستطيع المشي إلى المذبح، أما العرجاء التي تمشي بثلاث قوائم وتضع الرابعة على الأرض لتستعين بها على المشي، فإنها تجزئ وكذا لا تصح بمقطوعة الأذن أو الذنب أو الإلية إذا ذهب أكثر من ثلثها، ولا تصح بالهتماء إلا إذا بقي أكثر أسنانها، ولا تصح بالسكاء التي لا أذن لها ولا بمقطوعة رءوس الضرع ولا بالتي انقطع لبنها.

وقال المالكية: لا تصح بالعمياء ولا بالعوراء والمعتبر في العمى والعور ذهاب ضوء العين وإن بقيت صورتها ولا تصح بالمريضة التي لا تستطيع أن تتصرف كتصرف السليمة، ولا تصح بالجرباء، ولا بالمجنونة ولا بالمهزولة ولا بالعرجاء عرجًا بينًا يمنعها من مسايرة أمثالها. الفقه على المذاهب الأربعة (١/٦٢٠).

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كذا بالأصل.

(٤) يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام في جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فرارًا من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

=

بالذبيحة التي تحرق كلها.

فإنه إنما يقرب الذبيحة بخطيئة أو سبب خطيئة أو لخطيئة، ولا يقرب خطيئة بالذبيحة فإن الصواب عكسه، كما قال عقيبه: ثم قرب قربان الشعب، ولم يقل خطيئة الشعب.

وأيضًا فقوله: وأخذ ابنا هارون ناداب، وأبيهو كل امرئ منهما مجمرته وجعل فيها نارًا، وجعل فيها بخورًا، وبخرا أمام الرب بنار غريبة في غير وقت البخور، وفعلا

=

[القصص: ٣٣-٣٤]، أي اجعله معي معينًا وردءًا ووزيرًا يساعدني ويعينني على آداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لسانًا وأبلغ بيانًا، قال الله تعالى مجيبًا إلى سؤاله: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي برهانا ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ أي فلا ينالون منكما مكروهًا بسبب قيامكما بآياتنا، وقيل ببركة آياتنا: ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ وقال في سورة طه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ [طه: ٢٤-٢٨] قيل: إنه أصابه في لسانه لثغة بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه التي كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله، فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفل فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده على الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكلية، قال الحسن البصري، والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ولهذا بقيت في لسانه بقية ولهذا قال فرعون قبحه الله فيما زعم أنه يعيب به الكليم: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي يفصح عن مراده ويعبر عما في ضميره وفؤاده، ثم قال موسى عليه السلام: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٩-٣٦] أي قد أجبناك إلى جميع ما سألت وأعطيناك الذي طلبت وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحي إليه وهذا جاه عظيم قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩]،وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣]، وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون طريق الحج: أي أخ أمن على أخيه؟ فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه قال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ . البداية والنهاية لابن كثير (١/٢٧٥، ٢٧٦).

ما لم يؤمرا به فنزلت نار من الله فأحرقتهما، وماتا أمام الرب مشكل جدًا، فإنهما إذا جعلا ما لم يؤمرا به لاستحقا العقاب، وإلا لاستحق العباد العقاب على فعل المناجاة كلها لأنهم لم يؤمروا بها، صار المباح محرمًا، وبطلت القواعد وإنما يستحقانه لو فعلا ما نهيا عنه، أو تركا ما أُمروا به. وهذه قاعدة ظاهرة معروفة.

وأيضًا فقوله عقيبه: ودعا موسى ميشاييل والصافان بن (عزييل)[1] عم هارون وقال لهما: تقدما واحملا أخويكما من قدام القدس مشكل لأنه حقيقة أن يقال: واحملا ابني وابن أخي أبيكما، أو يقول لليعازر، وإيثامار ابني هارون اللذين بقيا احملا أخويكما.

السؤال على القراءة الخامسة

ولم أجد في هذه النسخة ترجمة للرابعة، أنه قال: والخنزير الذي له أظلاف، ولا يجتر محرم عليكم فلا تأكلوا من لحوم هذه البهائم، ولا تمسوا لحومها، لأنها نجسة محرمة عليكم فهذا صريح في تحريم الخنزير[2] وتنجيسه كالجمل، مع أن النصارى يحللونه ويحكمون بطهارته ويأكلونه وليس في الإنجيل ما ينسخ هذا النص، فقد خالفوا كتابهم بلا دليل.

وأيضًا فقوله بعده: وكل حي في الماء ليس له أجنحة وقشور، هو نجس محرم عليكم، هو صريح في تحريم ثعبان الماء وتنجيسه[3] مع أن النصارى يحكمون بحله

(١) بالأصل والنصفي ابني قوريل ونقلناه من النسخة التي بين يديك.

(٢) قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ٣].

قال ابن كثير: قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي الطفيل قال: نزل آدم بتحريم أربع: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ وإن هذه الأربعة أشياء لم تحل قط ولم تزل حرامًا منذ خلق الله السموات والأرض فلما كانت بنو إسرائيل حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بذنوبهم فلما بعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام نزل بالأمر الأول الذي جاء به آدم وأحل لهم ما سوى ذلك فكذبوه وعصوه.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٨٣)، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، عن أبي هريرة يقول سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ « هو الطهور ماؤه الحل ميتته»
=

وطهارته، ويأكلونه بلا دليل، فقد خالفوا صريح كتابهم.

وأيضًا فقوله: وما لم يكن له أظلاف من البهائم ولم يجتر فهو نجس محرم عليكم، ومن مسها منكم يكون نجسًا إلى العشاء.

فإن مقتضاه أن الفرس محرمة نجسة، وليست عندهم كذلك، فقد خالفوا نص كتابهم.

السؤال على القراءة السادسة من السفر الثالث

كيف يحسن أن يقال: فإذا كملت أيام تطهيرها[1] ابنًا ولدت أو ابنة، تأتي بخروف حولي لا عيب فيه للذبيحة الكاملة وبمائتين وفرخي حمام من أجل الخطيئة، وتأتي بها إلى باب قبة الشهادة.

فإن الولادة ليست بخطيئة، بل هي من سنن الشرائع، وإذا ولدت المرأة مولودًا يعبد الله تعالى، كان لها نصيب من الأجر بإجماع أرباب الشرائع، والمناسب له أن يكون هذا شكرًا على النعمة لا تكفيرًا للخطيئة.

السؤال على القراءة السابعة من السفر الثالث

أنه قال: من كان به برص[2] تكن ثيابه مخرقة، وتكن رأسه مغطاة، ويغطي شفتيه بيده أو يمسك أنفه ويستر شفتيه بيده التي يمسك بها أنفه ويدعو نفسه نجسًا، لأنه نجس ما دامت ضربة البرص فيه.

ويجلس لا يختلط مع الناس[3] لمكان نجسه، ويكون مسكنه خارجًا من محلة بني

= والترمذي في سننه (٦٩)، والنسائي (١/٥٠، ١٧٦- المجتبى)، وابن ماجه (٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨)، وأحمد في مسنده (٢/٢٣٧، ٣٦١، ٣/٣٧٣).

(١) روى أبو داود في سننه (٣٨٣٤، ٣٨٣٦) كتاب الضحايا، باب في العقيقة، عن أم كرز قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « عن الغلام شاتان مكافئتان وعن الجارية شاة» والترمذي (١٥١٦)، كتاب الأضاحي، باب الأذان في أذن المولود، والنسائي (٧/١٦٥ المجتبى) في العقيقة، باب كم يعق عن الجارية، وابن ماجه (٣١٦٢)، وفي الذبائح، باب العقيقة.

(٢) بَرِص: برص: ظهر في جسمه البرص، فهو أبرص، وجمعها بُرْصَ، والبرص بياض يقع في الجسد لعلة.

(٣) في حماية المجتمع من الأمراض المعدية روى مسلم في صحيحه [٩٢ – (٢٢١٨)] كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، عن أسامة بن زيد قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجزًا وعذاب أرسل على بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض =

إسرائيل.

ثم قال عقيبه: وإن كان في رداء، أو في شبه رداء، أو في ثوب شبه البرص من الصوف كان الثوب أو من الكتان، أو يظهر شبه البرص في السَّدى[1]، أو في كتان ملفوف أو صوف ملفوف أو يظهر شبه البرص في جلد يستعمل وفي كل ما يستعمل من الجلود، ويكون الذي يظهر في الثوب حمرة أو صفرة، أو في الجلد أو السَّدى أو في الكتان الملفوف، أو في كل نوع من الجلود فتلك ضربة برص يقدم إلى الكاهن وينظر إليها الكاهن، ويحجز الكاهن على الضربة سبعة أيام[2]، ثم ينظر إليها الكاهن في اليوم السابع، فإن مشت الضربة واتسعت في الرداء أو في السَّدى، أو في الكتاب أو في الجلد أو في كل جلد يستعمل، فتلك ضربة برص مفسد، وهي نجسة، ويحرق الكاهن الرداء أو السّدى أو الصوف أو الكتان أو كل وعاء جلد تكون فيه الضربة تحرق بالنار، لأنه برص مفسد.

فإن هذا لا يفهم له معنى، ولا يحصل منه فائدة وكل ما لا يحصل منه فائدة

=

فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

(١) السَّدي من الثوب: خلاف اللُّحمة، وهو ما يُمَدُّ طولاً في النسيج، الواحدة سداة، وجمعها أسداء، وأسدية.

(٢) روى مسلم في صحيحه [٦٩] كتاب السلام، ٢٦- باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل».

قال النووي: في هذا الحديث استحباب الدواء وهو مذهب أصحابنا وجمهور السلف وعامة الخلف قال القاضي: في هذه الأحاديث جمل من علوم الدين والدنيا وصحة علم الطب وجواز التطبب في الجملة واستحبابه بالأمور المذكورة في هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم، وفيها رد على من أنكر التداوي من غلاة الصوفية، وقال: كل شيء بقضاء وقدر فلا حاجة إلى التداوي، وحجة العلماء هذه الأحاديث يعتقدون أن الله تعالى هو الفاعل وأن التداوي هو أيضًا من قدر الله، وهذا كالأمر بالدعاء وكالأمر بقتال الكفار وبالتحصن ومجانبة الإلقاء باليد إلى التهلكة مع أن الأجل لا يتغير والمقادير لا تتأخر ولا تتقدم عن أوقاتها، ولابد من وقوع المقدرات والله أعلم.

وقال الإمام أبو عبد الله المازري: ذكر مسلم هذه الأحاديث الكثيرة في الطب والعلاج وقد اعترض في بعضها من في قلبه مرض. النووي في شرح مسلم (١٤/١٦٠) طبعة دار الكتب العلمية.

فليس بكلام، والله سبحانه منزه عن مثل هذا.

وأعجب منه قوله بعده وتطهر ضربة البرص في أرض ميراثكم إلى آخر القراءة.

فإن البرص إنما يكون في الحيوان، لا في الأراضي والبيوت، ولايليق الأمر بهدم البيوت بهذا التوهم.

السؤال على القراءة الثامنة من السفر الثالث

كيف يحسن أن يقال: وإن مسَّ من زراعه (الذي)[1] يقطر وعاء فخار فليكسر ذلك الوعاء، مع أن إضاعة المال قبيحة شرعًا وعقلاً.

وهلاً اكتفى بغسله بالماء كوعاء الخشب والنحاس وأيضًا فقوله: أيما رجل أجنب[2] أو جرت منه جنابة يغسل جسده كله بالماء، ويكون نجسًا إلى الليل، إن كان المراد به يكون نجسًا قبل غسله، فهو حسن، لكن ينبغي على هذا أن يكون نجسًا إلى حين غسله، لا إلى الليل وإن كان المراد أن يكون نجسًا بعد غسله لم يبق في غسله فائدة. أما لو قيل أنه يكون نجسًا إلى أن يغتسل بالماء لم يرد عليه شيء.

السؤال على القراءة التاسعة من السفر الثالث

كيف يحسن أن يقال: ويأخذ جديين أيضًا ويقيمهما أمام الرب حيين في قبة

---

(١) ليست بالأصل وأضفناها لسياق الكلام.

(٢) قال النووي: قال أصحابنا: كمال غسل الجنابة أن يبدأ المغتسل فيغسل كفّيه ثلاثًا قبل إدخالهما في الإناء ثم يغسل ما على فرجه وسائر بدنه من الأذى، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة بكمال، ثم يدخل أصابعه كلها في الماء فيغرف غرفة يخلل بها أصول شعره من رأسه ولحيته، ثم يحثي على رأسه ثلاث حثيات، ويتعاهد معاطف بدنه كالإبطين وداخل الأذنين والسرة وما بين الإليتين وأصابع الرجلين وعكن البطن وغير ذلك، فيوصل الماء إلى جميع ذلك ثم يفيض على رأسه ثلاث حثيات، ثم يفيض الماء على سائر جسده ثلاث مرات يدلك في كل مرة ما تصل إليه يداه من بدنه، وإن كان يغتسل في نهر أو بركة انغمس فيها ثلاث مرات، ويوصل الماء إلى جميع بشرته، والشعور الكثيفة والخفيفة، ويعم بالغسل ظاهر الشعر وباطنه وأصول منابته والمستحب أن يبدأ بميامنه وأعالي بدنه، وأن يكون مستقبل القبلة، وأن يقول بعد الفراغ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ويستصحب النية إلى أن يفرغ من غسله، فهذا كمال الغسل. (النووي في شرح مسلم ٣/١٩٥، ١٩٦)، طبعة دار الكتب العلمية.

الزمان[١] ويقترع عليهما قرعتين، قرعة واحدة للرب، وقرعة أخرى لعزازيل، ويقرب هارون الجدي الذي أصابته قرعة الرب ويصير قربانًا بدل الخطيئة، والجدي الذي وقعت عليه قرعة عزازيل يقوم حيًّا أمام الرب ليستغفر عليه لأصحاب الذنوب، ثم (يسرجره)[٢] إلى عزازيل إلى القفر، فإن القربان لا يكون إلا لله تعالى، أما لعزازيل أو غيره فلا.

السؤال على القراءة العاشرة
من السفر الثالث

كيف يحسن أن يقال: ولا تفضح أختك من أبيك كانت، أو من أمك ولا امرأة أبيك، لا تكشف عورتها[٣] وكذلك ابنة أبيك أو ابنة أمك لا تكشف عورتها، مع أن ابنة أبيك أو ابنة أمك هي أختك من أبيك أو من أمك، وعطفها عليها بواو العطف يقتضي تغايرهما ولا سيما قوله كذلك فإنه يقتضي التشبيه والمشبه به.

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٣٣٧/١) كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه يصلون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم وإمامهم كليم الله موسى ﷺ، ومقدم القربان أخوه هارون ﷺ، فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام، استمر بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان، وهو فيهم إلى الآن وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون وهو الذي دخل بيت المقدس، فكانوا يصلون إليها فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ وقد صلّى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشر، وقيل سبعة عشر شهرًا، ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر وقيل الظهر.

(٢) كذا بالأصل وأظنها يرسله.

(٣) قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٢٣-٢٤].

وكذلك قوله عقيبه ولا تكشف عورة امرأة أبيك التي ولدت من أبيك لأنها أختك، لا تكشف عورتها[1].

مشكل من ثلاثة أوجه:

أحدها أنه معطوف على ما تقدم ينبغي تغايرها مع أنه قد تقدم هذا بعينه قبل أختك في قوله ولا تفضح امرأة أبيك ولا عورتها.

وثانيها: أنه قال: التي ولدت من أبيك مع أن امرأة أبيك لم تولد من أبيك، فإن الرجل لا يتزوج بابنته. فإن قيل: المراد التي ولدت من أبيك آدم، لا من أبيك الأقرب.

قلت: هذا لا يمكن أن يراد، لأن التي ولدت من أبيك آدم يجوز كشف عورتها والتزوج بها فلو أريد هذا لم ينه عنه.

وثالثها: أنه قال: إنها أختك مع أن امرأة أبيك لا تكون أختك، فإن أباك لا يتزوج أختك لا من أبيك ولا من أمك. فإن قيل: المراد أختك من أبيك آدم.

قلت: لا يمكن أن يراد هذا، لأن أختك من آدم يجوز أن تكشف عورتها وتتزوج بها، فلو أريد هذا لم ينه عنه.

---

(١) قال ابن كثير في معنى الآيات المتقدمة: هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر كما قال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال: حرمت عليكم سبع نسبًا وسبع صهرًا وقرأ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم ﴾ الآية.

وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى: ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتًا شرعية فكما لم تدخل في قوله: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ فإنها لا ترث بالإجماع لا تدخل في هذه الآية والله أعلم وقوله تعالى: ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك. تفسير ابن كثير (٤٦٩/١).

السؤال على القراءة الحادية عشر
من السفر الثالث

كيف يحسن أن يقال: لا تتزوج إلا جارية عذراء، فأما الأرملة أو المطلقة[١] فقد تنجست بالزنا، فلا يتزوج من أشباه هؤلاء ألبتة بل يتزوج عذراء من قومه.

مع أن الأرملة أو المطلقة لا يلزم أن تكون متنجسة بالزنا، ولا بد فإنه ليس غير كل عذراء زانية.

السؤال على القراءة الثانية عشر
من السفر الثالث

كيف يحسن أن يقال يقرب كبشًا لا عيب فيه من الثيران كان أو من الحملان، أو من الماعز، ولا تقربوا قربانًا فيه عيب، لأن ذلك لا يكون قربانًا يقر به، لأن الكبش لا يكون من الثيران ولا الماعز بل من الحملان فقط.

السؤال على القراءة الثالثة عشر
من السفر الثالث

كيف يحسن أن يقال: وإن قلتم من أين نأكل في السنة السابعة التي نزرع فيها ولا نحصد ولا ندخل الغلات[٢] لا تهتموا أنا منزل لكن بركاتي في السنة السادسة فتغل

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تزوج إن شاءت.

وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت فإنها تعتد عندهم بقرءين لأنها على النصف من الحرة، والقرء لا يتبعض فكمل لها قرءآن، ثم قال: وقال بعض السلف بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية ولأن هذا أمر جبلي فكان الحرائر والإماء في هذا سواء، وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو على قولين: أحدهما: أن المراد بها الأطهار وقال مالك في الموطأ بسنده عن عائشة أن حفصة بنت غبد الرحمن بن أبي بكر انتقلت حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة.. الحديث. تفسير ابن كثير (١/٢٦٩).

(٢) قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى =

لكم أرضكم في تلك السنة غلة ثلاث سنين حتى إذا زرعتم في السنة الثامنة لم تحتاجوا إلى غلتها لأنكم تأكلون من غلة السنة السادسة إلى السنة التاسعة، تأكلون العتيق إلى أن يدخل الحديث ويكثر.

فأما الأرض فلا تبع بحق الدهر، ولا يجب بيعها، فإن الأرض لي، وأنتم لي سكان عليها ومجتازين. فإن قوله التي تزرع فيها ولا يحصد، مشكل لأنهم لم يؤمروا فيها بالزرع، بل أُمروا فيها بعدم الزرع، وبعدم الحصاد(١).

=

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ۝ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨٢] قال في البداية والنهاية (٣٠٩/١)، يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن أي منهم لينزل عليه أحكاما عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس منها زرع ولا ضرع منًّا من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد.

ومن أخذ منه قليلاً كفاه أو كثيرًا لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز، وهو في غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم، وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوئها الباهر. البداية والنهاية (٣٠٩/١).

(١) أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بما يسر لهم من المنِّ والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه بل ينزل الله المن باكرًا ويرسل عليهم طير السلوى عشيًا وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجرًا كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة لكل سبط عين منه تنبجس ثم تتفجر ماء زلالاً فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم، وظلل عليهم الغمام من الحر، وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها يبدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها وإذا هبطتم إليها أي ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه.

=

فإنه قال فيما تقدم: فأما السنة السابعة فلتكن سبت، سبت الراحة للأرض، واجعلوها سبتًا للرب، لا تزرعوا مزارعكم، ولا تكسحوا أكرومكم ولا تحصدوا ما ينبت في أرضكم في تلك السنة من غير أن يزرع في تلك السنة ولا تقطفوا عنب كرومكم. فقد تناقض الكلامان.

وأيضًا فقوله: وتطردون أعداءكم وتصرعونهم قتلاً إذا ما حاربتموهم، فخمسة منكم يهزمون مائة والمائة منكم يهزمون عشرة آلاف، غير جار على نسبة واحدة(١).

فإنه إذا هزمت الخمسة مائة هزمت المائة ألفين، لا عشرة آلاف. لأن الخمسة نصف عشر المائة، والمائة نصف عشر الألفين. وأما المائة من العشرة آلاف، فإنه عشر عشر لا نصف عشر، فلم يتناسب الكلامان.

وأيضًا فقوله: وإن لم تتوبوا بهذه الأشياء ولم تسمعوا قولي وعاملتموني باللجاجة عاملتكم أنا أيضًا بالغضب واللجاجة، وأوذيكم وأعاقبكم سبعة أضعاف على خطاياكم وتصيرون إلى ضيق حتى تأكلوا لحم أبنائكم، وتأكلون لحوم بناتكم أيضًا وأخرب بيوتكم، وأخرب بيوت آلهتكم وألقي أجسادكم ميتة على أصنامكم، وأنصرف عنكم وأبغضكم، وأجعل قراكم خرابًا.

=
البداية والنهاية (١/ ٣١٠).

(١) قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝٦٥ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥-٦٦]، كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة وروى عبد الله بن المبارك بسنده عن ابن عباس قال لما نزلت: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف فقال: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ قال: خفف الله عنهم من العدة ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

وقال سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس في هذه الآية قال كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين ثم خفف الله عنهم فقال: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين وروى البخاري عن علي بن عبد الله عن سفيان به نحوه. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٢).

مشكل لأنهم ليس لهم آلهة ولا أصنام حتى يقول: واخرب بيوت آلهتكم، وأجعل أجسادكم ميتة على أصنامكم، ولم يكن لهم آلهة أخرى سوى قضية اتخاذ العدل، وقد حرقه موسى(١) كما تقدم ومضى ذلك، ولم يكن لهم آلهة، ولا أصنام.

وأيضًا فظاهر الكلام أنهم إذا سمعوا قوله ولم يعاملوه باللجاجة لا يخرب بيوت آلهتهم ويتركها على حالها، وهو مشكل.

السؤال على الفصل الأول من السفر الرابع(٢) من التوراة

كيف يحسن أن يقال: ثم عد موسى وهارون هؤلاء القوم المسمين بأسمائهم، فجمعوا الجماعة كلها في أول يوم الشهر الثاني، فعدوا بيوت آبائهم وقبائلهم بأسمائهم من بين عشرين سنة فما فوق، ذلك برءوسهم كما أمر الله تعالى، إلى أن قال: ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين رجلاً(٣).

---

(١) قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: ٩٥-٩٨]، في قوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ﴾ أي معبودك ﴿ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أي أقمت على عبادته يعني العجل ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس والسدي استحله بالمبارد وألقاه على النار، وقال قتادة استحال العجل من الذهب لحمًا ودمًا فحرقه بالنار، ثم ألقى رماده في البحر، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ وقال ابن أبي حاتم بسنده عن علي ﷺ قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل ثم صوره عجلاً قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضًا، وهكذا قال السدي.

(٢) هو سفر العدد وهو سفر معظمه يدور حول تقسيم بني إسرائيل، وبيان تعداد أسباطهم وجيوشهم وأموالهم وذكورهم وإناثهم، وبجانب هذا به بعض الأحكام التي تتعلق بالعبادات والمعاملات. (بنو إسرائيل في القرآن والسنة صـ ٧٢).

(٣) كان خروج بني إسرائيل من مصر حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وبعد أن رأوا غرق =

مع أن موسى كما تقدم أمره الله بذلك في اليوم الأول من الشهر الثاني من السنة الثانية فكيف يكون موسى أمر في اليوم الأول من الشهر الثاني وجمع الجماعة كلها، وعدوا بيوت آبائهم وقبائلهم، وبأسمائهم على هذه المدة في أول اليوم الثاني بعينه هذا، كما لا يأتي ولا يمكن أصلاً إلا في أيام كثيرة جدًّا، والله أعلم وفي النسخة الأخرى أن عددهم ستمائة ألف وسبعمائة وثلاثين. وهذا تفاوت فاحش من المفسرين لمفسر واحد.

السؤال على الفصل الثاني من السفر الرابع من التوراة

أنه قال: وكلم الله موسى وهارون وقال لهما ليحل بنو إسرائيل تلقائي(١)،

= فرعون بأعينهم سار بهم موسى عليه السلام إلى أرض فلسطين مؤملاً أن يصبحوا أمة قوية بإيمانها وصالح أعمالها، فقد ترتب على خروجهم من مصر وهلاك فرعون أمام أعينهم أن أصبحوا أحرارًا في شئونهم وأحوالهم بعد أن كانوا يذوقون في مصر سوء العذاب على أيدي فرعون وجنده.
يقول صاحب تاريخ الإسرائيليين: « وقد كان تاريخهم إلى وقت خروجهم من مصر، تاريخ أسرة صغيرة أخذت تنمو وتزداد حتى صارت قبيلة كبيرة لا كيان لها ولا حكومة منها، ولا شارع أو وازع فيها ينظر في أمورها ويرد قويها عن ضعيفها متفرقة في أرض مصر عرضة للعبودية والسخرة والاستبداد والإهانة، أما بعد الخروج فإنهم تألفوا شعبًا واحدًا وأمة واحدة لها قائدها من بنيها، وجيش يقوم على حمايتها وحاكم يتولى أمورها وشئونها وأخذت تبدو فيها صفات الأمة المستقلة، فإنها لم تكد تغادر مصر حتى بدأ الشارع في سن النواميس والقوانين والشرائع الدينية والأدبية والمدنية، كما تكون في الأمة المستقلة القائمة بنفسها، وعليه فتاريخ الإسرائيليين لا يبتدئ إلا بعد خروجهم من مصر وتاريخهم هذا يستغرق قرونًا عديدة، اتفق لهم في خلالها كثير من الحوادث العادية من حروب وتقدم وانحطاط. انظر تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس (صـ ١٥).

(١) قال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّتهُ له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله، فقال: أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل في الغمام وقال للقوم: ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا فسمعوه وهو يكلم موسى ويأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ الله من أمره وانكشف موسى الغمام أقبل إليهم =

وليحل كل رجل منهم في الأرض كلها في بني أبيه، وليحلوا حول القبة، فحل بنو يهوذا: بخشون بن عمينا داب وعدد قوته أربعة وسبعون ألف وستمائة رجل. ويليهم سبط إيساخر. فكيف يحسن أن يقال: وليحل كل رجل منهم في الأرض كلها، وليس من الممكن أن يحل كل رجل في الأرض كلها، بل في مكان واحد منها.

فإن قلت: يمكن أن يكون قوله في الأرض كلها صفة لرجل لا مفعولاً فيه ليحل ويكون في بني أبيه هو المفعول ليحل، أي كل رجل من الرجال الكاتبين في الأرض كلها ليحل في بني أبيه.

قلت: لا يمكن هذا هنا لأن بني إسرائيل ليسوا في الأرض كلها حتى يوصفوا أو بعضهم بهذه الصفة، وإنما هي في برية سيناء(١)، كما ذكره مراراً.

السؤال على الإصحاح الثالث من السفر الرابع من التوراة

أنه قال: فكان جميع اللاويين(٢) إذ عدهم موسى يكلمه فم الله كل ذكر لقبيلته من ابن شهر فما فوق ذلك اثنان وعشرون ألفًا.

كيف يحسن وقد تقدم في تفصيل ذلك ما يقتضي أن عددهم اثنان وعشرون

=

فقالوا: ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعًا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا، فإنا برآء مما عملوا. البداية والنهاية (١/٣١٧).

(١) لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم اللذان أشار على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم، وذكر وهب بن منبه أن موسى ﷺ مر بملأ من الملائكة يحفرون قبرا فلم يُر أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج، فقال يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر فقالوا: لعبد من عباد الله كريم، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه وتوجه إلى ربك وتنفس أسهل تنفس، ففعل ذلك فمات صلوات الله وسلامه عليه فصلت عليه الملائكة ودفنوه. البداية والنهاية (١/٣٤٨).

(٢) اللاويين نسبة إلى لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام وهم نسله ومنهم موسى وهارون عليهما السلام ونسب إليهم سفر اللاويين وذلك لأنهم كانوا سدنة الهيكل وحفظة الشريعة.

ألفًا وثلاثمائة، لأن بني جرشون سبعة آلاف وخمسمائة، وبني قاهت ثمانية آلاف وستمائة، وبني موري ستة آلاف ومائتين.

وأيضًا فإنه قال عقيبه: وكلم الله موسى وقال له: اعدد كل أبكار ذكور بني إسرائيل من ابن شهر فما فوقه، فخذ عددهم بأسمائهم واجعلهم مناصف لي، إني أنا الله.

وليكن اللاويون لي، بدلاً من كل بكور بني إسرائيل ودواب اللاويين بدل كل ذكور دواب بني إسرائيل فكان جميع بكورهم بعدد الأسماء من ابن شهر فما فوقه اثنان وعشرين ألفًا ومائتين يدل كل بكور بني إسرائيل، ودواب اللاويين بدل دوابهم ليكونوا لي مناصفة إني أنا الله، وفدية المائتين والثلاثة والسبعين التي فضل بها بنو إسرائيل على اللاويين أن يأخذ بكل رأس خمسة مثاقيل بمثقال القدس فضة، ومثقال القدس عشرون دانقًا.(١) ثم اعط هارون الفضة وبنيه(٢).

وأخذ موسى منهم الفضة، فدية الذين زادوا من اللاويين من بكور بني إسرائيل، فكان ما أخذ من الفضة ألف وثلاثمائة وخمسة وستين مثقالاً بمثقال القدس.

---

(١) الدانق: سدس الدرهم، جمعها: دوانق ودوانيق.

(٢) حكى القرآن الكريم بأسلوبه البليغ قصة نكول بني إسرائيل عن القتال فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٥].

هذا وبعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام تولى يوشع بن نون رئاسة بني إسرائيل وكانوا في ذلك الوقت قد هلك منهم ذلك الجيل الذي تربى على الذل والعبودية، والذي قال لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ ونشأ منهم جيل آخر تربى خلال مدة التيه على الخشونة وحرية البداوة فقاده يوشع بن نون لدخول الأرض المقدسة. (بنو إسرائيل في القرآن والسنة صـ ٣١).

فكيف يحسن أن يقال: وفدية المائتين والثلاثة والسبعين التي فضل بها بني إسرائيل على اللاويين مع أن بني إسرائيل لم يفضلوا على اللاويين بمائتين وثلاثة وسبعين، لا على ما ذكره من عدد اللاويين ولا على ما ذكره من جملة عددهم

أما على الجملة فيفضلوا عليهم بثلاثمائة، وأما على التفصيل فينقصوا عنهم بمائة، فلم يصح هذا الكلام على شيء من التقديرين أصلاً.

السؤال على الفصل الرابع من السفر الرابع من التوراة

أنه قال ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ [النساء: ١٦٤]،وقال له أوص بني إسرائيل أن يخرجوا من المحلة كل أبرص وكل أجزم وكل جنب بنفسه من ذكر أو أنثى خارجًا من المحلة ولا تبخسوا منازلكم التي أنا حالاً فيها بينكم والله سبحانه وتعالى منزه عن الحلول بينهم في منازلهم[١].

فإن قيل لعله أطلق لفظ حلوله فيها مجازًا وكناية عن إحاطة علمه بها.

قلنا: فعله محيط خارج المحلة أيضًا، ولا يختص بمنازلهم فلا تنجسوه بهم أيضًا، كما لا تنجسوا منازلكم.

السؤال على الفصل الخامس من السفر الرابع من التوراة

أنه قال: فلما دخل موسى قبة الزمان سمع صوتًا يكلمه من الغشاء الذي على

(١) لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين: أحدهما وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أن لا يتكلم في معناها بل يقولون يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وأنه منزه عن التجسم والانتقال والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوق،وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققيهم وهو أسلم.
والقول الثاني: وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله بأن يكون عارفًا بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع والرياضة في العلم. فعلى هذا المذهب يقال في قوله ﷺ فيأتيهم الله أن الإتيان عبارة عن رؤيتهم إياه لأن العادة أن من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته إلا بالإتيان فعبر بالإتيان والمجيء هنا عن الرؤية مجازًا وقيل: الإتيان فعل من أفعال الله تعالى سماه إتيانًا، وقيل المراد بيأتيهم الله أي يأتيهم بعض ملائكة الله. (النووي في شرح مسلم ١٨/٣)، طبعة دار الكتب العلمية.

التابوت، تابوت الشهادة من بين الكاروبيين[١].

فكيف يحسن أن يقال سمع صوتًا يكلمه، والصوت لا يكلمه لأنه لو كلمه مع أنه هو كلام لكان الكلام كلام آخر وتسلسل، بل صاحب الصوت هو الذي يكلمه، فصوابه أنه سمع صوت مكلم له لا صوتًا يكلمه.

السؤال على الفصل السادس من السفر الرابع من التوراة

أنه قال: فقال الله لموسى وهارون ومريم أخته: اخرجوا ثلاثتكم إلى قبة الزمان، فخرجوا ثلاثتهم إلى قبة الزمان، ونزل الله في عمود من الغمام، وقام على باب القبة، ودعا هارون ومريم[٢] فخرجا إليه، فقال لهما انصتا لكلامي، إني أنا الله، وإنما نبوتكما

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/٣٣٦)، قال أهل الكتاب: وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشار وجلود الأنعام وشعر الأغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب ولها عشر سرادقات طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعًا وعرضه أربعة أذرع ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخرى كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره، ويعمل تابوتًا من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين ونصف وعرضه ذارعين وارتفاعه ذراعًا ونصفًا ويكون مضببًا بذهب خالص من داخله وخارجه وله أربع حلق في أربع زوايا ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان صفة رجل اسمه بصليال وأمراه أن يعمل مائدة من خشب الشمشار طولها ذراعًا وعرضها ذراع ونصف لها ضباب ذهب وإكليل ذهب ... إلى آخر وصفهم. ثم قال ابن كثير، وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جدًّا. البداية والنهاية (١/٣٣٦).

(٢) قال ابن كثير: قالوا: يقصد أهل الكتاب- لما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذٍ سبح موسى وبنو إسرائيل هذا التسبيح للربِّ وذكروا تسبيح طويل وقالوا: وأخذت مريمُ النبية أخت هارون دفًا بيدها وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول وجعلت مريم ترتل لهن وتقول: سبحان الرب القهار الذي قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر هكذا رأيته في كتابهم.

ولعلَّ هذا هو الذي حمل محمد بن كعب القرظي على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسى هي أخت هارون وموسى مع قوله: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ [مريم: ٢٨] وقد بينا غلطه في ذلك وأن هذا لا يمكن أن يقال، ولم يتابعه أحد عليه بل كل واحد خالفه فيه ولو قدر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام، وأم عيسى عليها السلام، وافقتها في الاسم، واسم الأب واسم الأخ لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة لما =

أني أتراءى لكما بالرؤيا، وأكلمكما بالحلم وأما عبدي موسى فليس كذلك،ولكنه أميني في بيتي،وأكلمه مفاوهة وبالنظر معاينة وهذا مشكل من وجوه: **أما الأول**: أنه قال:ونزل الله في عمود من الغمام، وقام على باب القبة، والله تعالى منزه عن النزول، وعن الحلول في الغمام، وعن القيام على باب القبة فإن هذه كلها من صفات الأجسام، وكذا قوله فخرجا إليه.

وأما ثانيًا: فإنه قال: وإنما نبوتكما أني أتراءى لكما بالرؤيا، وأكلمكما بالحلم، وهذا ترائي باليقظة، وكلام باليقظة لا بالرؤيا والحلم، فقد تناقض الكلام.

وأما ثالثًا: فإنه قال: وأما عبدي موسى فليس كذلك، ولكنه أميني في بيتي وأكلمه مفاوهة بالنظر معاينة. وإنما يصح أنه ليس كذلك إذا كان لا يتراءى لهما الله إلا بالرؤيا، ولا يكلمهما إلا بالحلم. ولما بينا أنه تراءى لهما باليقظة، وكلمهما باليقظة كموسى، لم يكن موسى ليس كذلك، بل هو مثلهما في ذلك.

السؤال على الفصل الثامن
من السفر الرابع من التوراة

ولم أجد السابع في النسخة. أنه قال: وكلم الله موسى وقال له أرسل رجالاً[1]

ليتجسسوا أرض كنعان التي أهبها لبني إسرائيل من كل سبط رجل، فأرسل رؤساءهم كلهم، وهذا مشكل من وجوه: **أما أولاً**: فإنه أمر بإرسال رجال يجسون

=

سأله أهل نجران عن قوله: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ فلم يدر ما يقول لهم حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم».

وقولهم النبية كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة ومن بيت الإمارة أميرة وإن لم تكن مباشرة شيئًا من ذلك، فكذا هذه استعارة لها لا لأنها نبية حقيقة يوحى إليها، وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع لمن قبلنا ضرب الدف في العيد. (البداية والنهاية ١/٣٠٣).

(١) لما انفصل موسى عليه السلام من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قومًا من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون. (البداية والنهاية ١/٣٠٥).

الأرض، مع أنه عالم بمن فيها من الجبابرة وأبناء الجبابرة الأقوياء كما ذكرها الجواسيس بعد هذا[(١)]، فكان إرسالهم مضرًا لهم وليس نافع، لأنه مانع لهم من دخولهم إلى الأرض، فلم يكن للأمر به فائدة، بل تركه أولى.

وأما ثانيا: فإنه قال أرض كنعان التي أهبها لبني إسرائيل مع أنه قال في آخر هذا الفصل: فلا يدخلن واحد منكم الأرض التي رفعت يدي إليها أن يسكنكم فيها إلا كالب بن يوقينا ويوشع بن نون. وظاهر هذا الكلام أنه لا يدخلها إلا هذان الشخصان، فقد تناقض الكلامان.

وأما ثالثًا: فإنه قال فأرسل رؤساء هم كلهم وليس هذه عادة من يبعث الجواسيس أن يبعث رؤساء القوم كلهم، بل يبعث بعضًا من غير الرؤساء، خوفًا على

---

(١) ذكر كثير من المفسرين ههنا آثارًا فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخامًا جدًّا حتى إنهم ذكروا: أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحدًا واحدًا ويلفهم في أكمامه وحجزة سراويله وهم اثنا عشر رجلاً فجاءهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه.

وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها وأن الملك بعث معهم عنبًا كل عنبة تكفي الرجل وشيئًا من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم، وهذا ليس بصحيح.

وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعًا وثلث ذراع، هكذا ذكره البغوي وغيره وليس بصحيح كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعًا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن» قالوا: فعمد عود إلى قمة جبل فاقتلعها، ثم أخذهابيديه ليلقيها على جيش موسى فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقًا في عنق عوج بن عنق، ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع، فوصل إلى كعب قدمه فقتله، ويروى هذا عن عوف البكالي ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر، ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل، فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم ولا يتميز لهم بين صحتها وباطلها، ثم لو كان هذا صحيحًا لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم، وقد ذمّهم الله على نكولهم وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم.

وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ونهياهم عن الإحجام، ويقال: إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس وغير واحد . (البداية والنهاية ١/٣٠٥، ٣٠٦).

الرؤساء وغيرهم.

السؤال على الفصل التاسع من السفر الرابع من التوراة

أنه قال: ويتيهون بنوكم في هذه البرية أربعين سنة(1) ويقتلون زناكم حتى تتلف جثثكم في هذه القفار على حساب الأيام التي اجتسستم الأرض أربعين يومًا، مكان كل يوم سنة وهذا مشكل، فإنهم إنما حبسوا بأمر الله تعالى كما تقدم.

فكيف يحسن أن يعاقبوا على فعل ما أمروا به فإن قيل لعله تعالى إنما عاقبهم على تطويل مدة الجس أربعين يومًا.

قلت هذا إنما يمكن أن يقال إذا عين لهم حد في المدة فزادوا عليه.

أما إذا أطلق فلا حصر عليهم وأيضًا فقوله: وأما الرهط الذين كان موسى بعثهم ليتجسسوا الأرض ثم رجعوا ورتبوا الجماعة، وأشاعوا خبر السوء عن الأرض فماتوا كلهم بغتة قدام الله. ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى أماتهم كلهم بغتة عقوبة على أنهم أشاعوا خبر الأرض ومن فيها من الجبابرة حتى خاف الباقون من دونها.

وظاهر هذا الكلام مقتضي أن الله تعالى أمر بإرسالهم ليجسوا الأرض ويكتموا ما علموا من خبرها ويظهروا غير ما علموه، وهذه خيانة في الجس.

لا يحسن أن الله تعالى يأمر بها ويعاقب على عدمها، والله سبحانه وتعالى منزه

---

(1) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٦]، عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهارًا وصباحًا ومساءً.

ويقال: إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة، ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى، بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن وغيره من المهاجرين ثم جعل يقول أشيروا علي حتى قال سعد بن معاذ كأنك تعرض بنا يا رسول الله فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن يلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد وبسطه ذلك. (البداية والنهاية ١/٣٠٦-٣٠٧).

عن ذلك كله[1].

السؤال على الفصل العاشر من السفر الرابع

أنه قال في آخره: إنني أنا الله ربكم الذي أخرجتكم من أرض مصر لأكون لكم إلهًا، أنا الله ربكم فكيف يحسن أن يقال: أخرجتكم من أرض مصر لأكون لكم إلهًا مع أن الله سبحانه وتعالى إلههم، وإله غيرهم، أخرجهم من مصر أو لم يخرجهم[2] أما أنه أخرجهم ليكون حتى أنه لو لم يخرجهم لم يكن فلا.

السؤال على الفصل الحادي عشر من السفر الرابع

من وجوه:

أحدها: أنه قال ثم كلم الله الجماعة كلها، وقال لهم: (اعتن) لواعن مساكن هؤلاء البقر الخطاه[3] مع أنه ذكر فيما تقدم من التوراة، ولا يكلمنا الله لئلا نموت، فقد

---

(١) روى البخاري في صحيحه (٣٩٥٢)، كتاب المغازي ٤- باب قول الله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩] قال: حدثنا أبونعيم حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عدل به أتي النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعني قوله.

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية وفي معرض سؤال بني إسرائيل لموسى أن يجعل لهم إلهًا من الأصنام كما لهؤلاء القوم الذين مروا عليهم: ثم ذكرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذي بين أظهرهم وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة وما كانوا يعرشون وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق القهار وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال، بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، (البداية والنهاية ١/٣٠٤).

(٣) كذا بالأصل.

ذكر أنه كلمهم. ولم يموتوا، ولقد عظمت مرتبة بني إسرائيل مع ما هم عليه من الطغيان والعصيان[1]، وعبادة العجل، حتى وصلوا إلى أن كلمهم الله تعالى أيضاً فإنه قال: ثم خرجت نار من قدام الله وأكلت المائتين والخمسين، الرجال الذين كانوا يدخنون.

فكيف يحسن أن يقال: وأكلت المائتين والخمسين ثم ذكر قبيله أن الأرض انشقت وابتلعتهم مع جميع ما كان مع قورح، وهبطوا إلى الهاوية واستوت الأرض عليهم وبادوا.

---

(١) قال تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠].

يقول تعالى: آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبي الله يعقوب عليه السلام، وتقديره يابني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق كما تقول: يابن الكريم افعل كذا يابن الشجاع بارز الأبطال. وقوله تعالى ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ قال مجاهد نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون، وقال أبو العالية نعمته أن جعل منهم الأنبياء أو نزل عليهم الكتب قلت: وهذا كقول موسى عليه السلام لهم: ﴿ يَـٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ يعني في زمانهم وقال محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم من فرعون وقومه: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ قال بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من إحداثكم.

وقال الحسن البصري هو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗا ﴾ [المائدة: ١٢] وقال الله إني معكم: ﴿ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ ﴾ الآية.

وقال آخرون: هو الذي آخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين. تفسير ابن كثير (١/٨٢، ٨٣).

والمدخنون هم الذين كانوا مع قورح، بدليل قوله قبل ذلك: وقال موسى: يا قورح اغد أنت وجماعتك قدام الله، وهارون معكم، ثم ليأخذ كل رجل مجمرته ويجعل ناراً وبخورًا، ثم يقرب كل رجل مجمرته قدام الله، مائتين وخمسين مجمرة.

فأخذ كل رجل مجمرته وجعل فيها ناراً ودخنه، قدام موسى وهارون قبة الزمان، إلى آخر هذا الكلام.

وأيضاً فإنه قال: فلما كان من الغد، دخل موسى إلى قبة الشهادة، فإذا عصا هارون عصا بيت آل لاوي قد نضرت، فطلع ورقها وأثمرت لوزًا، فهذا نظير إحياء عيسى الموتى، ولم يعتقد النصارى في موسى أنه ابن الله كما اعتقدوه في عيسى مع استوائهما في صدور القدرة الإلهية على يديهما.

السؤال على الفصل الثالث عشر
مع السفر الرابع

لم أجد الثاني عشر في النسخة. أنه قال: ثم كلم الله موسى وهارون وقال لهما: من أجل أنكما لم تصدقاني وتقدساني قدام بني إسرائيل، فمن أجل ذلك لا تدخلان انتم ولا هذه الجماعة إلى الأرض التي وهبت لكم[1].

فكيف يحسن أن يقول سبحانه عن موسى وهارون أنهما لم يصدقاه، وأنهما مصدقاه، وإنما المكذب غيرهما. وكيف يحسن أن يعاقبهما بألا يدخلهما الأرض ولم يذنبا[2]. وكيف يحسن منه سبحانه الرجوع في الأرض الموهوبة لهم، لا سيما وقد

---

(١) إنما حرم عليهم دخول الأرض المقدسة بسبب نكولهم عن قتال الجبارين وقد عوقبوا بالتيهان في الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساء ويقال إن لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام.

(٢) قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥، ٢٦]

يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال داعيًا عليهم: ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي ﴾ أي ليس أحد يطيعني منهم فيتمثل أمر الله ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخى هارون: ﴿ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ قال العوفي عن ابن عباس يعنى اقض بيني وبينهم. تفسير ابن كثير (٢/٤١).

تقدم أنه أقسم بإعطائها لهم.

السؤال على الفصل الرابع عشر من السفر الرابع

أنه قال: فنزع موسى ثياب هارون وألبسها أليعازر ابنه، ومات هارون[١] في هورة الطور فكيف يحسن من موسى أن ينزع ثياب هارون قبل موته لا شيء أقبح من هذا، والله سبحانه لا يأمر بالقبيح، وما المُلجئ إلى هذه العجلة.

وهلاً صبر عليه حتى يموت ثم ينزعها.

السؤال على الفصل الخامس عشر من السفر الرابع

أنه قال: فقال الله لموسى اصنع حية جرداء من نحاس، واجعلها آية لمن تلدغه حية، ينظر إليها فيحيا. فصنع موسى حية من نحاس وجعلها علامة، فكل رجل كانت تلدغه حية، كان ينظر إلى حية النحاس فيعيش.

فكيف يحسن ذلك، وهذه أحوال أرباب الخواص من الحكماء، لا أرباب الشرائع، أبلغ من إحالته على دواء من الأدوية الطبية، فضلاً عن إحالته على صورة من نحاس كعادة الخارجين عن الشرائع أرباب الخواص والطلاسم لا شيء أبعد من هذا عن نفس الشرائع المقتضى لجميع القلوب على توحيد الله تعالى، وإضافة التأثيرات جميعها إليه سبحانه. لاسيما شريعة اليهود الموافقين على التوحيد وهذا كتابهم[٢].

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣] أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤] وقال: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦] وقال فأرسل إلى هارون، ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون".

ولهذا قال بعض السلف ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً قال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ .

قال ابن جرير بسنده عن عكرمة قال: قال ابن عباس قوله ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ قال: كان هارون أكبر من موسى ولكن أراد أن يهب له نبوته، وقد ذكره ابن أبي حاتم معلقا عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقي به. تفسير ابن كثير (١٢٩/٣).

(٢) قال قتادة: قال موسى عليه السلام: يارب إني أجد في الألواح أمة هي خير أمة أخرجت للناس =

السؤال على الفصل السادس عشر من السفر الرابع

أنه قال: ثم ارتحل بني اسرائيل يرد إلى سيحون ملك الأموريين، فقالوا له: نجوز من أرضك ولا نميل إلى مزرعة ولا كرم، ولا نشرب الماء من جبابكم نلزم الجادة حتى نخرج من حدود أرضك.

فأبى سيحون يتركهم يجوزون في أرضه، وجمع سيحون جيشه كله تلقاء بني إسرائيل إلى القفار.

فكيف يقدر سيحون أن يجمع جيشاً يمنع بنى إسرائيل أن يجوزوا أرضه مع أن بني إسرائيل ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسون رجلاً، كما تقدم وأي جيش يقف قبالتهم أو يقضي عليهم إلا أن يكون أكثر منهم وإن الشام جميعه ليضيق عن هاتين الطائفتين، ولا يحملهما أصلاً.

فكيف وظاهر كلامه أنهما في بقعة واحدة منه، وأن فيه ملوكاً أخر، وجيوشاً

=

يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون في الخلق، السابقون في دخول الجنة، رب اجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إنى أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه، وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم، قال: رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد.

قال رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فضول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إنى أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير.

وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم، قال: رب فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد قال: رب فإني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال: رب اجعلهم أمتى قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. البداية والنهاية لابن كثير (١/٣١٨/٣١٩).

أخر، كما ذكره بعد مراراً وكما ذكره هنا بعد هذا في هذا الفصل بقوله: فخرج إليهم ملك (متشين)[1] فتلقاهم بجنوده ليقاتلهم في إذرعي، فقال الله لموسى لا تخشه، فإني مسلمه هو وشعبه في يدك وأرضه كلها، فافعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين.

وسنذكر بعده أيضاً بالق بن صفور، ملك مؤآب وجيوشه.

وسنذكر في الفصل التاسع أنهم قتلوا ملوك مدين، وهم خمسة وجيوشهم، وغنموا منهم من الغنم ستمائة وخمسة وسبعون ألفاً، ومن البقر اثنان وسبعون ألفا ومن الحمير واحد وستون ألفاً، ومن النساء ما لم يمسها الرجال اثنين وثلاثين ألفاً، هذا مما لا يقبله العقول أصلاً أن الشام تكون فيه هذه الملوك وهذه الجيوش كلها.

السؤال على الفصل السابع عشر من السفر الرابع

من وجوه:

أحدها: أنه قال: فأتى الله بلعام[2] في الليل وقال له: إن كان هؤلاء القوم إنما

(١) كذا بالأصل وما وجدناه بالنسخة التي بين أيدينا (باشان).

(٢) زعم ابن إسحاق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى وإنما كان يوشع على مقدمته وذكره في مروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذي قال تعالى فيه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧].

قال ابن عباس وغيره: يعلم الاسم الأعظم وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه فامتنع عليهم ولما ألحوا عليه ركب حمارة له ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت فسارت غير بعيد وربضت فضربها ضرباً أشد من الأول فقامت ثم ربضت فضربها فقالت له: يا بلعام أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسبان، ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ويدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا، واندلع لسانه حتى وقع على صدره، وقال لقومه: ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، ثم أمر قومه أن يزينوا =

جاءوا ليدعوك فانطلق معهم ولا تقل لهم إلا الذي أقوله لك.

فقام بلعام غدوة فركب أتانه، وانطلق مع عظماء مؤاب.

فغضب الله عليه لما ذهب، فقام ملك الله على الطريق ليذيغه وهو على أتانه ومعه غلامان له، فأبصرت الأتان ملك الله قائماً على الطريق مستلاً سيفه بيده (صلتاً)[١] فعدلت الأتان عن الطريق، فدخلت في حدث، فضرب بلعام الأتان ليردها إلى الطريق.

فكيف يحسن أن يأذن الله لبلعام في الانطلاق معهم، ثم يغضب عليه لما ذهب.

وكيف يحسن أن ترى الأتان ملك الله ولا يراه بلعام، مع علو مرتبته. وكيف يحسن أن يقال: إن ملك الله قام على الطريق مستلاً سيفه ليزيغه وهو مطيع لأمر الله تعالى، بدون هذا لو نهاه لما ذهب وبدون ما ذكره عقيبه هذا من تطويلات لا نرى أن نطيل بذكرها، والأسئلة عليها.

الثاني: أنه قال فكانت عدة بني إسرائيل ستمائة ألف وسبعمائة وثلاثين.

كيف يحسن ذلك وقد ذكر في تفصيلهم[٢] ما يدل على أن عددهم خمسمائة

النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم لعلهم يقعون في الزنا فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر فمرت امرأة منهم اسمها كستى برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم، يقال: إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل فجعل يحوس (يتخلل) فيهم فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العازر بن هارون أخذ حربته، وكانت من حديد فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعًا فيها ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ورفعهما نحو السماء وجعل يقول: اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً، والمقلل يقول عشرين ألفاً، وكان فنحاص بكر أبيه العازر بن هارون، فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللية والذراع واللحى، ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم. البداية والنهاية (١/٣٥١، ٣٥٢).

(١) كذا بالأصل.

(٢) أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم.

السبط الأول: سبط روبيل لأنه بكر يعقوب وكان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم منهم وهو إليهود بن شديئورا.

ألف وواحد وسبعون ألفاً وسبعمائة وثلاثون.

وقبيلة شمعون اثنان وعشرون ألفاً ومائتان وقبيلة جاد أربعون ألفاً وخمسمائة، وقبيلة يهوذا ستة وأربعون ألفاً وخمسمائة، وقبيلة استاخر أربعة وستون ألفاً وثلاثمائة، وقبيلة زبولون ستون ألفا وخمسمائة وقبيلة منسي بن يوسف اثنان وخمسون ألفاً وسبعمائة، وقبيلة افرام بن يوسف اثنان وثلاثون ألفاً وخمسمائة، وقبيلة بنيامين خمسة وأربعون ألفا وستمائة، وقبيلة شوخم أربعة وستون ألفاً وأربعمائة، وقبيلة أشير ثلاثة وخمسون ألفاً وأربعمائة، وقبيلة نفتالي خمسة وأربعون ألفاً وأربعمائة، واعلم أن على ما صرح به هنا هذا العدد عدد موسى وهارون في برية سيناء، قال: ولم يكن في هذا العدد واحد ممن عده موسى وهارون في برية سيناء، بل بادوا أولئك جميعهم، لأنه قال هنا وهناك إني أقتلهم في القفار ولا أبقي منهم أحداً.

وبنو لاوي ثلاثة وعشرون ألفاً ذكراً من ابن شهر فما فوقه ولم يعدوا في بني

=

السبط الثاني: سبط شمعون وكانوا تسعة وخمسين ألفاً وثلاثمائة، ونقيبهم سلوميئيل بن هو ريشداي.

السبط الثالث: سبط يهوذا وكانوا أربعة وسبعين ألفا وستمائة ونقيبهم نحشون بن عميناداب.

السبط الرابع: سبط إيساخر وكانوا أربعة وخمسين ألفا وأربعمائة، ونقيبهم نشائيل ابن صوغر.

السبط الخامس: سبط يوسف عليه السلام وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم يوشع بن نون، السبط السادس: سبط ميشا وكانوا واحداً وثلاثين ألفا ومائتين ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور، السبط السابع: سبط بنيامين وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم أبيدن بن جدعون، السبط الثامن: سبط جاد وكانوا خمسة وأربعين ألفاً وستمائة وخمسين رجلاً ونقيبهم إلياساف بن رعوئيل، السبط التاسع سبط أشيد وكانوا واحداً وأربعين ألفا وخمسمائة ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن، السبط العاشر: سبط دان وكانوا اثنين وستين وسبعمائة ونقيبهم أخيعرز بن عمشاي، السبط الحادى عشر: سبط نفتالي وكانوا ثلاثة وخمسين ألفا وأربعمائة ، ونقيبهم أخيرع بن عين.

السبط الثاني عشر: سبط زبولون وكانوا سبعة وخمسين ألفا وأربعمائة ونقيبهم الباب بن حيلون.

هذا نص كتابهم الذي بأيديهم والله أعلم، وليس منهم بنولاوي فأمر الله موسى أن لا يعدلوهم معهم لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام وكانوا اثنين وعشرين ألفا من ابن شهر فما فوق ذلك. البداية والنهاية (١/ ٣٥٠، ٣٥١).

إسرائيل كما صرح، به هنا[1].

السؤال على الفصل الثامن عشر من السفر الرابع

أنه قال: فقال الله لموسى قد صدقت بنات صلفحد، هن ذكروا ميراث، فأقسم لهن ميراثاً مع الجماعة، وقل لبني إسرائيل أيما رجل مات وليس له ذكر فترثه ابنته، فإن لم يكن له ابنة فليرثه أخوه، وإن لم يكن له أخ فليرثه عمه، وإن لم يكن له عم فليرثه أدنى القبيلة إليه، ولتكن هذه سنة لبني إسرائيل كما أوصى الله لموسى.

فكيف يحسن ذلك مع لفظ قوله كما أوصى الله لموسى ينفي تقدم الوصية من الله لموسى ولم يوص سوى الآن. وأيضاً فإن ظاهر قوله أوصى الله لموسى لفظ غيبه يقتضي أن الله وموسى عن الحاكي والمحكى له.

السؤال على الفصل التاسع عشر من السفر الرابع

أنه قال: وقال الله لموسى ارق إلى هذا الجبل وهو جبل العبرانيين، فانظر إلى أرض كنعان التي وهبت لبني إسرائيل فابصرها ثم الحق شعبك[2] كما لحق هارون أخوك،

---

(١) لم يعد وكما ذكر قبل هذا لأنهم كانوا هم الموكلون بحمل قبة الشهادة وضربها ونصبها، قال ابن كثير عن بني لاوي في البداية والنهاية (٣٥١/١): هم في أنفسهم قبائل من كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحهم ونصبها وحملها وهم كلهم حولها ينزلون ويرتحلون أمامهم ويمنتها وشمالها ووراءها وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمائة ألف وواحد وسبعون ألفا وستمائة وخمسون لكن قالوا فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلاً سوى بني لاوي، وفي هذا نظر فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم لا تطابق الجملة التي ذكروها والله أعلم، فكان بنو لاوي والموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون في وسط بنى إسرائيل وهم القلب ورأس الميمنة بنو روبيل، ورأس الميسرة بنو ران وبنو نفتالي يكونون ساقه.

وقدر موسى عليه السلام بأمر الله تعالى له الكهانه في بني هارون كما كانت لأبيهم من قبلهم وهم تاداب وهو بكره وأبيهو والعازر ويثمر. البداية والنهاية (٣٥١/١).

(٢) روى البخاري في صحيحه (٣٤٠٧) كتاب أحاديث الأنبياء، ٣٣ باب وفاة موسى وذكره بعد، عن أبي هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على

من أجل أنكما مررتما كلمة فمي في قفارصين في خصام الجماعة ولم تقدساني بالماء.

ظاهر هذا الكلام أن الله تعالى عاقب موسى عليه السلام بأن أراه أرض كنعان التي وعدها بني إسرائيل وأماته، ولم يدخله إياها كما فعل بهارون من أجل أنهما مررا كلمة فم الله تعالى في خصام الجماعة وكيف يحسن أن يعاقب موسى بهذا السبب وليس لموسى فيه ذنب، فإن الجماعة هم الذين تأكدوا وخالفوا الله تعالى، وخالفوا موسى

=

متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، قال: فسأل الله أن أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر قال أبو هريرة ﷺ: فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» ورواه مسلم [١٥٧- (٢٣٧٢)] كتاب الفضائل، باب فضائل موسى عليه السلام. وقال النووي: أما سؤاله الإدناء من الأرض المقدسة فلشرفها وفضيلة من فيها من المدفونين من الأنبياء وغيره.

قال بعض العلماء: وإنما سأل الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس لأنه خاف أن يكون قبره مشهوراً عندهم فيفتتش به الناس، وفي هذا استحباب الدفن في المواضع الفاضلة والمواطن المباركة والقرب من مدافن الصالحين والله أعلم.

قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث، وأنكروا تصوره، قالوا: كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت، قال: وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة: أحدها: أنه لا يمتنع أن يكون موسى ﷺ قد أذن الله تعالى له في هذه اللطمة ويكون ذلك امتحاناً للملطوم والله سبحانه وتعالى يفعل في خلقه ما شاء ويمتحنهم بما أراد.

والثاني: أن هذا على المجاز، والمراد أن موسى ناظره وحاجه فغلبه بالحجة، ويقال: فقأ فلان عين فلان إذا غالبه بالحجة، ويقال: عورت الشيء إذا أدخلت فيه نقصاً قال: وفي هذا ضعف لقوله ﷺ: «فرد الله عينه» فإن قيل أراد رد حجته كان بعيداً.

والثالث: أن موسى ﷺ لم يعلم أنه ملك من عند الله وظن أنه رجل قصده يريد نفسه فدافعه عنها فأدت المدافعة إلى فقء عينه لأنه قصدها بالفقء وتؤيده رواية صكه، وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين واختاره المازري والقاضي عياض قالوا: في الحديث تصريح بأنه تعمد فقء عينه، فإن قيل: فقد اعترف موسى حين جاءه ثانيا بأنه ملك الموت، فالجواب أنه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم بخلاف المرة الأولى والله أعلم، قوله في الرواية الثانية: فالآن من قريب رب أمتني بالأرض المقدسة رمية بحجر هكذا هو في معظم النسخ أمتني بالميم والتاء والنون من الموت، وفي بعضها أدنني بالدال ونونين وكلاهما صحيح. (النووى في شرح مسلم (١٠٥/١٥، ١٠٦) طبعة دار الكتب العلمية).

وقاسى موسى منهم أمرّ المقاساة.

وأما أمر القرابين ففيه من التطويلات ما لا يرى أن نطيل الكتاب بالأسئلة عليه.

السؤال على الفصل العشرين من السفر الرابع

أنه قال فاشتد غضب الله عليهم فحلف ألا يرى من كان ابن عشرين سنة فما فوق ذلك من الرجال الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحاق ويعقوب من أجل أنه لم يتم مع أحد غير كالب بن موقينا ويوشع بن نون أنهما تبعا هوى الله.

فكيف يحسن أن يقال اسم الله تعالى حلف ألا يريهم الأرض التي حلف لآبائهم عليها أن يعطيهم إياها والله سبحانه وتعالى منزه عن الحلف فيما وعد به فكيف ما حلف عليه، فكيف حلفه على الحلف. وأيضاً فكيف يحسن أن يقال إنه سبحانه وتعالى يحلف على فعل، فإنه متمكن من أن يفعل ما يشاء من غير حلف لا يحتاج إلى أن يلزم نفسه بالحلف بفعل شيء، وأما ذكر منازلهم في سفرهم، فتطويل خال من الفائدة.

السؤال على الفصل الحادي والعشرين من السفر الرابع

من وجهين:

أحدهما: أنه قال: ثم أوصى موسى بني إسرائيل وقال لهم: اقسموا هذه الأرض بالسهام من تسعة أسباط ونصف سبط كما أمر الله، وألا يراه على هذا من وجهين:

أحدهما: أنه كيف يحسن أن يخبر الله تعالى موسى في التوراة التي أنزلها عليه بأن موسى وصى بني إسرائيل. هذا خبر لا فائدة فيه، كان موسى إن كان أوصى بني إسرائيل فهو عالم بأنه أوصاهم مع أنه لفظ غيبه موهم.

وثانيها: فكيف يحسن أن يقول لهم موسى اقسموا هذه الأرض بالسهام من تسعة أسباط ونصف وهم إلى الآن لم يدخلوها[1] بدليل ما قبل هذا أو ما بعده أما قبله

---

(١) الذي عليه الجمهور أن هارون توفي بالتيه قبل موسى أخيه بنحو سنتين، وبعده موسى في التيه أيضاً كما قدمنا وأنه سأل ربه أن يقربه إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك، فكان الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام.

فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع بني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا وكانت من أحصن المدائن سورًا وأعلاها قصوراً وأكثرها أهلاً فحاصرها ستة أشهر ثم أنهم
=

فقوله وكلم الله موسى وقال له: قل لبني إسرائيل بل إنكم ستدخلون إلى الأرض، أرض كنعان هذه الأرض التي تقسم لكم ميراثاً بلفظ ستدخلون، وهو مضارع مقترن بحرف التنفيس، وهو السين المختصة بحرف المستقبل.

وأما بعده فقوله: ثم كلم الله موسى، وقال له: قل لبني إسرائيل إذا عبرتم إلي الأرض أرض الكنعانيين فأعدوا لكم مدناً يفر إليهن من قتل نفساً خطأً بلفظ إذا، وهي طرف لما تستقبل من الزمان، وبدليل قوله في آخر الفصل الثاني والعشرين هذه الوصايا والسنن والقضايا التي أوصى الله على يدي موسى في عربات مؤاب على الأرض مقابل أريحا.

وثالثهما: أنه قال في آخر الفصل: ولا تنجسوا أرض مسكنكم فإني نازل فيها من أجل أني أنا الله، الحال بين بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى منزه عن نزوله في أرض من مسكنهم، وعن الحلول فيهم.

السؤال على الفصل الثاني والعشرين من السفر الرابع

أنه قال: ثم قام رؤساء آباء من عشيرة بني جلعاد بن بني ماكير بن منسى من قبيلة منسي بن يوسف فقالوا لموسى واليعازر الحبر، وعظماء الجماعة ورؤساء آباء

=

أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون يعني الأبواق وكبروا تكبيرة رجل واحد فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم وقتلوا اثنى عشر ألفاً من الرجال والنساء وحاربوا ملوكاً كثيرة.

ويقال: إن يوشع ظهر على واحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام.

وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان قال إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علي، فحبسها الله عليه حتى تمكنوا من فتح البلد وأمر القمر فوقف عند الطلوع، وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر الأول وهو قصة الشمس المذكورة في الحديث يقصد ما رواه الإمام أحمد في مسنده رقم (٨٣٢٢) عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس» وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى ، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا. البداية والنهاية لابن كثير (١/٣٥٣).

أسباط بني إسرائيل أن الله قد قال لربنا وأمره[1] أن يعطي بنات صلفحاد ميراثاً من بني إسرائيل بقرعة بينهم.

فكيف يحسن أن يقال: إن الله قال لربنا، وأمره وليس لهم ربٌّ غير الله، واليهود الذين أنزلت عليهم التوراة موافقون على التوحيد والنصارى وإن ثلّثوا إلاّ أنهم لم يقولوا إن موسى إله ولا جرى هنا لعيسى ذكر حتى يحملوه عليه.

السؤال على السفر الخامس من التوراة وهو سفر الاستثناء[2]

من وجوه:

أحدها: أنه قال بعد نصف ورقة، فكيف أطيق وحدي ثقلكم وقضاءكم، فاختاروا منكم رجالاً حكماء ذوي فطنة معلومين من أسباطكم أجعلهم رؤساء عليكم فأجبتم وقلتم في هذا قولاً حسناً تفعلونه فعمدت إلى رجال حكماء معلومين وجعلتهم رؤساء أسباطكم، رءوس ألوف، ورءوس مائتين، ورءوس خمسين ، ورءوس عشرة كتاباً لأسباطكم.

ثم قلت لقضاتكم، وأوصيتم (....)[3]وأن يسمعوا من أخوتهم، ويقضوا بينهم بالحق، والرجل الواحد يمكنه أن ينتصب قاضياً لعشرة آلاف، وأما أنه ينصب بكل ألف قاضياً، ولكل مائة قاضياً، ولكل خمسين قاضياً، ولكل عشرة قاضياً لهذا مما لا تدعوا إليه الحاجة أصلاً.

وثانيها: أنه قال بعد ورقة ونصف منه: فإن الله ربكم يذهب قدامكم، وهو يقاتل عنكم، والله سبحانه وتعالى منزه عن الذهاب قدامهم، فإن الذهاب والظرفية من صفات الأجساد.

وثالثها: أنه قال عقيبه ولم تؤمنوا بالله ربكم الذي يسير أمامكم في الطريق، والله

(١) قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

(٢) كذا بالأصل وهو سفر التثنية وسمي بذلك لأنه يكرر ويعيد التعاليم التي أوحاها الله إلى موسى عليه السلام، ومعظمه يدور حول الشئون التشريعية والاقتصادية والسياسية الخاصة ببني إسرائيل.

(٣) كلمة غير واضحة بالأصل والكلام في النسخة التي بين أيدينا «وأمرت قضاتكم في ذلك الوقت قائلا اسمعوا بين أخوتكم واقضوا بالحق بين الإنسان وأخيه ونزيله».

سبحانه منزه عن ذلك أيضاً.

ورابعها: أنه قال عقيبه فسمع الله كلامكم، وغضب وحلف ألا يرى أحد من هؤلاء القوم من هذا الجيل الشرير الأرض الصالحة التي حلف لآبائهم أني سأعطيهم إياها إلا أن يكون كالب بن يوقينا[1]، فهو يراها وإياه أعطى الأرض التي شافها هو وبنيه من أجل أنه أتم على أمر الرب ، وغضب علي أنا أيضاً من أجلكم وقال: إنك لن تدخل أنت أيضاً هنا ولكن يوشع بن نون الذي بين يديك وهو يدخل. والكلام على هذا من وجهين:

أما أولاً: فإنه سبحانه وتعالى غير محتاج إلى إلزام نفسه بالحلف بل يفعل ما يشاء لا يلجئ له إلى خلافه.

وأما ثانيا: فإنه كيف يحسن أن يحلف ألا يريهم الأرض التي حلف لآبائهم أنه سيعطيهم إياها.

وخامسها: أنه قال بعد ذلك بثلاث ورقات ذرني فأعبر الآن إلى هذه الأرض الصالحة وأنظر إليها التي في غير الأردن إلى هذا الجبل الصالح ولبنان، فغضب ربي علي ولم يسمع لي وقال لي حسبك لا تعد (أيضاً)[2] يقول مثل هذا القول قدامي.

فكيف يحسن أن يقال أن موسى قال: ذرني فأعبر الآن إلى هذه الأرض

---

(١) قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]

قال ابن كثير في تفسيره: أي فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ﷺ حرضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة وهما ممن يخافا أمر الله ويخشا عقابه وقرأ بعضهم: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي ممن لهما مهابة وموضع من الناس، ويقال إنهما يوشع بن نون والب بن يوفنا، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله فقالا: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم ودخلتم البلد التي كتبها لكم فلم ينفع ذاك فيهم شيئاً ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]. تفسير ابن كثير (٢/٣٩، ٤٠).

(٢) كذا بالأصل.

الصالحة، حتى غضب الله عليه، بهذا القول بعد أن تقدم في السؤال الرابع أنه سبحانه غضب عليه وقال: إنك لن تدخل أنت أيضاً هنالك[١]، أما كان في خبر الله أولاً أنه لا يدخلها كفاية أم لم يكن في غضب الله تعالى عليه، أولا: زاجر له عن السؤال.

ثانيا: مع أن أقل درجات حال المؤمن الامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه، والوقوف عند زواجره، فكيف شأن العارف بالله تعالى، فكيف مقام النبوة.

وسادسها: أنه قال بعد ذلك بخمس ورقات، وكذلك يفعل الله ربك بالأمم الذين كنت تخشاهم، وسوف يرسل الله ربك (فيجلس)[٢] فيهم البخل حتى يبيدهم. ثم من بقي منهم أو اختبأ فلا تجبهم من أجل أن الله إلهك فيك الله الكبير المخشي، ويهلك الله ربك هذه الأمم من قدامك قليلاً قليلاً. لأنك لا تستطيع أن تبيدهم عاجلاً، والكلام على هذا من وجوه: أما أولاً: فإذا كان مهلك هذه الأمم قليلاً قليلاً هو الله (لا شيء غيره)[٣]. فكيف يحسن أن يقال ثم من تبقى منهم أو اختبأ فلا تجبهم[٤].

---

(١) كانت وفاة هارون عليه السلام ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام وأقام الله فيهم يوسع بن نون عليه السلام نبيًّا خليفة عن موسى بن عمران ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، ويقال: إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب، ومن ههنا قال بعض المفسرين في قوله ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ٢٦] هذا وقف تام، وقوله: ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ منصوب بقوله: ﴿ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم قال: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علي، فحبسها الله تعالى حتى فتحها وأمر الله يوشع بن نون أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجدا وهم يقولون حطة أي حط عنّا ذنوبنا فبدلوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على استاههم وهم يقولون حبة في شعرة. (تفسير ابن كثير (٢/٤١).

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كلمة غير واضحة بالأصل وكتبناها بما يوافق النص.

(٤) قال تعالى﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم قدر مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسيرون دائما لا يهتدون للخروج منه وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام وإنزال المنِّ والسلوى عليهم ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنا عشرة عينا تجري لكل =

أما ثانياً: فكيف يحسن أن يقال: من أجل أن الله إلهك فيك، والله سبحانه منزه عن الحلول في موسى واليهود المنزل عليهم هذا الكتاب موافقون على أن الله تعالى لا يحل في موسى، وكذلك النصارى وإن قالوا بالحلول في عيسى لكن لم يقولوا بالحلول في موسى على أن الحال في بدن عيسى عندهم إنما هو لاهوت الابن، أما لاهوت الأب الذي هو الله عندهم فلا.

وأما ثالثاً: فكيف يحسن أن يعلل إهلاك الله هذه الأمم قليلاً قليلاً، بأن موسى لا يستطيع أن يبيدهم عاجلاً فإن الله الذي أهلكهم قليلاً قليلاً يستطيع أن يبيدهم عاجلاً، أيضاً فلا يصح هذا التعليل.

أما لو كان مهلكهم قليلاً قليلاً هو موسى، صحَّ أن يعلل ذلك بأنه لا يستطيع هو أن يهلكهم عاجلاً، فلهذا أبادهم قليلاً قليلاً، لكن لما كان مهلكهم هو الله سبحانه وتعالى[1] امتنع هذا التعليل.

وسابعها: أنه قال بعد هذا بورقة: واعلم أن الله ربك هو يعبر قدامك هو نار كله فيبيدهم ويكسرهم من قدامك ويدمر عليهم ويهلكهم عاجلاً كما قال الله ربك. والكلام عليه من وجوه:

أما أولا: فكيف يحسن أن يقال إن الله ربك هو يعبر قدامك، والله سبحانه وتعالى منزه عن العبور إلى الأرض المذكورة وغيرها.

وأما ثانياً: فكيف يحسن أن يقال: إن الله سبحانه هو نار كله والله سبحانه وتعالى منزه عن النارية.

وأما ثالثاً: فكيف يحسن أن يقال: ويهلكهم عاجلاً[2]. وقد قال قبيل هذا في

= شعب عين وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام. تفسير ابن كثير (٢/٤١).

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].
أخبر الله تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ تفسير ابن كثير (٢/٤٧٦).

(٢) لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرجلان المذكوران اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مرَّ بملأ من الملائكة يحفرون قبراً =

السؤال السادس: أنه مهلكهم قليلاً قليلاً، هذا تناقض بين الخبرين.

وأما رابعاً: فكيف يحسن أن يقال كما قال ربك، ولم يتقدم قوله سبحانه: إلاّ أنه يهلكهم قليلاً قليلاً عاجلاً، كما بيناه، فلم يصح التشبيه المستفاد من الكاف في قوله كما.

وثامنها: أنه قال بعد هذا بثلاث ورقات، فاحفظوا جميع الوصايا التي أوصيتكم اليوم لتدخلوا وترثوا في الأرض التي تعبرون إليها لترثوها، وتكثر أيامكم في الأرض التي حلف لآبائكم أنه يعطيهم إياها ولخلوفهم، وهي أرض تفيض لبناً وعسلاً.

ومن أجل أن الأرض التي يدخلونها ليرثوها ليست مثل أرض مصر التي خرجتم منها التي كنتم تزرعون زرعكم وتسقونه بأرجلكم مثل بستان السقي إن الأرض التي تعبرون إليها وترثوها هي أرض جبال وآكام وتنال مساقيها مما تمطر السماء، وهي الأرض التي لا يزال الله يتعاهدها دائماً فيها عين الله ربك من أول السنة إلى آخر السنة(١).

والكلام على هذا من وجوه:

أما أولاً: فكيف يحسن أن يجعل جزاء امتثال أوامر الله سبحانه وحفظ وصاياه دخول أرض من أراضي الدنيا، ولا يذكر جزاء الآخرة ولا ثوابها ولا نعيمها الدائم الباقي.

وأما ثانياً: فإن أرض مصر ليس زرعها بأرجلهم مثل بستان السقي، بل زرعها

= فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج، فقال يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد من عباد الله كريم فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه وتوجه إلى ربك وتنفس أسهل تنفس، ففعل ذلك فمات صلوات الله وسلامه عليه فصلت عليه الملائكة ودفنوه. البداية والنهاية(١/٣٤٨).

(١) في تمرد بني إسرائيل على ما رزقهم الله من المنِّ والسلوى قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦٠، ٦١].

بمد النيل على أراضيها مع أن النيل أيضاً من ماء المطر الواقع بأراضي الحبشة ونواحيها.

وأما ثالثاً: فما تعاهد الله لهذه الأرض(١) دائماً زيادة على أرض مصر إن كان بالمطر فليس هو دائماً مع أن تسيير ماء النيل إلى أرض مصر دون باقي أراضي الله تعالى كلها أعجب من المطر، وإن كان بوجه آخر فما هو لتعلمه وتنظر فيه.

وأما رابعاً: فما المراد بكون عين الله تعالى فيها من أول السنة إلى آخرها، وما الذي يظهر بذلك من زيادة التأثير في هذه الأرض عن أرض مصر.

وتاسعها: أنه قال بعد هذا بورقتين، ولكن اذبحوا كل شيء تشتهيه أنفسكم وكلوا لحما كالبركة التي أعطاكم الله في قراكم كلها ما حرم منه وما حل، فكلوه مثل الظبي والإبل، ولكن لا تأكلوا الدم(٢) بل اهرقوه على الأرض مثل الماء، والكلام على هذا من وجهين:

أحدهما: كيف يحسن أن يقال: وكلوا لحماً كالبركة ما حرم منه وما حل فكلوه، مع أن الحرام لا يأمر الله بأكله ولا يأذن فيه ولو أمر بأكله أو أذن فيه لما كان حراماً، فكيف يمكن أن يكون حراماً ومأموراً بأكله(٣). هذا تناقض ظاهر.

وثانيهما: أنه كان ينبغي أن يقال ولكن لا تشربوا الدم فإن الدم الذي يهريق

---

(١) روى البخاري في صحيحه (٤٤٧٩) كتاب التفسير، باب: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ [البقرة: ٥٨] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا: حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا: حطة حبة في شعرة».

(٢) قال تعالى:﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٢، ١٧٣] في قوله: "والدم": يعني به الدم المسفوح كقوله: ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير، وروى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه فقالوا: إنه دم فقال: إنما حرم عليكم الدم المسفوح. تفسير ابن كثير (٢/٧).

(٣) روى ابن ماجه في سننه (٣٣٦٧) كتاب الأطعمة عن سلمان الفارسي قال: سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء؟ قال: «الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه».

على الأرض مثل الماء المشروب لا مأكول، والسؤالان يردان على قوله عقيب هذا بأسطر ولكن كلوه كما يؤكل الظبي والإبل(١) ما حرم منه وما حلّ جميعاً فكلوه، ولكن احتفظوا أن لا تأكلوا الدم.

وعاشرها: أنه قال بعد هذا بورقتين، وما كان من الطير طاهراً فكلوا ولا تأكلوا مما خبث، ولكن أعطه سكان أرضك تأكله أو بعض الغرباء، لأن شعبك طاهر لله ربك، لا تطبخ الجدي بلبن أمه، والكلام على هذا من وجهين:

أما أولاً: أن ظاهر هذا الكلام أن هذا المأكول محرم على بني إسرائيل وحدهم حلال لغيرهم من السكان والغرباء، وأن هذين الطائفتين ليسوا مكلفين بشريعة موسى ولا بغيرها كأهل مصر، وأن الله أهملهم بغير تكليف وبغير شريعة مع مخالطتهم، مع أهل الشريعة. وكيف يحسن هذا في الحكمة الإلهية أن تبالغ في هداية بني إسرائيل إلى هذا الحد من المبالغة، ويهمل غيرهم إلى هذا الحد من الإهمال، ولا يقال إنهم كانوا مكلفين بشريعة غير موسى إذ لو كان كذلك لما تعرض لهم موسى ولما قاتلهم.

وأما ثانياً: فكيف يحسن أن يحرم الجدي بلبن أمه مع أنه يؤكل بلبن أمه ويؤكل لحمه مع لحمها، فأي فرق بين الأول وبين الأخيرين(٢).

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، قال ابن كثير: قال ابن جرير يقول تعالى: وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ وهو البعير والنعامة وكذا قال مجاهد والسدي في رواية، وقال سعيد بن جبير هو الذي ليس منفرج الأصابع، وفي رواية عنه كل مفترق الأصابع ومنه الديك، وقال قتادة في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ وكان يقال البعير والنعامة وأشياء من الطير والحيتان، وفي رواية البعير والنعامة وحرم عليهم من الطير البط وشبهه وكلب شيء ليس بمشقوق الأصابع.
وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ قال السدي يعني الثرب وشحم الكليتين وكانت اليهود تقول إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه وقال قتادة: الثرب وكل شحم كان كذلك ليس في عظم. تفسير ابن كثير (١٨٩/٢).

(٢) في قوله تعالى: ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير الحوايا جمع واحدها حاوياء
=

وحادي عشرها: أنه قال بعد هذا بثلاث ورقات وإن أنت عجزت عن الفصل في القضاء فيما بين الدم والدم، والحكم والحكم، والجرح والجرح، وبين الخصومة والخصومة، والخصومة وحكم القضاء في مدتك، فانطلقوا إلى المكان اختار الله ربكم وتصير إلى الحبر أو اللاوي أو القاضي الذي يكون في تلك الأيام وسلوه، فهو يخبركم بقضاء ما سألوه عنه ثم اصنع ما أمرت به في ذلك المكان كما أمرك الله ثم احفظ واعمل كما يعلمونك من فم السنة التي يدل لك عليها ويقول لك القضاة بأفواههم، ولا تزيغن عن الكلام الذي يقولون لك يميناً وشمالاً، والكلام على هذا من وجوه:

أما أولاً: فإن ظاهر قوله: وإن عجزت، أنه خطاب من الله لموسى عليه السلام ومتى عجز موسى عن الفصل في القضاء وهو سيد زمانه وعالم وقته ونبي أمته، فأي حبر، أو لاو أو قاض يمكن أن يكون أعلم منه حتى يسأله ليخبره به.

فإن قيل: لعل هذا خطاب للخصم الذي يطلب التقاضي عند قاض ينطقه. قلت: يأباه قوله: وإن أنت عجزت عن الفصل في القضاء فإن الخصم نفسه لا يفصل في القضاء بل الحاكم على الخصمين هو الذي يفصل فيه.

وأما ثانياً: فإن موسى صاحب الشرع في وقته وعليه ينزل الوحي من الله تعالى، ويكلمه شفاهاً[1]، فأي قاض على رتبة منه حتى يأتمر موسى بأمره، ويقال له واعمل

=

وحاوية وهو ما تحوى من البطن، فاجتمع واستدار وهي بنات اللبن وهي المباعر وتسمى المرابض وفيها الأمعاء قال ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورها وما حملت الحوايا.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أو الحوايا وهي المبعر وقال مجاهد: الحوايا المبعر والمربض وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وقتادة وأبو مالك والسدي وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد: الحوايا المرابض التي تكون فيها الأمعاء تكون وسطها وهي بنات اللبن وهي في كلام العرب تدعى المرابض. تفسير ابن كثير (١٨٩/٢).

(١) قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ولهذا يقال له الكليم وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبي بكر بن عياش جاء رجل إليه فقال: سمعت رجلا يقرأ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر.... الحديث.

ثم قال: وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك. لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو

=

كما يعلمونك.

وأما ثالثاً: فإن القضاء لا يكون بين دم ودم، ولا بين حكم وحكم، ولا بين جرح وجرح، ولا بين خصومة وخصومة بل القضاء يكون في دم وفي حكم وفي جرح وفي خصومة.

وثاني عشرها: أنه قال بعد هذا بورقة وأن الله ربك يقيم نبيًّا من وسطك من بني إخوتكم مثلك، فأسمعه أمته، كالذي سألت الله أنك في حوريب يوم الاجتماع، يوم قلت لا أعود أسمع صوت الله أبي ولا أرى هذه النار العظيمة فأموت. فقال لي الله: نعم ما قالوا، وسوف أقيم لهم نبيًّا من إخوتك مثلك، وأجعل كلمتي في فيه، فيقول لهم كل شيء أمره به.

والكلام به من ثلاثة أوجه:

أما أولاً: فإن هذا الكلام نصٌّ صريح في أن الله تعالى يقيم نبيًّا بعد موسى منهم فالنبي المذكور لا بد أن يظهر قطعاً، وإلا لزم كذب التوراة، وهم لا يقولون بجواز ذلك، ولا نجد قد ظهر بعد موسى إلا شخصان عيسى ومحمد عليهما السلام، فأحدهما هو النبي قطعاً، فإن كان هو عيسى ثبت أن عيسى نبي لا إله كما زعموا، وإن كان هو محمد ثبت صحة نبوة محمد ﷺ[1]، وقد أخبر محمد عليه الصلاة والسلام بأن عيسى نبي لا إله، فثبت أن عيسى نبي لا إله فلزم من هذا أن عيسى نبي لا إله على كلا

يكلم أحداً من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ فقال له يا بن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل. تفسير ابن كثير (١/٥٨٧، ٥٨٨).

(١) قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

هذه الآية نصٌّ في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بالطريق أولى والأحرى لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

قال الإمام أحمد بسنده عن أبي كعب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنه؟ فأنا في النبيين موضع اللبنة» تفسير ابن كثير (٣/٥٠٩).

التقديرين قطعاً، وهذا أمر لا مخلص لهم منه أصلاً، فأحد الأمرين لازم.

أما بطلان هذا النص أو بطلان ألوهية عيسى ونبوته ولا يمكن أن يقال لعل المذكور شخص ثالث سيظهر لأن هذا باطل بالاتفاق منا ومن النصارى.

أما عندنا فلا نبي بعد محمد، وأما عندهم فلا نبي بعد عيسى لا محمد ولا غيره، فانحصر النبي المذكور في عيسى ومحمد قطعاً.

وأما ثانياً: فإن قوله: وسوف أقيم لهم نبياً من إخوتك مثلك يقتضي أن يوجد فيهم مثل موسى، وسيأتي في آخر التوراة، وقد نقلته في السؤال الثالث والعشرين قوله: ولم تقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى(١)، فقد تناقض الخبران.

وأما ثالثاً: فكيف يحسن قوله: كالذي سألت الله ربك بكاف التشبيه، وأي بقية بين ما قبل الكاف وما بعدها، فإن الأول إخبار عن الله بإقامته نبيًّا من بني إسرائيل، والثاني: إخبار عن أنفسهم أنهم لا يسمعون صوت الله خوفاً من الموت.

وأما رابعًا: فإن هذا الكلام إن كان خطاباً من الله تعالى لموسى لم يصح لتغير الكلام، وهو قوله يوم قلت لا أعود أسمع صوت ربي ولا أرى هذه النار العظيمة فأموت، فإن هذا إنما قاله بنو إسرائيل، لأنه كذا تقدم في موضعه المشار إليه بقوله يوم الاجتماع ولأن موسى لا يخاف من سماع صوت الله تعالى الموت، وإن كان خطاباً من موسى لبني إسرائيل لم يصح أيضاً آخر الكلام المذكور وهو قوله: يوم قلت بلفظ الإفراد، لأن التاء للمخاطب المفرد، والتاء والميم للمخاطب المجموع، وبنو إسرائيل جماعة، وكذا الضمائر المجتمعة الأخر، وهي الضمير في سألت، والضمير في ربك،

---

(١) قال تعالى في بشارة عيسى عليه السلام لنبوة محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد، فعيسى عليه السلام وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة وما أحسن ما أورد البخاري الذي قال فيه بسنده عن جبير بن مطعم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب» وقد رواه مسلم نحوه. تفسير ابن كثير (٤/٣٥٩).

والضمير في أعود، والضمير في أسمع، والضمير في ربي، والضمير في أرى، والضمير في أموت، فإن الضمائر الثمانية كلها ضمائر مفرد لا جماعة.

وثالث عشرها: أنه قال بعد هذا بأربع ورقات: ولأنهم استأجروا بلعام بن باعوراء(١) من فتور أرام النهرين ليلعن بني إسرائيل، والله إلهك لم يحب أن يسمع من بلعام وجعل الله إلهك لعن بلعام بركات، لأن الله إلهكم أحبكم.

والكلام على هذا من وجهين:

أما أولاً: فكيف يحسن أن يقال: والله إلهك لم يحب أن يسمع، مع أن بلعام كما تقدم في الفصل السابع عشر من السفر الرابع لم يسأل من الله تعالى في حق بني

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

قال عبد الرزاق بسنده عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ قال هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء.

وقال مالك بن دينار كان من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن نبي إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه يعني بلعام وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ماكان عليه فذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ .

وقال السدي: لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ بعث يوشع بن نون نبياً فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعام فكان عالما يعلم الاسم الأعظم المكتوب فكفر لعنه الله، وأتى الجبارين وقال لهم لا ترهبوا بني إسرائيل فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعوا عليهم دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمهن فكان ينكح أتانا له وهو الذي قال الله تعالى: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ . تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٠، ٢٧١).

إسرائيل شيئاً لما طلب (بألف)[1] منه أن يلعنهم قال: إنما أقول ما يلقي الله تعالى على فمي، لا أزيد عليه، فلم يلق الله على فمه إلاَّ أن يباركهم فلم يوجد منه سؤال لعنه حتى يقال لم يحب أن يسمع منه.

وأما ثانيا: فإن بلعام لم يلعن بني إسرائيل ولا تلفظ بلعنهم أصلاً حتى يقال، وجعل الله إلهك لعن وبلعام بركات، ولكنه قال فمالي ألعن من لم يلعنه الله. وكيف أبد ما لم يبده الرب.

ورابع عشرها: أنه قال بعد هذا بثلاث ورقات وإن أذنب رجلا ذنباً فليقل ويصلب على خشبة ولا يبات جسده على الخشبة، لكن يدفن من يومه من أجل أنه من الله ملعون كل مرفوع على خشبة والكلام على هذا من وجوه:

أما أولاً: فإن هذا نصٌّ يقتضي أن عيسى عليه السلام لم يصلب على خشبة، وإنما شبه لهم، وبيانه أنه لو صلب على خشبة لكان ملعوناً من الله تعالى، وليس بملعون من الله تعالى فلم يصلب على خشبة ، أما المقدمة الأولى فبمقتضى هذا النص.

وأما الثانية: فبالإجماع منّا ومن النصارى وهذا أمرٌ لا يخلص لهم منه أصلاً ولا جواب عنه ألبتة.

وأما ثانياً: فإنه ربما صلب إنسان على خشبة مظلوماً بغير سبب موجب لصلبه كما تعتقده النصارى في عيسى[2]، ومثل هذا لا يمكن أصلاً أنه يقال أنه ملعون من الله

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) قال تعالى:﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٩].

قال ابن كثير: أى رأوا شبهه فظنوه إياه، ولهذا قال: «وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن» يعني بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه إليهم من جهل النصارى كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر، ولهذا قال: «وما قتلوه يقينا» أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين«بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً» أي منيع الجناب لا يرام في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التى يخلقها وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم.

وروى ابن حاتم بسنده عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على =

تعالى بل مقرب متاب عنه من الله تعالى بإجماع العقلاء، فكيف يقال أنه من الله ملعون كل مرفوع على خشبة.

وأما ثالثا: فإن تعليل أن لا يبات جسده على الخشبة بأن كل مرفوع على الخشبة ملعون غير صحيح، فإنه قد رفع على الخشبة في الجملة وحطه عنها لا يدفع عنه اللعنة، أما لو قيل: لا يبات جسده على الخشبة من أجل أن كل مستدام على الخشبة ملعون يصح التعليل.

وخامس عاشرها: أنه قال بعد هذا بأسطر: وإذا خرجت للخلاء فليكن معك في يدك وتد من حديد تحفر به لتغطي عذرتك لأن الله ربك يسير في عسكرك وسكينته تحمل معكم أينما ذهبتم ليخلصكم وينصركم على جميع أعدائكم وتكون منازلكم طاهرة مقدسة لا يكن فيها دنس ولاشرّ، فيصرف الله وجهه عنكم، وإذا لقيتم عبداً فاراً من سيده فلا تجرسوا به، ولا تدلوا عليه، ولكن أجلسوه معكم حيث أحب من قراكم ولا تظلموه.

والكلام على هذا من وجوه:

أما أولاً: فإن الله تعالى منزه عن أن يسير في العسكر.

وأما ثانيا: فإن اقتراح أن تحفر بوتد من حديد ليغطي عذرته تضيق من غير فائدة، بل يحصل الستر والتغطية بأي وجه كان.

وأما ثالثاً: فإن تعليل الأمر بالتغطية بأن يكون منازلهم طاهرة مناسب، وأما تعليله بأنه يخلصهم وينصرهم على أعدائهم فلا وجه له.

= أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي قال: ثم قال أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له اجلس ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا فقال: هو أنت ذاك فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمين، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ. تفسير ابن كثير (١/٥٧٤، ٥٧٥).

وأما رابعاً: فإن قوله: ولا يكن فيها دنس لا يصح، فإنها فيها الدنس غطى أو لم يغط، وإنما كان صوابه أن يقال: ولا يظهر فيها دنس.

وأما خامساً: فكيف يحسن أن يقول عن العبد الفار من سيده فلا تجرسوا به، ولا تدلوا به، وهو نهي عن حفظ مال الغير، وحث على تضييعه.

وأيضاً فقد تقدم في القراءة السابعة عشر من السفر الأول قوله[1]: إذا وجدت ثور عدوك أو حماره ضالاً فرده عليه، فأين هذا من ذاك هنا حث على عدم حفظه له، وهناك يأمر بحفظه ورده عليه مع أنه عدو.

وسادس عشرها: أنه قال بعد هذا بأسطر: وأي رجل منكم نكح امرأة فلم يرزق منها حبًّا، أو وجد عليها غيرة فيخل سبيلها بمعروف وليكتب لها كتاب الطلاق، وليسلم إليها مهرها، فلتذهب حيث شاءت.

الكلام على هذا من وجهين:

أما أولاً: فإن تقسيم القضية إلى أنه لم يرزق منها حباً، وإلى أنه قد وجد عليها غيرة، تطويل لا حاجة إليه بل حاصله أن الرجل له أن يطلق امرأته متى أراد، وهذا كاف عن السببين أما عن الأول فلأنه إذا لم يرزق منها حبًّا لا يطلقها إلا أنه أراد

---

(١) روى مسلم في صحيحه [١/(١٧٢٢)] كتاب اللقطة عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن اللقطة؟ فقال: أعرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة، فإن جاء صاحبها، وإلا فشأنك بها» قال: فضالة الغنم قال: لك أو لأخيك أو للذئب قال: فضالة الأبل؟ قال: «مالك ولها ؟ معها سقاؤها وغداؤها ترد الماء وتأكل الشجر، حتى يلقاها ربها».

وقال النووى: قال أصحابنا: إذا عرفها فجاء صاحبها في أثناء مدة التعريف أو بعد انقضائها ، وقيل: إن يتملكها المتلقط فأثبت أنه صاحبها أخذها بزيادتها المتصلة والمنفصلة، فالمتصلة كالسمن في الحيوان وتعليم صنعة ونحو ذلك والمنفصلة كالولد واللبن والصوف واكتساب العبد نحو ذلك، وأما إن جاء من يدعيها ولم يثبت ذلك فإن لم يصدقه الملتقط لم يجز له دفعها إليه وإن صدق جاز له الدفع إليه ولا يلزمه حتى يقيم البينة هذا كله إذا جاء قبل أن يتملكها الملتقط فأما إذا عرفها سنة ولم يجد صاحبها فله أن يديم حفظها لصاحبها وله أن يتملكها سواء كان غنياً أو فقيراً، فإن أراد تملكها فمتى يملكها فيه أوجه لأصحابنا: أصحها: لا يملكها حتى يتلفظ بالتملك بأن يقول تملكتها أو اخترت تملكها والثاني: لا يملكها إلا بالتصرف فيها بالبيع ونحوه والثالث: يكفيه نية التملك ولا يحتاج إلى لفظ، والرابع: يملك بمجرد مضي السنة.

النووي في شرح مسلم (٢١/١٢) طبعة دار الكتب العلمية.

الطلاق لا لأنه لم يحبها فقط، فإنه قد لا يحبها ولكن لا يكرهها ولا يريد طلاقها.

ومثل هذا لا يطلقها، وكاف عن السبب الثاني أيضاً لأنه إذا وجد عليها غيرة لا يطلقها إلا أنه إذا أراد طلاقها لأنه لو وجد عليها غيرة، وصبر عليها ورضي بها لم يطلقها أيضاً.

وأما ثانيا: فإن هذا نص صريح في شرعية الطلاق بأحد هذين السببين، مع أن النصارى لا يقولون به في السبب الأول، فقد خالفوا نص كتابهم(١).

وسابع عشرها: أنه قال فيمن مات وترك زوجته بعد هذا بورقة ونصف، فإن كره إخوته وقالوا: لا ينكحها رجل منا ولا يكون فيها بسبيل فلتخلع المرأة خف الذي أبى ولتبصق في وجهه، وتقول هكذا يفعل بكل رجل لا يريد أن يقيم بيت أخيه.

والكلام على هذا من وجوه:

أما أولاً: فإن إلزام الإنسان بأن يتزوج بزوجة أخيه وإلاّ عوقب عليه، مع أنها قد تكون عوراء، أو كتعاء، أو عرجاء أو قبيحة الصورة، لا وجه له أصل بضرورة العقل.

وأما ثانياً: فإن تعيين هذه العقوبة الحسية مع إمكان أن يقال: إنه محرم يعاقبه الله تعالى عليه أو يمنعه بسببه من دخول أرض كنعان المذكورة الممتن بها عليهم، لا وجه له أصلاً أيضاً.

وأما ثالثاً: فإن المرأة تباشر بنفسها طلب الزواج ولا سيما على هذه الصفة، وهذه العقوبة في غاية ما يكون من قلة الحياء الذي لا وجه له أصلاً.

وأما رابعاً: فإن هذا نص صريح في إباحة أن يتزوج الإنسان زوجة أخيه، بل في إيجابه، مع أن النصارى لا يبيحونه، بل يحرمونه فقد خالفوا كتابهم(٢).

---

(١) قال تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله على ثلاث طلقات وأباح الرجعة في المرة والثنتين وأبانها بالكلية في الثالثة. تفسير ابن كثير (٢٧١/١).

(٢) قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ =

وثامن عشرها: أنه قال بعد هذا بثلاث ورقات لأسباط بني إسرائيل: وليحب هؤلاء البقر، ويقولوا لبني إسرائيل بصوت رفيع ملعون من يكون يضع الأوثان الملعونة المرجوسة عند الله الذي تعملها الأيدي واتخذوها آلهة من دون الله، وليقل بنو إسرائيل كلهم آمين، ملعون يكون من يسب أباه وأمه، وليقل بنو إسرائيل كلهم ملعون من يكون كذا إلى آخره، والكلام عليه من وجهين:

أما أولاً: فإن هذا تطويل من غير فائدة بل كان طريقه المفيدة المقصود قطعاً على أبلغ وجه من غير تطويل، أن يقول الله سبحانه ملعون من يكون كذا أما إنه يأمر من يدعو ويأمر من يؤمن على دعائه، ولا يعلم هل يترتب عليهما إجابة أم لا، فهذا تطويل من غير فائدة.

وأما ثانياً: فإن قوله في الأخير ملعون يكون من لا يستقيم ويتبع جميع وصايا الله التي أوصاكم الله بها وليقل بنو إسرائيل كلهم آمين، هو أمر لهم بأنهم يلعنوا أنفسهم، ويؤمنوا كلهم على لعنتها، فإنه لا يسلم أحد من هذه اللعنة لأنه لا يقدر أحد من البشر أن يستقيم ويتبع جميع وصايا الله تعالى بل لا بد له من تقصير بحسب حاله.

وتاسع عشرها: أنه قال بعد هذا بثلاث ورقات فيقولون في الليل متى نصبح،

= فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ [النساء: ٢٣، ٢٤] .

قال ابن كثير: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم يعني الأربع، فالزموا كتابه ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه، وقال عبيده وعطاء والسدي في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني الأربع، وقال تعالى:﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي ما عدا من ذكرت من المحارم هن لكم حلال قاله عطاء لما تقدم، وقال قتادة: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ يعني مما ملكت أيمانكم ، وهذه الآية هي التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين، وقول من قال: أحلتهما آية، وحرمتهما آية وقوله تعالى: ﴿ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع أو السراري ماشئتم بالطريق الشرعي. تفسير ابن كثير (١/٤٧٤).

وفي النهار متى نمسي مما قد حل بكم من البلاء والرعب وتراه عيونكم، ويردكم الله إلى مصر بألوف كثيرة في الطريق التي قلت لكم لا تعودوا لتسلكونها فتباعون فيها من أعدائكم لتكونوا لهم عبيداً وإماء ولا يشتريكم أحد(١).

والكلام على هذا من وجهين:

أما أولاً: فكيف يحسن أن يقال فيردكم الله إلى مصر في الطريق التي قلت لكم لا تعودوا تسلكونها مع أنه كلام متناقض في نفسه لأنه إذا أخبر بأنهم لا يسلكونها لم يردهم على مصر فيها، وإذا كان يردهم فيها فهم يسلكونها، فالجمع بين صدق الخبرين محال.

فإن قيل لعل مراده بقوله لا تعودوا تسلكونها أنه أمر لا أنه خبر.

قلت: حينئذ لا يبقى فيه فائدة، لأنه إذا ردهم قهراً في طريق أمرهم بعد

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/٣٠٢): لما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا على طريق بحر سوف وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عامود نور، وبالليل أمامهم عامود نار فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين، وهم هناك حلول على شاطئ اليم فقلق كثير من بني إسرائيل حتى قال قائلهم كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية، وقال موسى عليه السلام لمن هذه المقالة: لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا، قالوا وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس، وصار الماء زمن ههنا وههنا كالجبلين وصار وسطه يبساً لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر واتبعهم فرعون وجنوده، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم. لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم والله أعلم وقال تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

قالوا: هذا الجهل والضلال، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته، مادلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام، وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناماً قيل: كانت على صور البقر، فكأنهم سألوهم لم يعبدونها؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك فسألوا نبيهم الكليم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة فقال لهم مبيناً لهم إنهم لا يعقلون ولا يهتدون:﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. تفسير ابن كثير (١/٣٠٣، ٣٠٤)

يسلكونها لم يلحقهم غضب.

أما ثانياً: فكيف يحسن أن يقال: فتباعون فيها من أعدائكم ثم يقال عقيبه: ولا يشتريكم أحد، مع أنه كلام متناقض في نفسه أيضاً، لأنه إذا أخبر أنهم يباعون من أعدائهم فالجمع بين صدق الخبرين محال فإن قلت لعل مراده بقوله: فتباعون فيها من أعدائكم، معرضون للبيع.

قلت: هذا خلاف حقيقة اللفظ أن البيع غير العرض للبيع، وأيضاً فإن ظاهر قوله: وتباعون فيها من أعدائكم أن المراد حقيقة البيع لأنه المفهوم من تعيين المشترى إذا العرض للبيع لا يستدعي معروضاً عليه معيناً بل الشخص يعرض ليشتري من كان، أما البيع فيستدعي مشترياً معيناً.

العشرون: أنه قال بعد هذا بأربع ورقات وأسخطوني بالغرباء (وأقافلونى)[1] بأوثانهم، وذبحوا للشياطين الذين ليسوا بآلهة، آلهة لم يعرفوها جدد هي والآن محدثة لم يحدثها آباؤهم، ونسيت الله الذي أشبعك، فرأى الرب ذلك وغضب على إثم بنيه وبناته، وقال: اصرف وجهي عنهم وانظر ما تكون آخرتهم من أجل أنه خلف مخالف وأولاد ليس فيهم أمانة والكلام على هذا من وجوه:

أما أولاً: فإن قوله: آلهة لم يعرفوها جدد، هي مشكل فإنه أثبت أنها آلهة، وليس كذلك بل صوابه أن يقول أشياء زعموا أنها آلهة وليست بآلهة.

وأما ثانيا: فإن قوله: لم يعرفوها جدد، وهي لا تقدح فيها إذا كانت آلهة أنهم لا يعرفوها، فإن الله تعالى لم يكن معروفاً ثم عرف.

وأما ثالثاً: فإن قوله: والآن محدثة لم يحدثها آباؤهما يقتضي أنه إنما دعها بأنها محدثة لم يحدثها آباؤهم، وأنها لو كانت محدثه أحدثها آباؤهم لها بل كانت تستحق الألوهية وليس كذلك[2].

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال كما قاله ابن عباس وغيره من آئمة السلف قال ابن عباس وغيره: قال قائلون منهم: كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء، وقال آخرون: هو الله، وقال آخرون هو ابن الله، فالأول ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧].

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ثم بعد =

وأما رابعاً: فإن قوله وغضب على إثم بنيه وبناته يقتضي تسمية بني إسرائيل بنيه وبناته، فلم يبق لعيسى مزية عليهم في تسميته في الإنجيل ابناً، فيبطل اعتقادهم أنه ابن الله بتفسيرهم لمشاركته لهم في هذه التسمية مع أنهم ليسوا أبناء ولا بنات الله بتفسيرهم بالإجماع، وحينئذ فيتعين أن يكون تسميته ابناً وتسميتهم أبناء وبنات إنما هو على جهة التكريم كقول العالم لتلميذه: يا بني، ولتلاميذته يا أولادي.

وأما خامساً: فإن قوله: وانظر ما تكون آخرتهم، يقتضي أنه تعالى لا يعلم الآن آخرتهم، وليس كذلك أنه عالم بما كان وما يكون، لا يخفى عنه شيء سبحانه وتعالى.

الحادي والعشرون: أنه قال بعد هذا بورقة ، وكلم الله موسى في هذا اليوم، وقال: ارق هذا الجبل جبل العبرانيين، جبل تابوا في أرض مؤآب تلقاء أريحا ثم انظر إلى أرض كنعان التى أعطى بني إسرائيل الله ميراثاً ثم مت في الجبل الذي تصعد إليه واجتمع إلى شعبك كما مات أخوك هارون في هور الطور، واجتمع إلى شعبه على أنكما خالفتما كل قولي في بني إسرائيل الذين أسخطوني عند الخصام الذي في (ومم)[(١)] قوية متين ، وعلى (الكالم)[(٢)] يطهراني في بني إسرائيل فإنك ستنظر إلى الأرض التي أورثها بني إسرائيل، وأما أنت فلا تدخلها، والكلام على هذا من وجوه.

أما أولاً: فإن قوله: ثم مت في الجبل[(٣)]، أمر بالموت وليس الموت من فعله حتى

= المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى، اختلف البتاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة، والرهابين في المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط، واجتمعوا أو تحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم المجمع الأول فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول تلك المقالات فسموا: الملكية ودحض من عداهم وأبعدهم ، وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أديوس الذي ثبت على أن عيسى عبد الله ورسوله فسكنوا البراري والبوادي وبنوا الصوامع والديارات والقلايات وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملك والنحل وبنت الملكية الكنائس الهائلة عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان، فحولوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدي. البداية والنهاية (٤٨٠/١).

(١) كذا بالأصل.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) في ذكر وفاته أخرج البخاري في صحيحه (٣٤٠٧) عن أبي هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد =

يؤمر به، وإنما هو من فعل الله تعالى أو من يجعله إليه ليفعله بموسى وبغيره فلا يصح أنه يأمر موسى به، ولا يمكن أن يقال إن هذا أمر تكوين لا أمر تكليف ، لأنه لو كان أمر تكوين لوقع المأمور به ولم يتأخر عن الأمر أصلاً.

وصوابه أن يقال: إنك ستموت إذا رقيت الجبل بلفظ الخبر دون الأمر.

وأما ثانياً: فإن قوله على أنكما خالفتما كل قولي مشكل فإنه من المعلوم قطعاً أن موسى وهارون ما يخالفا الله تعالى في كل قوله.

وأيضاً فإذا كان موسى وهارون قد خالفا الله تعالى في كل قوله، فمن يوافقه غيرهما في كل قوله أو في بعضه.

وأما ثالثا: فإن بني إسرائيل أكثر مخالفة من موسى وهارون بلا شك، وهم

=

الموت، قال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب: ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، قال: فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

وأخرجه مسلم في صحيحه [١٥٧-٢٣٧٢] في الفضائل، باب فضائل موسى عليه السلام، قال النووي في قوله ﷺ: «صكه ففقأ عينه» قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكروا تصوره قالوا: كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت قال: وأجاب العلماء على هذا بأجوبة: أحدها أنه لا يمتنع أن يكون موسى ﷺ قد أذن الله تعالى له في هذه اللطمة ويكون ذلك امتحاناً للملطوم والله سبحانه وتعالى يفعل في خلقه ما شاء ويمتحنهم بما أراد.

والثاني: أن هذا على المجاز ، والمراد أن موسى ناظره وحاجَّه فغلبه بالحجة ويقال: فقأ عين فلان إذا غالبه بالحجة، ويقال: عورت الشيء إذا أدخلت فيه نقصاً، قال: وفي هذا ضعف لقوله ﷺ «فرد الله عينه» فإن قيل أراد رد حجته كان بعيداً، والثالث: أن موسى ﷺ لم يعلم أنه ملك من عند الله وظن أنه رجل قصده يريد نفسه فدافعه عنها فأدت المدافعة إلى فقء عينه لا أنه قصدها بالفقء وتؤيده رواية صكه، وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين، واختاره المازري والقاضي عياض. قالوا: وليس في الحديث تصريح بأنه تعمد فقء عينه، فإن قيل: فقد اعترف موسى حيث جاءه ثانيا بأنه ملك الموت، فالجواب أنه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم بخلاف المرة الأولى والله أعلم، قوله في الرواية الثانية فالآن من قريب رب أمتني بالأرض المقدسة رمية بحجر هكذا هو في معظم النسخ أمتني بالميم والتاء والنون وفي بعضها أدنني بالدال ونونين وكلاهما صحيح. النووي في شرح (١٥/١٠٥، ١٠٦) طبعة دار الكتب العلمية.

أصحاب المخالفات والخطايا وقد أدخلهم الله الأرض، ولم يمتهم قبل إدخالهم إليها فكيف يحسن أن يمنع موسى وهارون من دخولها ويموتا قبل دخولها مع قلة مخالفتهما.

الثاني والعشرون: أنه قال عقيب هذا جاء الله من طور سيناء، ويشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبل فاران ومعه ربوة من أطهار الملائكة عن يمينه، فوهب لهم واجبهم ورحم شعبهم، وباركهم وبارك على إطهاره ، وهم يدركون في آثار رجليك ويقبلون من كلمتك ، أسلم لنا موسى مثله، وأعطاهم ميراثاً لجماعة يعقوب، ويكون رئيساً في الخبيث إذا اجتمع رؤساء الشعوب جميعاً لقبائل إسرائيل والكلام على هذا من وجوه:

أما أولاً: فإن قوله جاء الله من طور سيناء يقتضي التجسيد، لأن المجيء من المكان إنما يصح من الأجساد، والله سبحانه منزه عن التجسيد باتفاق منَّا ومن اليهود والنصارى أيضاً فإنهم إنما جسدوا الابن.

وأما ثانياً: فإن قوله: ويشرق لنا من ساعير، مشكل لأن المخبر بهذا هو الله تعالى، والله تعالى لا يخبر عن نفسه بقوله ويشرق لنا.

وأما ثالثاً: فقوله: وهم يدركون في آثار رجليك ويقبلون من كلمتك، وقوله: أسلم لنا موسى مثله وقوله: ويكون رئيساً في الخبيث كله، مشكل.

لأن ظاهره أنه جميعه إخبار عن موسى(١)، ولا يمكن القول به، وأما بعد هذا من

---

(١) روى البخاري في صحيحه (٣٤٠٨) كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين في قسم يقسم به، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودى ، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: «لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله». وأخرجه: مسلم في صحيحه [١٦٠- (٢٣٧٣)] كتاب الفضائل ، ٤٢- باب من فضائل موسى ﷺ.

وقال النووي: قال القاضي: يحتمل أن هذه الصعقة صعقة فزع بعد البعث حين تنشق السموات والأرض فتنتظم حينئذ الآيات ويؤيده قوله ﷺ: «فأفاق» لأنه إنما يقال أفاق من الغشي، وأما الموت فيقال بعث منه وصعقة الطور لم تكن موتاً، وأما قوله ﷺ: «**فلا أدري أفاق قبلي**» فيحتمل أنه ﷺ قاله قبل أن يعلم أنه أول من تنشق عنه الأرض إن كان هذا اللفظ على ظاهره وأن نبينا ﷺ أول شخص وتنشق عنه الأرض على الإطلاق، قال: ويجوز أن يكون معناه أنه من الزمرة الذين هم أول من تنشق عنهم الأرض فيكون موسى من تلك =

مخاطبات الله لأسباط بني إسرائيل وما فيها من الرموز، فلا نرى أن نطيل الكتاب بالكلام عليها، لأن ظاهرها غير مراده، وباطنها لا نعلمه نحن ولا أهل هذا الكتاب.

الثالث والعشرون: أنه قال عقيب هذه المخاطبات في آخر هذا السفر الخامس: فمات ثم موسى عبد الله في أرض مؤآب بكلمة الله الله، فقبره في وادي في أرض مؤآب مقابل فاغور ولم يعلم أحد من الناس إلى اليوم مكان قبره وكان موسى عليه السلام ابن عشرين ومائة سنة إذ مات، ولم يثقل عيناه، ولم ينقبض وجهه وخداه.

فبكى بنو إسرائيل على موسى في غزات مؤآب ثلاثين يوماً، فكملت أيامه، وامتلئ يوشع بن نون(١) من الروح ونور الحكمة من أجل أن موسى حمل يده عليه، فأطاعه بنو إسرائيل، فأعلموا كالذي أوصى الله موسى ولم يقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى الذي كلمة الله وجهاً لوجه، وأرسله بالآيات العجيبات التي أرسله الله بهن ، وأن يعلم بأرض مصر بفرعون وأهله وأرضه كلها، واليد أخرجه، والرؤيا العجيبة التي صنع الله (....)(٢)، بني إسرائيل. هذا آخر التوراة(٣).

= الزمرة، وهي والله أعلم زمرة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هذا آخر كلام القاضي. النووي في شرح مسلم (١٥/١٠٧) طبعة دار الكتب العلمية.

(١) يوشع بن نون بن أفرائيم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.
وأهل الكتاب يقولون: يوشع ابن عم هود، وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر كما تقدم في قوله: «وإذ قال موسى لفتاه» «فلما جاوزا قال لفتاه».
وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب، فإن طائفة منهم وهم السامرة لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلاّ يوشع بن نون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم من ربهم فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ابن كثير البداية والنهاية(١/٣٤٩).

(٢) بياض بالأصل.

(٣) اعترف القرآن الكريم بالتوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام ومدحها في آيات كثيرة من ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ وقد أخبرنا القرآن بأن اليهود قد امتدت أيديهم الأثيمة إلى التوراة فحرفوها وبدلوها وأخفوا منها مالا يتفق مع أهوائهم وشهواتهم، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم =

والكلام على هذا من وجوه:

أما أولاً: فإن قوله: فمات ثم موسى عبد الله في أرض مؤآب مشكل.

لأن التوراة إنما نزلت على موسى، وموسى أبلغها إيانا، فبعد أن مات موسى، من أبلغنا هذا الكلام عن الله تعالى إن موسى مات.

وأما ثانياً: فإن قوله: ولم يعلم أحد من الناس إلى اليوم أين مكان قبره، مشكل أيضاً جداً. لأن الخبر، إن أخبر الله به في حياة موسى، لم يصح، لأنه لم يمت، لكن موسى مات ولا له قبر وإن أخبر به بعد وفاته موسى لم يصح، لأنه ليس له موصل إلينا سوى موسى. فلو كان بعد وفاته لما وصل إلينا.

وأيضاً فقوله إلى اليوم يقتضي أن المدة طويلة من حين موته إلى حين الإخبار، وهذا مما يقوى به الإشكال(1).

=

بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٥-٧٩].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟﴾ [المائدة: ١٣].

(١) قال في كتاب بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٧٤) في بيان التناقض والافتراء والانحراف عن الحق في التوراة التي بين أيديهم وهل هي التي أنزلها الله تعالى فقال: التوراة الموجودة حاليًا ليس لها سند متصل إلى موسى عليه السلام بل هي على النقيض من ذلك إذ يوجد فيها ما يدل دلالة قاطعة على أنها كتبت بعده بزمن طويل فمثلاً جاء في سفر التثنية بخصوص وفاة موسى عليه السلام نص يقول: «فمات موسى عبد الرب في أرض مؤاب ولا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا».

فهذا النص بعيد كل البعد عن أن يكون كتبه موسى عليه السلام وجاء فيه أيضاً «ولم يقم بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى» ومن الواضح أن مثل هذا الكلام مكتوب بعد وفاة موسى عليه السلام، وقد أقام الشيخ الهندي رحمه الله أدلة متعددة على انقطاع سند التوراة فقال: أنه لا سند لكونه هذه التوراة المنسوبة إلى موسى عليه السلام من تصنيفاته ويدل عليه أمور منها: أن تواتر هذه التوراة منقطع قبل زمان يوشيا بن آمون [هو أحد ملوك اليهود حكمهم من سنة (٦٤٠): سنة (٦٠٩) ق.م أي بعد موسى بستة قرون تقريباً]، والنسخة التي وجدت بعد

=

وأما ثالثاً: لأن قوله: فأطاعه بنو إسرئيل وعملوا كالذي أوصى الله موسى، فهذا خبر عنهم بأنهم أطاعوا وعملوا كما أوصى الله موسى، وهذا مدح تام في حقهم منه سبحانه وتعالى.

وقد تقدم فيما سبق مراراً متعددة إخبار الله تعالى عنهم بالذم، ولا سيما ما ذكره مرتباً، وقد نقلته في السؤال العشرين، وهو قوله: وقال: واصرف وجهي عنهم وانظر ما تكون آخرتهم من أجل أنه خلف مخالف، وأولاد ليس فيهم أمانة.

فقد تناقض الإخباران.

وأما رابعاً: فإن قوله: ولم يقيم بعد ذلك في إسرائيل مثل موسى، مشكل كما تقدم من جهة أن بعد ذلك من أوصل إلينا هذا الخبر عن الله تعالى.

وأيضاً فهذا يلزم منه أن موسى أفضل من عيسى عليهما السلام، وإذا كان أفضل منه بطل ما ذكره النصارى في عيسى أنه إله أو ابن الإله. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال المصنف رحمه الله تعالى: نجز ما يسره الله تعالى على خاطري من الأسئلة على التوراة في العشر الأواخر من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وستمائة بالكرك المحروس.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى سائر النبيين وآل كل أجمعين نفعنا الله بالعلم وجعله شاهداً لنا لا علينا بمنّه وكرمه، والحمد لله رب العالمين.

(وكان الفراغ منه في تاسع من جمادى الأول سنة تسع وسبعين وثمانمائة)[1].

=

ثماني عشرة سنة من جلوسه على سرير السلطنه لا اعتماد عليها يقيناً، ومع كونها غير معتمدة ضاعت هذه النسخة أيضاً غالباً قبل حادثة بختنصر، وفي حادثته انعدمت التوراة وسائر كتب العهد القديم عن صفحة العالم رأساً، ولما كتب غرراً هذه الكتب على زعمهم ضاعت نسخها وأكثر نقولها في حادثة أنتيوكس (هذا الذي حكم سوريا من سنة (١٧٤) إلى سنة (١٦٤) ق.م، وقد أذل خلال حكمه اليهود إذلالاً شديداً).

(١) هذا خاص بالنسخ من النسخة الأصلية.

فهرس المحتويات